382
5 A

للمؤلف

زينب — مناظر وأخلاق ريفية

جان جاك روسو حياته وكتبه   ظهر جزءان

فى أوقات الفراغ

عشرة أيام فى السودان

دين مصر العام — رسالة بالفرنسية

٢٠٠

تراجم

مصرية وغربية

كليوباطرة — اسماعيل باشا — توفيق باشا
محمد قدرى باشا — بطرس غالى باشا — مصطفى كامل باشا
قاسم أمين بك — اسماعيل صبرى باشا — محمود سليمان باشا
عبد الخالق ثروت باشا
بتهوفن — تين — شكسبير — شلى

تأليف

الدكتور محمد حسين هيكل بك

مطبعة السياسة والسياسة الاسبوعية

اهداء الكتاب

الى صديقى

الدكتور حافظ عفيفى باشا

تقديراً لما كان لصداقته من فضل فى اقدامى على كتابة كثير
من فصول هذا الكتاب

هيكل

مقدمة

يحتوى هذا المجلد كتابين من التراجم . فأما أولهما فيتناول تراجم مصرية لرجال هذا العصر الاخير منذ ولاية الخديو اسماعيل باشا الحكم الى وقتنا الحاضر، خلا ترجمة لكليوباترة كتبت قبل أن تكتب هذه التراجم جميعاً . أما سائر التراجم المصرية فنشرت فى السياسة الاسبوعية حين كانت تنشر فيها فصول رجال التاريخ الحديث فى مصر، اللهم إلا ترجمة محمود سليمان باشا فقد كتبت لمناسبة وفاته؛ وترجمة عبد الخالق ثروت باشا فقد كتبت ولم تنشر فى غير هذا الكتاب . وربما كانت الترجمة لرجل كثروت باشا عاش بين أظهرنا وكان له دور فى حياة مصر أثناء وجودنا، مما يتعذر اداؤه بما تقضى به الدقة التاريخية وما توجبه من تمحيص ونقد . وكنت أنا شاعراً كل الشعور بهذه الدقة أثناء كتابتى هذه الترجمة . لكنى انما تخطيت هذه الاعتبارات لأنى أردت أن أضع أمام القارىء صورة، ولو تقريبية، لحياة مصر السياسية فى هذا العصر الاخير . وما دمت قد بدأت هذه الصورة منذ عصر اسماعيل باشا الخديو، فقد رأيت واجبا اتمامها الى آخر عصرنا الحاضر . ثم ما دمت بدأتها بترجمة بعض من كان لهم فى حياة مصر السياسية أثر ظاهر فمن حق ثروت باشا أن يكون ختام هذه السلسلة من عظماء الرجال الذين تناولت . على أنى رأيت أن أقف فى ترجمته عند الوقائع الثابتة وأن أتجنب

المغامرة فى القروض والظنون، حتى لا يتعرض ما أكتب عنه لنقد يفسده وان أمكن أن يظهر فيه نقص كثير .

فأما الكتاب الثانى فيتناول ترجمة بتهوفن، وتين، وشكسبير، وشلى، من كبار رجال الغرب . وهؤلاء انما ترجمت لهم لمناسبات خاصة، ولأنى أحببتهم منذ زمان طويل حباً جماً . فلما كانت مناسبات كرور مائة عام على موت بتهوفن أو على مولد تين أو نحوهما من المناسبات، رأيت واجباً على لهذا الحب الذى أضمر لأولئك الرجال، حباً يعادل ما أفدت من آثارهم وما حققت لى من معانى السرور بها والطرب لها، أن أثبت صورة هذا الحب بإثبات صورة من حياتهم هى الصورة الممتلئة بها نفسى منهم .

ولم يكن الاسم الذى وضعته للكتاب هو الذى دار من أول الأمر بخاطرى . فان كلمة « تراجم » تقتضى تناول جوانب حياة المترجم له بتدقيق وتوسع أكثر مما عالجت أنا فى هذه الرسائل . فأنا لم أتناول، أغلب الامر، إلا ما اعتقدته الناحية الغالبة فى حياة الشخص والتى كان لها فيه الاثر البالغ . وأنا قد تناولت هذه الناحية فى إيجاز جعلنى أختار فى نفسى اسما للكتاب تؤديه الكلمتان الانكليزيتان (Biographical Sketches). على انى بعد البحث مع أصحابى لم أهتد لعبارة عربية سائغة لان تكون عنوانا للكتاب تؤدى هاتين الكلمتين أداء دقيقاً . وفكرت وقتاً فى أن أجعل عنوانه (من صحف التاريخ). وأشار على صديق بأن أجعل العنوان (ملامح) . ثم انتهيت الى هذا العنوان الذى ظهر الكتاب به . فاذا كان فيه شىء من الادعاء فليس الذنب فى ذلك ذنبى وانما هو

العجز عن أن أجد المقابل الصالح للصورة المضبوطة التى تعبر تعبيراً صادقاً عما فى الكتاب .

وكم وددت لو أنى استطعت ان أجعل الكتاب كله تراجم مصرية صرفة ، بل لو استطعت ان أظهره فى عدة أجزاء تصل التراجم فيها بين عصور مصر المختلفة منذ عهد الفراعنة الى وقتنا الحاضر . فما أشك فى أن كتاباً كهذا يكشف من تاريخ مصر عن صلة عصورها بعضها ببعض وعن جهود المصريين المتصلة منذ أول التاريخ الى عصرنا الحاضر فى سبيل الحق والحرية والعرفان . على أنى أعترف بأن عملاً كهذا مما لا يطيقه شخص وحده ، ومما لا أطيق أنا بنوع خاص . فانى لم أتخصص فى التاريخ ولم تمل بى حياتى العملية نحوه إلا بمقدار . ثم إن تاريخ مصر فى مختلف عصورها ما يزال مبعثراً فى أطواء الكتب القديمة ، لم يعن أحد ، ولم تعن الجامعة المصرية نفسها ، بالكشف عنه كشفاً علمياً صحيحاً وبتدوينه على طريقة تجعله عذبا سائغ المورد لمن يشاء أن يصل الى الحقائق فيه من غير أن تصده الطريقة السيئة أو اللغة المضطربة أو القصد السيء . واذا كنت قد وقفت على تاريخ مصر بشيء من الدقة فى العصور الاخيرة فذلك حين كتابة رسالتى للدكتوراه فى القانون عن « دين مصر العام » . فقد اضطرنى ذلك الى الانقطاع لدراسة التاريخ الحديث منذ عهد والى مصر سعيد باشا والاكباب على هذه الدراسة شهوراً متوالية وتدوين الملاحظات والوقوف عند الاشخاص الذين كان لهم فى حياة مصر السياسية أثناء هذا العصر الاخير دور خاص . وما يزال كثير مما وقفت عليه أثناء مطالعاتى ثم لم تقتض حاجة

رسائلى تدونه بها طلقاً ينهض ممثلا أمام خيال صورة مصر منذ أيام محمدعلى وصور الكثيرين ممن لعبوا دوراً خاصاً فى حياتها. فأما قاسم أمين فقد عنيت بقراءة كتبه وكل ما كتب عنه مذ كنت فى دراسة الحقوق بعصر،فتكونت فى نفسى منه فكرة أحسبها دقيقة غاية الدقة . وأتاح لى اشتغالى بشؤون مصر السياسية فى السنوات الاخيرة أن أضبط صور من ترجمت لهم من هؤلاء جهد ما واتتنى به الطاقة .

وإن كتابا كالذى أشرت اليه حاويا تراجم أكابر رجال مصر فى عصورها المختلفة منذ الفراعنة الى اليوم،يكون لاريب جليل الأثر فى تكوين صورة تاريخية لهذا الوادى الجميل الذى نعيش فيه ، صورة تظهر اتصال الحياة على ضفاف نهره المبارك منذ أقدم الازمان الى وقتنا الحاضر . ثم ان مثل هذا الكتاب ليدل دلالة كبرى على بطلان الصورة الزائفة التى يضعها مؤرخو الغرب لتاريخ مصر . فالواقع أن تاريخ بلادنا لم يضعه حتى اليوم مؤرخ منصف على طريقة علمية صحيحة ، اللهم الا ما تعلق ببعض جوانب العصر الفرعونى من عصوره . فأما مابعد ذلك من عصور فقد شوهه الساسة الاجانب لمآربهم الخاصة منذ القدم : شوهه العرب الذين خلفوا الرومان فى مصر ، كما شوهه نابليون حين قدومه بالحملة الفرنسية فى آخر القرن الثامن عشر ، ثم كان لكتاب الانكليز بعد ذلك النصيب الاوفى من تشويهه تشويها قائماً على ذلك الأساس الاستعمارى من أن شعب مصر قد ظل محكوماً منذ انتهى عهد الفراعنة بأمم أجنبية عن مصر . فالفرس، ثم اليونان،

ثم الرومان، ثم العرب، ثم الترك، ثم الانكليز. وشعب هذا شأنه، فيما يدعون، لا يعرف لنفسه عليه كرامة يضحي في سبيلها ولا يقدر العزة القومية معنى يثور من أجل تحقيقه. وما يزال هذا التاريخ هو، مع الكثير من الاسف، التاريخ الرسمي الذي درس لنا ويدرس اليوم لأبنائنا. هذا، على ان التاريخ الصحيح والتراجم الحقه تنادي بكذب هذه الصورة من حياة مصر على تعاقب الازمان وبطلانها.

ولست واثقاً من أن تمكنني الفرص من الرجوع الى تواريخ هذه العصور القديمه والى تراجم الرجال الذين عاشوا فيها لأثبت حينئذ في شيء من التفصيل أن تاريخ مصر جدير بأن يفخر المصريون به أكثر مما يفخر غيرهم من أبناء أية أمة أخرى بتاريخها. لذلك أسارع فأنتهز فرصه نشر هذا الكتاب المشتمل على تراجم بعض رجال مصر في العصر الأخير وعلى ترجمة كليوباترة خاتمة عهد البطالسه في مصر، لأبين زيف تلك الصورة التي يصورها الساسة الاستعماريون، ولأظهر القارىء في كلمات موجزه كيف دل ماتداول على مصر من ألوان الحكم على أن شعبها أعرق الشعوب حرصاً على قوميته وأكثرها تضحية في سبيل الحق والحريه والعرفان.

على أني قبل أن أعالج هذا البيان أود أن أثبت للحقيقه أن بعض الذين أرخوا مصر من أهل الامم المختلفه كانوا حسني النية، ولكنهم خدعوا بتمويه الساسة. وما أشك في أنهم متى اطلعوا على هذه المقدمة الوجيزة سيعودون الى الحق يقررونه وسيعترفون لمصر بمكانتها التاريخية السامية.

ولعل ما خدع به هؤلاء المؤرخون الحسنو النية هو ما تواضع عليه الكتاب من تبويب تاريخ مصر عصورا أطلقت عليها أسماء أمم غير مصرية . فمن بعد العصر الفرعونى يذكرون عصر الفرس ، ثم العصر اليونانى، ثم العصر الرومانى ، ثم العصر الاسلامى أو عصر العرب، ثم عصر الترك، ثم العصر الاخير عصر الاحتلال الانكليزى . وتبويب التاريخ على هذه الصورة من شأنه أن يدعو الى الخطأ وسوء التقدير من جانب من لا يكلفون أنفسهم مؤونة البحث فى التفاصيل بشىء من الدقة . والواقع أن هذا التبويب خاطىء فى أكثر مناحيه . واذا كان صحيحاً أن الحكام الذين تولوا أمر مصر فى عصور مختلفة لم يكونوا من أصل مصرى صميم فلن يغير ذلك من خطأ المؤرخين وادعائهم خضوع مصر لأمم أجنبية عنها، الا اذا اعتبرنا قيام ملك كملك الانكليز على رأس أكبر امبراطورية فى الوقت الحاضر، مع أنه من أصل غير إنكليزى، دليلا على أن انكلترا والامبراطورية البريطانية كلها خاضعة للأمة التى يرجع اليها دم مليكها . وهذا لغو من القول ، كما أن ادعاء خضوع مصر لأمم أجنبية عنها هى التى يرجع اليها أصل حكامها لغو مثله . وليس هذا المثل الذى ضربنا بالمثل المتفرد، فنابليون أمبراطور فرنسا كان من كورسيكا ، أى كان أقرب للايطالية منه للفرنسية . وأكثر الملوك الباقين على عروش أوربا اليوم من دماء غير دماء الشعوب التى ملكتهم عليها. وليست هذه الشعوب لذلك أقل حرية واستقلالا وعظمة مما كانت مصر فى أكثر العصور التى تعاقبت عليها.

ولنعد الآن الى تاريخ مصر نفسه . فالكل يعترف لمصر الفراعنة

بأنها كانت أمة عزيزة الجانب مضيئة الحضارة على نحو لا يمكن أن تتسرب اليه الشبهة مع قيام الآثار القديمة شاهدة به محدثة عنه بأقوى عبارة وأفصح لهجة . مع هذا فقد منيت مصر الفراعنة بغزو الرعاة الهكسوس إياها مدة استمرت نحو تسعين سنة حتى استرد المصريون تاج بلادهم سنة ١٥٨٠ قبل الميلاد. وظلت مصر من بعد ذلك متحكمة فى البلاد المجاورة لها ممتدة السلطان على حوض البحر الابيض المتوسط، وفيه روما واليونان، الى أوائل القرن السابع قبل الميلاد. هنالك كانت الحضارة الانسانية على ضفتى النيل قد بلغت من الرقى والترف ما تشهد به الآثار التى تشهد أعيننا شيئا منه . وهنالك بدأت أشور، ومن بعدها فارس، تفكر فى غزو مصر. ومع غلبهم إياها ودخولهم عاصمة ملكها غير مرة فأنهم لم يستطيعوا الاستقرار بها وتولى الحكم فيها الاسرات قصيرة انتهت فى سنة ٣٣٢ قبل الميلاد.

قبيل هذا التاريخ نشأ فى شمال اليونان فليب المقدونى وخلفه من بعده الاسكندر الاكبر. وكانت الطبيعة قد وهبتهما ، ووهبت الابن بنوع خاص ، من المقدرة فى القيادة الحربية ما يدخل فى باب المعجزات. وحيث يظهر فى الناس نصف إله فى الحرب أو فى الدين أو فى السياسة ترى العالم كله يتطلع معجباً مسحوراً . وقد دوخ الاسكندر روما وأشور وانفرس ووصل الى الهند، ولم تكن أمة من الامم تستطيع مقاومته . أما أمم أوربا الغربية والشمالية فكانت فى تلك الايام فى حال من الهمجية أشبه بحال أواسط إفريقية اليوم مما يجعلها نكرة على التاريخ ولا يجعل لأية مقارنة بينها وبين غيرها محل . وجاء الاسكندر الى

الشام ففتحت أمامه مصر أبوابها فى سنة ٣٣٢ التى أشرنا اليها ، لانها رأت فيه مدوخ الفرس، وكانت بينها وبين الفرس عداوة أشد العداوة . وبقيت مصر فى حكم الاسكندر ، وإن شئت فى حكم اليونان تسع سنوات، إذمات الاسكندر فى سنة ٣٢٣ق.م. ثم اختلف قواده من بعده فيما بينهم، وكان بطليموس بن لاجوس من أقدرهم ومن أعرفهم بمصر وأشدهم حباً لها . وإذ كانت مصر يومئذ بحاجة الى رجل ذى مواهب حربية ممتازة يستطيع أن يصد بقواها عدوان من يحاول الاعتداء عليها، فقد اطمأنت الى بقاء بطليموس فيها مستقلة هى به . وحدث ما أراد المصريون من ذلك . فان هذا البطل من قواد الاسكندر جعل الاسكندرية قاعدة له ومنها حارب الاشوريين والفرس وحارب اليونان أنفسهم ووطد لمصر سلطانا أعاد لها ولحضارتها عز الفراعنة الذى اضطرب وتزعزع خلال القرون الثلاثة التى سبقت ولايته عرش ازيس واوزوريس. ومع أن بطليموس الأول هذا كان أشد حرصاً على طقوس الديانة اليونانية التى نشأ فيها فان ابنه بطليموس الثانى كان مصريا فى دينه مصريا فى عاداته مصريا فى دمه. ولا عجب، فمصر، بعزلتها عن العالم لما يحيط بها من البحر فى شمالها والصحارى فى سائر جهاتها، هى عالم وحده تخلق الناس فيها خلقاً وتسكب فى عروقهم دماء تجرى فيها روح النيل وقوة سلطانه. ولذلك كان كل الذين أقاموا بمصر إما تمثلتهم مصر فأصبحوا مصريين، أو لفظتهم فلم يطيقوا ولم يطق أخلاقهم من بعدهم بها مقاما . وبلغ من حب بطليموس الثانى مصر وحب مصر إياه أن أصبحت الاسكندرية عاصمة العالم كله حضارة وعلماً وإعانا وأن اجتمعت

فيها فلسفة اليونان المادية بفلسفة مصر الروحية، ثم نشأت منها فلسفة مصرية خاصة هى فلسفة مدرسة الاسكندرية . وكانت مصر هى سيدة البحار فى ذلك العصر، فكانت سياستها موضع النظر والتأويل فى روما واليونان وآشور والفرس وسائر بلاد العالم المعروف حينئذ. وتعاقب البطالسة حتى كليوباطرة فى حكم مصر ثلاثة قرون متوالية . تعاقب البطالسة على عرش مصر بارادة شعب مصر مستقلين به مستقلا هو بهم قائمين باسمه ناشرين على ربوع العالم المعروف يومئذ لواءه . فهل يكون نعت هذا العصر من تاريخ مصر بالعصر اليونانى معناه خضوع الشعب المصرى لأمة أخرى ؟ أو يكون ذلك التصوير باطلا البطلان كله لأن شعوب العالم ومنها الشعب اليونانى هو الذى خضع لمصر فى كل تلك القرون الثلاثة وكان يرى فى الاسكندرية عاصمة الدنيا كلها؟

وفى أواخر عهد البطالسة بدأ نجم روما يعلو فى سماء السياسة العالميه، وبدأت روما تطمع فى التغلب على مصر بعد أن كانت تخطب ودها وتخشى غضبها. وكما وهبت الاقدار الاسكندر المقدونى المقدرة الحربيه التى استطاع بها أن يتغلب على كل شعوب العالم المعروف يومئذ ، كذلك وهبت هذه الاقدار مثل تلك المقدرة يوليوس قيصر صاحب عرش روما. فلقد ظفرت جيوش قيصر بالشعوب كلها ورفت راية روما على اليونان والشام وامتدت غزواتها فى ناحية آشور ثم سارت شمالا وغربا فأخضعت السكسون فى المانيا والفرنسيين فى بلاد (الجول) وأخضعت أهل الجزيرة البريطانية لحكم قيصر فاذا كانت هذه الاقدار قد عصفت بمصر فلم تكن مصر لذلك متفردة

بالخضوع دون غيرها من أمم العالم. وصحيح أن حكم روما لمصر عن طريق حاكم تبعث به اليها ظل متتابعاً قروناً عدة . لكن الصحيح كذلك أن هذا الحاكم كان يجد أكثر الامر أشد العنت فى حكم البلاد وكان يتعرض للثورات المتوالية تقوم عليه وتضطر روما معها للاحتماء بالاسكندرية أحياناً تاركة داخلية البلاد يحكمها أهلها وتتمكن أحياناً أخرى من قمع هذه الثورات والتغلب عليها واخضاع مصر لنير روما قهراً عنها ·

والمؤرخون جميعاً متفقون تمام الاتفاق على أن السكينة والامن لم يسودا مصر طول هذا الذى يسمونه العهد الرومانى . فان روما كانت، كما كانت بيزانس من بعدها، دائمة الوجل من ناحية مصر من خشية أن ينقطع عنها مدد الغلال التى كانت مصر تبعث بها غذاء لأهل عاصمة العالم فى ذلك الحين . ولم تكن أسباب الاضطراب يومئذ مقصورة على الناحية السياسية · بل خلق المصريون منها فى سائر النواحى ما ارتبكت روما معه وما اضطرت بسببه لارتكاب الفظائع التى ما يزال تاريخها ملطخا بها · من هذه الاسباب السبب الدينى · فقد كان الدين المصرى القديم بعد اختلاطه بالتعاليم اليونانية قد قصر عن أن يلهم الشعب مايلهم كل دين من طمأنينة النفس وسعة الأمل. وكانت المسيحية الوليدة فى روما قد بدأت تنتقل الى مصر رويداً رويداً . وكان الطبيعى أن يلقى الدين الجديد فى مصر قبولا حسناً. فقد كان اليهود فى مصر كثيرى العدد جداً ، وكانت الديانة اليهودية تتصل فى كثير بالديانة الفرعونية القديمة أن كان موسى مصريا تلقى الطقوس أيام شبابه على كهنة إيزيس . وكان الاضطهاد الرومانى مما

جعل الناس أشد إقبالا على دين يدعو الى الاخاء والسلام والتسامح ويعد الجنة المحروم والبائس والمظلوم . على أن خلافا فى الرأى الدينى ما لبث أن نشأ فى مصر بين المتشبعين من قبل بتعاليم الفلسفة اليونانية والآخذين بروحيه الديانة المصرية القديمة . وكم أثار هذا الانقسام الدينى من خلاف ! وكم اتخذ سبباً خفياً للثورة على روما ومحاربتها والتغلب فى بعض الاحايين على ولاتها وحكامها واستقلال أهل مصر بالحكم فى مختلف ولاياتها .

وكذلك نرى أن مصر قد تمثلت البطالسة وهضمتهم طبيعتها فأصبحوا مصريين كسائر المصريين وان كانوا من أصل يونانى . فأما الرومانيون الذين أرادوا الاحتفاظ برومانيتهم وحكم مصر على غير إرادة أهلها فقد ظلوا تناهضهم عناصر الحياة فى مصر حتى انجلوا عنها كارهين . وكذلك كانت دورات التاريخ فى مصر دائماً. فمن خضع لحكم الطبيعة المصرية القوية فى تمثلها من ينزل ربوعها كان له أن يطمع فى نعيمها وأن يستريح الى خيرها ورخائها . ومن حاول محاربة هذه الطبيعة المصرية كانت عليه حربا عوانا . لكنها لا تلجأ فى حربها الى العواصف الاجتماعية التى تثور فجأة مرة بعد أخرى . كلا ! بل هى تلجأ فى الناحية السياسية والاجتماعية الى مثل ما تلجأ اليه الطبيعة المصرية من شمس وهواء ونهر وأرض ورمال. هذه الطبيعة لا تعصف بشىء أجنبى عنها ولكنها تظل حتى تبليه وتفنيه .

وانتهى حكم الرومان وعقبه العصر الاسلامى لتكتب مصر

خلاله صحف مجد فى تاريخها كأمة مستقلة ناهضة بأعباء الحضارة فى العالم على نحو ما كانت مصر الفراعنة، تاركة من آثارذلك مثل ما تركوا مما لا يزال شهيداً على العظمة والجلال وتقدم المدنية وارتقاء آثارها من علم وفن الى أبعد حدود الارتقاء . فقد نهض العرب منذ أوائل القرن السابع الميلادى نهضة روحية بفضل الاسلام أعقبتها نهضة حربية قوية متأثرة بها لا تقل فى اندفاعها اكتساحاً لغيرها من الأمم عن نهضة الاسكندر فى اليونان وقيصر فى روما . ولم تقف مصر فى وجه تيار هذه النهضة أن شامت فى الدين الجديد جدة روحية كانت تشعر بالحاجة اليها شعوراً عميقاً. فان المسيحية، على أنها دين فضل وجمال، قد غالت طقوسها صور من الزهد والتقشف والانقطاع عما لا يتفق مع طبيعة وادى النيل الدائم الصفو الدائم الابتسام. وهذا التناقض بين ابتسام الوادى وعبوس التقشف، جعل دعاة المسيحية و مصر يبالغون فى ميلهم الى جانب الانقطاع والزهد ويفضلون العيش فى صوامع خشنة فوق رمال الصحراء المحرقة وذلك لفرط خوفهم من زخرف الوادى وغضارة نعيمه . وبالرغم من قيام طائفة من المصريين المسيحيين تحاول التوفيق بين تعاليم دين عيسى وفيض النيل ببركاته فان دعاة الزهد والتقشف كانوا اصحاب الغلب . فلما أذن مؤذن المسلمين بأن التقرب الى الله لا يصد عن المتاع بالدنيا ونعيمها ، دخل المصريون فى دين الله أفواجاً وآوت مصر من العرب، حملة هذا الدين وحماته، كل من تستطيع أن تؤويه. ولم يكن ذلك عجباً فى أرض الانبياء ولا هو كان عجباً فى عصر لم تكن الفكرة القوميه فيه قد نمت النمو الذى نعرف اليوم. فالأماكن المقدسة فى مكة والمدينة كانت معتبرة فى نظر المسلمين

جميعاً عاصمة المملكة الاسلامية كما كان الخلفاء الراشدون، ثم أمراء المؤمنين من بعد، معتبرين كلمة الله على الارض تجب لهم على كل مسلم الطاعة المطلقة. لكن غريزة القوميه كانت قوية فى مصر بسبب عزلة مصر عما جاورها، يفصل بينها وبين كل جار من البحار أو الصحارى مالا يسهل اجتيازه. لذلك لم تلبث خلافة الراشدين أن انتهت وأن قام يزيد بن معاوية أميراً للمؤمنين خلفاً لأبيه، حتى بدأت نذر الانتقاض على السلطة المركزية تبدو فى مصر برغم أنها كانت حلقة وسطى فى سلسلة الفتوحات الاسلامية المستمرة المتوالية ذاهبة الى الغرب حتى تصل الى مراكش كى يغزو موسى بن نصير الاندلس منها متخطياً جبل طارق. ولم يكد حكم بغداد وسلطان الدولة العباسية يستقر ويطمئن حتى بدأت مصر تقوم مستقلة استقلالا ناجزاً صحيحاً: استقلت أول أمرها حين قامت الاسرة الطولونيه بالحكم فيها. ونازع الاخشيديون الطولونيين وغلبوهم واستقلوا بعرش مصر. ثم جاء الفاطميون من ناحية المغرب فأجلوا الاخشيديين وأسسوا بمصر دولتهم بفضل قائدهم جوهر الصقلى الذى أنشأ القاهرة. واعتلى الايوبيون العرش من بعد الفاطميين. وفى هذه القرون المتواليه كانت مصر مستقلة بشؤونها بالغة فى أحيان كثيرة المكانة الاولى بين الامم الاسلامية صاحبة التغلب على أمم العالم جميعاً. ولن ينسى أحد من ذلك فضلها العظيم فى الناحية العلمية والادبية. فقد كان الجامع الازهر منذ أنشأه الفاطميون الجامعة الاسلامية الاولى سواء كان ذلك فى أول عهد الفاطميين حين كانت التعاليم الشيعية تلقى من فوق منابره، أو كان فى العهد السنى الذى جعل له حتى

عصرنا الحاضر المقام الأول بين الجامعات الدينية الاسلامية. ثم لن ينسى أحد كذلك ما كان لمصر من مجد وفخار فى الحروب الصليبية حين تألبت اوربا تريد أن تغلب المسلمين على أمرهم فى الأماكن المقدسة بفلسطين وتضع يدها عليها باسم الصليب. فقد كانت الجيوش المصرية المظفرة هى التى صدت أكبر الغارات وأشدها هولا. واسم صلاح الدين الايوبى باق على الزمان بقاء الزمان كلما ذكرت تلك الحروب. وهزيمة لويس التاسع فى المنصورة وسجنه بها باق كذلك شهيد على مجيد فعال مصر فى صد الغارة الصليبية . وكان هذا كله والدولة العباسية ببغداد ما تزال باقية وما يزال لها اسم دولة الخلافة مما أدى بطائفة من المؤرخين للوقوع فى الخطأ واعتبارهم هذه القرون المتوالية على مصر، وهى متمتعة باستقلالها مقيمة من صروح الحضارة والعلم ما فاق كل ما عرفت بغداد ، بعض ما توالى على مصر من ظلم وما ناء به أهلها من مهانة وذل .

وليس بى حاجة الى العود للقول بأن قيام أفراد من دم غير مصرى على عرش مصر لا يدل على أن مصر كانت تابعة لأمة أخرى . فالملوك فى أكثر الامم وفى مختلف عصور التاريخ لم يكونوا أكثر الأمر من أهل تلك الأمم اذا أنت تقصيت أصل مولدهم . لكنهم وقد عظموا بها كما عظم بمصر ملوك مصر فقد نسبوا اليها على حين يصر المؤرخون على نسبة ملوك مصر لبلاد غير مصر، والغلو فى ذلك الى حد القول بأن مصر وملوكها كانوا تابعين لدولة أخرى . وهم يقولون : ألم يتول أحمد بن طولون أمر مصر من قبل العباسيين وإليها استقل من بعد بها ؟ إذاً فمصر ولاية عباسية . والحقيقة أن

الخلافة الاسلامية فى تلك العصور كانت قد انحلت عنها الصبغة الزمنية ،وبقيت لها السلطة الروحية وحدها . فكانت تبعية كثير من الدول الاسلامية لها شبيهة كل الشبه بتبعية الدول المسيحية لبابا روما . واستقلال الامم وسيادتها لا شأن لها بالسلطان الروحى، وانما مرجع أمرها الى السلطان الزمنى . فما دام فى عاصمة مملكة من الممالك كل أمر هذه المملكة الزمنى فليكن لها من الاتصال الروحى بمكة أو بدمشق أو ببغداد أو بروما ما تشاء فلن يغير ذلك قليلا ولا كثيراً من أنها أمة كاملة الاستقلال . والامر الذى لا ريبة فيه أن الخلافة الاسلامية انحلت عنها السلطة الزمنية انحلالا فعلياً من بعد خلافة المأمون ومنذ بدأ المعتصم يضطرب فى حكم الدولة العربية وحدها . هذا الى أن أولئك الذين حكموا مصر من طولونيين واخشيديين وفاطميين وأيوبيين كان شأنهم شأن طوائف عائلهم فى أكثر بلاد أوربا حضارة ورقياً ، طوائف جاءت الى انكلترا وفرنسا وألمانيا وغير هذه من الدول من بلاد أخرى فى بعض الغزوات، وكانت فى ركاب الغازى ثم اندمجت من بعد ذلك فى الشعب، وظل لها مع ذلك من تاريخها ما يحفظ لها فى نظام الطوائف أقرب مكان من العرش، فهى أبداً تتطلع الى مقامه وكثيراً ما تصل الى ارتقائه .

واستمر حكم الدول الطولونيه والاخشيديه والفاطمية والايوبية بمصر من سنة ٨٦٨ الى سنة ١٢٥٠ . ومن بعد هذا التاريخ ازداد انحلال السلطان الروحى للخلافة وزالت الدولة العباسية نفسها من بغداد واستولى التتار على أكثر ممتلكاتها الآسيوية. أما مصر فقد استمرت تخطو الى الامام خطوات واسعة فى سبيل التقدم

والحضارة، وكان المماليك هم الذين حلوا محل الدولة الايوبية فى الحكم .
والمماليك هم بعض هذه الطوائف التى أشرنا اليها والتى تجىء فى ركاب
الغزاة ، ثم تصل فى كثير من الاحيان الى عرش البلاد بإقرار أهل
البلاد أنفسهم. وهؤلاء المماليك كانوا قد جاءوا الى مصر فى بلاط حكامها
الذين سبقوهم والايوبيين منهم بنوع خاص . اشتراهم هؤلاء الحكام
ليكونوا فى حاشيتهم وفى جيوشهم وليكون لهم من نسائهم
الجميلات سرارى وموالى . ومن شأن هؤلاء أن يكونوا أكثر
من كل الناس وقوفا على أسرار ذوى العرش ومعرفة ببواطن أمورهم
وأسباب قوتهم وضعفهم . فكان طبيعياً بعد إذ كثروا فى مصر
كثرة جعلت منهم جيشاً جراراً أن يخلفوا الايوبيين فى ملكهم . لكنهم،
كالايوبيين وأكثر من الايوبيين، كانوا مستقلين بمصر وكانت مصر
مستقلة بهم تمام الاستقلال غير خاضعة لحكم أية دولة أخرى. بل لقد
كانت فى عهدهم عزيزة الجناب مرهوبة الجانب من كل دول البحر المتوسط
التى كانت وحدها المعتبرة ذات حضارة معترف بها فى العالم كله .
وبلغت من ذلك أن أصبحت القاهرة مقر الخلافة الاسلامية ممثلة
فى العباسيين الذين انقرضوا ملوكا، فلم يبق للخلافة منهم إلا شبح
ذابل أراد الظاهر بيبرس أن يخلع عليه رواء من قوة مصر ومجدها
بأن يسكن الخليفة العباسى فى عاصمة ملكه . ولم يكن الظاهر فى
هذا دعياً ولا مغروراً . فقد بلغت مصر فى عهد المماليك البحرية
والبرجية من الرفعة شأواً عظيما حتى كانت صاحبة الاملاء على السياسة
الدولية فى ذلك العصر . ولم يقف أمرها فى عظمتها عند السلطان
الحربى ، بل كان لها أكثر منه سلطان علمى وأدبى معترف به ، كما

كانت مركز الدائرة من حركة التجارة العالمية . وكمثل من سلطان مصر الادبى أضع تحت نظر القارئ الفقرة الآتية من كتاب الاستاذ عبد الرحمن بك الرافعى « تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر » قال :

« ظلت الآداب العربيـة الى عهد السلاطين البحرية والبرجية الشراكسة حافظة مكانتها التى كانت لها من قبل، واليهم يرجع الفضل فى إنقاذ آداب العربيـة من غزوات المغول التى كادت تقضى على العلوم والآداب العربية فى الشرق . فكانت مصر ملجأ للناطقين بالضاد ممن فروا امام التتار فى العراق وفارس وسوريا وخراسان ، وبقيت لغه حكومتها عربية فى عهد تينك الدولتين، واستظلت العلوم والآداب العربية بحماية الملوك والسلاطين فى مصر ، ونبغ فيها طائفة من فطاحل الشعراء والأدباء والعلماء، كالبوصيرى صاحب البردة ، والسراج الوراق، وابن نباتة المصرى، والقلقشندى صاحب صبح الاعشى ، والابشيهى صاحب المستطرف، وابن منظور صاحب لسان العرب ، وابن هشام النحوى العظيم الذى يقال فيه إنه أنحى من سيبويه ، وابن عبد الظاهر ، والنواجى — نسبة الى نواج احدى قرى مديرية الغربية — صاحب حلبة الكميت، والقسطلانى المحدث المشهور ، وشمس الدين السخاوى صاحب الضوء اللامع ، وابن خلكان المؤرخ المشهور صاحب وفيات الاعيان، والصفدى صاحب الوافى ، وابن حجر المؤرخ إمام الحفاظ والمحدثين فى زمانه ، والعينى المؤرخ والمحدث ، وابن وصيف شاه، وابن دقماق، والمقريزى صاحب الخطط ، والمكين بن العميد ، وأبو الفداء المؤرخ الجغرافى المشهور

صاحب تقويم البلدان ، والذهبي ، والنويري صاحب نهاية الارب فى فنون الادب ، وابن فضل الله العمرى صاحب مسالك الابصار فى ممالك الامصار ، وابن عقيل ،وابن تغرى بردى صاحب النجوم الزاهرة ، وجلال الدين السيوطى صاحب التآليف الشهيرة فى التفسير والعلوم الشرعية والتاريخ والادب واللغة وهو آخر من ظهر فى ذلك العصر من كبار العلماء بمصر ، والدميرى صاحب حياة الحيوان ، وابن إياس المؤرخ الذى أدرك الفتح العثمانى. وقد استضافت مصر فى ذلك العصر جماعة من أئمة العلوم والفلسفة فى الشرق ، كالامام ابن تيمية وابن القيم الجوزية ،وفيلسوف المؤرخين ابن خلدون »

ونضع كذلك تحت نظر القارىء هذه العبارة من كتاب «صفحات فى تاريخ مصر» للأستاذ توفيق حامد المرعشلى، ليرى منها مبلغ ما وصلت اليه مصر أيام المماليك من عظمة فى نواحى حياتها الاقتصادية والسياسية ، قال: « ان عصر المماليك يعد من عصور الرخاء والنشاط التجارى والاقتصادى بمصر . فكانت الصلة بين مصر ودول أوربا موطدة الدعائم . عقدت المعاهدات مع فرنسا وجمهوريات ايطاليا. لحماية التجار الأجانب وترغيبهم فى الاقامه بمصر، فراجت الاسواق التجارية وصارت مصر الملتقى التجارى بين الشرق والغرب سواء أكان بمرور التجارة من مصر فالبحر الاحمر الى الهند أو من الشام الى العراق فالخليج الفارسى الى بلاد العجم والهند وبالعكس من الطريقين ، مما عاد على المماليك وخزائنهم وعلى المصريين ضمنا بالاموال الطائلة التى كانت تجبى من المكوس والحركة التجارية » . فأما رقى الفنون ،وفن العمارة منها بنوع خاص ، فتشهد به الآثار الكثيرة

الموجودة بمصر ومنها المساجد والمنازل الاثرية بعشرياتها وابهائها البديعة التنسيق الرائعة الجمال .

وليس انسان يقرأ هذا الذى بلغت اليه مصر فى عصر المماليك من سؤدد وعلم وحضارة الا يقف ذاهلا : ألم يكن الأثر الباق فى نفوسنا لما تعلمنا من تاريخ مصر فى هـذه الفترة أنها تعتبر عصرا مظلماً فى تاريخ مصر ؟ فكيف يذر العصر المظلم كل هذه الاثار المضيئة! قد تفهم القول بأن حكومات مصر فى ذلك الزمن كانت حكومات استبدادية وان الفكرة الديموقراطية كانت معدومة يومئذ، وانما كان يقوم نظام الطوائف مقامها . لكن هذا لايعنى شيئا ولا يخفى ماللتاريخ مصر أثناء عصر المماليك من سنـاء ساطع . هو لايعنى شيئاً لان أمم العالم كله كانت يومئذ محكومة على نظام استبدادى تؤيده الطوائف المعزوة رياستها الى مقام الحاكم بما يجعلهـا ذات مشورة ، ان لم تكن ذات رأى فى تصريف الشؤون العامة . ومادام هذا النظام قد أنبت كل تلك الثمرات اليانعة التى تفخر بها مصر وتضعها فى الغرة من تاريخها، فذلك الدليل على انه كان النظام الصالح فى العصر الذى قام فيه . فليس نظام الحكم يحمد لذاته أو يذم لذاته ، ولـكنه يحمد أو يذم بقدر مايؤتى من صالح الثمرات أو من سيئها . وبقى هذا العصر الزاهر فى تاريخ مصر من سـنة ١٢٥٠ الى سنة ١٥١٧ .

وكما اكتسح الاسكندر الا كبر العالم فعنت له أممه ثم فتحت مصر له آخر الامر أبوابها ، وكما أتاحت الاقدار ليوليوس قيصر أن يصنع بالعالم صنيع الاسكندر من قبل، مما جعل مصر تذعن لسلطان

روما مع مداومتها الثورة عليه ، كذلك اكتسح الأتراك العالم فى القرن الخامس عشر وقضوا على الدولة البزنطية باستيلائهم على القسطنطينية فى سنة ١٤٥٣ وأوغلوا بعد ذلك فى أوربا حتى وصلوا الى أسوار فيينا . وقد بقيت مصر مرهوبة مهوبة الجناب عندهم رغم ما كان من كل تلك القوة لهم حتى سنة ١٥١٧ حين نزلها السلطان العثمانى سليم بعد حرب تم له فيها النصر على السلطان الغورى فى موقعة بالشام على مقربة من حلب وعلى طومان باى الذى كان قائماً مقامه بالقاهرة .

وحكم الأتراك مصر على الطريقة التى حكمتها بها روما . وكان أول ما صنعوا أن أخذوا الخليفة العباسى الى الآستانة حيث جعله السلطان سليم يتنزل عن الخلافة التى أصبحت من يومئذ فى آل عثمان حتى قضى مصطفى كمال عليها فى سنة ١٩٢٣، ثم جعلوا يوفدون الى مصر والياً حرصوا على ألا تطول مدته بمصر من خشية أن ينظم جيشها ثم يقهر الأتراك به ويعيد الى مصر استقلالها على نحو ما حدث فى عهد البطالسة . وأوقفوا ما كان بمصر من مظاهر الحضارة بأن أخذوا الى عاصمتهم كل رجال العلم والفن والصناعة فى مصر ، ولم يعوضوها شيئاً. وظل الحال على ذلك الى أواخر القرن السابع عشر حين بدأت نذر الانحلال يدب دبيبها الى تركيا . حينذاك بدأ المماليك، الذين ظلوا طوال مدة ولاية تركيا حكام الاقاليم، يفكرون فى استعادة السلطة والاستقلال بمصر . وكان هؤلاء المماليك قد أصبحوا ، كما أصبح اليونان والعرب من قبل، مصريين، فكانوا يقفون متكاتفين مع شعب مصر فى وجه الوالى الذى تبعثه الاستانة كما

كان أسلافهم من قبل يقفون فى وجه الحاكم العسكرى الذى تبعثه روما . وكان هذا الوالى التركى الذى لم يندمج فى مصر ولم يتمثل روحها يظل سجينا فى قلعة القاهرة لا سلطان له على أحد ولا على شىء فيها . وكان المماليك والشيوخ الذين يمثلون الطبقة المتعلمة إذا رأوه على غير ما يريدون، بعثوا اليه رسولا يطلق عليه اسم الاودهباشى يدخل عليه ويطأطىء الرأس احتراماً له ثم يلمس طرف السجادة ويطويها ويقول مناديا للوالى: « انزل ياباشا »، ويكون هذا أمراً للوالى صادراً له من المصريين لا يستطيع له مقاومة ولا تستطيع تركيا له نقضا . وبلغ الضعف بالوالى التركى أن كان طوال القرن الثامن عشر واليا بالاسم لا سلطة له ولا عمل أكثر من ارسال الخراج الى تركيا . ودفع هذا الضعف على بك الكبير الى التفكير فى الاستقلال بمصر وتم له من ذلك ما أراد ، وظل ثلاث سنوات تلقب فيها بسلطان مصر وخاقان البحرين . على ان سوء سياسة الحكم فى تركيا وما كان من تدميرها كل أسباب الحضارة فى مصر أثناء القرن الاول من استبدادها بها، نضح على هؤلاء المماليك فجعلهم يسيرون مع الشعب أسوأ مايسير مستبد جائر، مما شوه اسم أسلافهم المماليك الذين ارتفع اسم مصر فى عهدهم الى مكان من العزة لا ينال.

وجاءت الحملة الفرنسية الى مصر سنة ١٧٩٨ فقاومها المصريون أشد المقاومة حتى انتهت بالجلاء عن البلاد بعد ما نقلت اليها أفكار الثورة الفرنسية وأسباب الحضارة الغربية . وبعد ان فتحت عيون المصريين على حياة جديدة هى التى يدأبون اليوم لتوطيدها واتخاذها وسيلة لعود مصر الى مجدها وقوتها .

وجاء محمد على باشا والياً من قبل تركيا على مصر فقضى على المماليك، ثم استمال اليه علماء مصر وأعيانها ووجهاءها، وفكر طوعا لارادتهم، فى الاستقلال بها. وأعلن ذلك بالفعل وغزا الدولة العثمانية فى الشام وفى الاناضول ووصل حتى صار على ثلاث ساعات من الاستانة. وكان مخضعاً سلطان تركيا لو لا أن تحالفت معها عليه دول أوربا جماء، ووقفت فى وجهه براً وبحراً، وقضت على الاسطول المصرى فى معركة نافارين. وهذا الوقوف من جانب الدول الاوربية فى وجه الجيوش المصرية الظافرة لم يكن القصد منه المحافظة على تركيا الضعيفة مخافة أن يهدد وجود حاكم قوى فى الاستانة التوازن الدولى كما اعتاد المؤرخون أن يقولوا. فلو أن ذلك وحده كان السبب لكان أقل ما تجزى به مصر على انتصاراتها بقيادة محمد على أن تقوم بنفسها دولة مستقلة غير خاضعة لأحد. لكن الدول أبت على مصر هذا الاستقلال وأصرت على أن تظل ولاية تابعة لتركيا، وان كانت ولاية ممتازة مستقلة استقلالا داخليا كاملا. انما كان السبب الصحيح تخوف أوربا من أن تستعيد مصر قوتها التاريخية المعروفة وان تنضم اليها فلسطين وسوريا كما كانتا منضمتين لها فى أكثر حقب التاريخ، وأن تتحكم لذلك فى حوض البحرين: الابيض والاحمر، وأن يصبح سلطانها بالفعل خاقان البحرين كما كان على بك الكبير يدعو نفسه فى الفترة القصيرة التى استقل فيها بأمر مصر. ومهما يكن من أثر ذلك فى تقوية الحضارة ورفع منار السلام فان الفكرة الاستعمارية كانت قوية يومئذ فى نفوس الساسة الاوربيين الى حد جعلهم يضعون أساساً لسياستهم القضاء على قيام دولة فى مصر لها هاته القوة

والسلطان . وهذا وحده هو السر فى إبائهم على مصر أن تستقل بإزاء تركيا التى ضعفت كل الضعف عن مقاومة جيوشها والتى كانت معرضة لأن تقع هى وعاصمتها تحت سلطانها .

على أن هذا العسف من جانب أوربا لم يوهن عزيمة مصر . وقد ظل شعبها طوال القرن التاسع عشر كله متوثبا يريد تحقيق استقلاله على النحو الذى يستشفه القارىء من تراجم من ترجمنا لهم فى هذا الكتاب . وهذا هو اليوم قد بلغ من مجهوداته فى هذه السبيل مقاما محموداً . وهو لا ريب سيكون فى المستقبل كما كان فى الماضى عاملا من أقوى عوامل العرفان والحضارة والسلام .

الكتاب الاول

تراجـــــم مصرية

كليو باطره

صورة تمثال لها في متحف الفن الحديث روما

كليوباطرة ! اسم ساحر خلع عليه التاريخ وخلعت عليه الاساطير من ألوان الفتنة بهاء باهراً تضاءلت الى جانبه أسماء الزهرة وافرودت وسميراميس وسائر آلهة الجمال، وهاتاسو ونيفرت وسائر الملكات، بل تضاءلت الى جانبه أسماء الملوك، والشعراء، والكتاب. فهى ليست جميلة وكفى، وليست مليكة وكفى، وليست ساحرة الحديث وكفى، وليست ذكية وكفى، وليست أديبة وكفى، بل هى ذلك كله وهى أكثر من ذلك كله، هى الفتنة والسحر والذكاء والادب والنشاط وقوة الارادة فى أسمى ما تصوره معانى هذه العبارات. وهى مع ذلك آخر البطالسة الذين حكموا مصر عصوراً طويلة كانت مصر فيها مهبط وحى الحكمة والشعر والجمال. لذلك لم يفت مؤرخ ولا قصاص ولا شاعر أن يتحدث عن كليوباطرة وأن يتغنى بجمالها وأن يصور هذه الحياة على النحو الذى يحب أن تكون. ولذلك كان ما أريق من مداد وما سود من صحف فى الكلام عن هذه الملكة أكثر من مثله مما يمكن لأية الاهة أو ملكة أخرى أن تفخر به.

وكان حظ كليوباطرة أن ولدت بالاسكندرية فى عصر بلغ فيه نجم روما غاية سموه، وبدأت مصر فيه دور الترف الذى يسبق الانحلال. وكانت الاسكندرية فى ذلك الحين عاصمة الدنيا ومستقر

كل ما فى الحياة من متاع ونعمة . فكان الناس يتكلمون فيها كل اللغات المعروفة ، كما كانت الفلسفة فيها ناضرة مستقرة بكل نظرياتها المتضاربة استقرار جوار حسن ليس فيه شيء من الكفاح أو القسوة . فالى جانب الابيقورية الناظرة للحياة نظرة سرور بها وحرص عليها واستمتاع بكل ما فيها ، المبتسمة سخراً منها وازدراء لها واشفاقا على أهلها ، كان الرواقيون ينادون بالزهد فى الحياة والاخذ بأسباب التقشف واحتقار عرض الدنيا الزائل ، وبلغ بعضهم من ذلك حد الدعوة الى تعذيب الجسد لطهارة الروح . والى جانب مكتبة الاسكندرية العامرة الحاوية ثمانمائة الف مجلد فيها ما شئت من ألوان الحكمة والعلم والتفكير والفن ، كانت تقوم المراقص والملاهى يهرع الناس اليها ليفنوا أنفسهم فى لهوها وليتمكنوا فى ملذاتها وليمتعوا أبصارهم بجمال ساحراتها الراقصات والمغنيات .

وكانت هذه الحياة المتفجرة بينابيع الحكمة واللهو جميعاً تموج فى محيط بلغ كمال الحضارة التى قامت خلال الثلاثمائة سنة كانت منذ انشأ الاسكندر الاكبر المدينة عام ثلاثين وثلاثمائة قبل الميلاد سنى نشاط وعظمة لمصر وفلسفتها وعمارتها . فقد اتصل ما بين هذا الثغر البديع الموقع فى امتداده على شاطئ بحر الروم وجزيرة فاروس القائمة وسط البحر ترقب غدواته وروحاته بجسر هفتا البالغ غاية العظمة والجمال والذى انتهى بالجزيرة الى أن أصبحت جزءاً من المدينة . واتصل بالنيل بقناة كانوب (ترعة المحمودية الحاضرة) التى لم تكن مجرد مجرى للماء والتجارة ، بل كانت كذلك مجرى للمسرة والنعيم بما أحاط بها على مدى طولها من حدائق وأعناب ونخيل

قامت أثناءها منازل اللهو ودور المتاع تحيط بها جنات فيحاء جمعت كل أسباب النعمة من زهر عطر وفاكهة نضرة . فأما أهل هذه المدينة فكانوا أهل ذكاء وظرف وكانوا حراصاً على المتاع بكل ما في حياة مدينتهم الزاهرة متاعا عريضاً ، يتهالكون في ذلك على اللهو وعلى المسرة في مختلف صورهما وألوانهما . فكما كانت فراعنتها تفتن في الترف بما يعجز خيال كل مترف في عصرنا الحاضر كان الشعب رجالا ونساء ، منغمساً في حمأة اللذائذ الدنيا مسلماً نفسه اليها ما استطاع الى ذلك سبيلا . لكنهم كانوا مع ذلك أميل للاستخفاف بالحياة وما فيها ولو بلغوا على الحياة أعظم مكان . وأى استخفاف أشد من استخفافهم بالفراعنة الآلهة حتى لقد دعوا جد كليوبآترة البطين ودعوا أباها بطليموس اوليتا أى العازف بالناى .

وكانت كليوباطرة شديدة الولع منذ صباها بالتجول في أنحاء الاسكندرية والوقوف على كل ما في هذا العالم العامر بكل ما في العالم من حياة وحضارة . وفي تجوالها هذا عرفت وتعلمت كثيراً . عرفت كل ما وقعت عليه عيناها الواسعتان الجذاب دعجهما الساحر وكل ما أحاط به ذهنها الحاد . وتعلمت اللغات والآداب وطرائق التعبير العزيزة على مدرسة الاسكندرية يومئذ والتى تمتاز بانتورية والرقة والقوة . وكان لها بالكتب ولع وغرام ليس مثلهما ولع ولاغرام . وكانت أميل للشعر وأشد لذلك تفضيلا للاوديسى على التوراة وعلى كثير من كتب الحكمة .

وفى هذا الصبا الناعم عرفت وارثة عرش بطليموس الثانى عشر من ألوان الترف وتذوقت من صوره ما لم يعرفه ولم يذقه غيرها

ممن لم يؤت ذكاءها ولا علمها باللغات والاداب . فقد كان أبوها الفرعون العازف بالناى المستغرق فى ملاذ الحياة بما استحق معه لقب اله الخمر ديونيزوس يدللها بكل ما يلهمه ملك مترف معجب بابنة ليس لها فى بنات حواء مثال . فكان يطوف وإياها مدائن مصر ويركب وإياها النيل من الاسكندرية الى طيبة ذات الابواب المائة يقفان عند ما يحلو لهما الوقوف عنده من المدائن العامرة بآثار مصر القديمة . فاذا تركا طيبة الى أنس الوجود أقاما فيه من الحفلات ما يجل عن الوصف، وما ليس له مثال إلا فيما أقامته كليوباطرة من المادب لانطونيو حين غرامه بها ودلها عليه .

على أن الصبية لم تبق فى هذا النعيم الملكى طويلا ، وان كانت لم تحرم منه إلا لتعود اليه فتكون به أكثر متاعا . ذلك ان أباها طرد من مصر فالتجأ الى سوريا حتى عاد مع جند الرومان الذين أوفدهم بومبى . وكان أنطونيو على رأس فرقة من هذا الجند تحت قيادة جاليوس . فذهب مع بطليموس الطريد حتى دخل وإياه الاسكندرية دخول الظافر .

وكانت كليوباطرة يومئذ فى الرابعة عشرة من عمرها . فلما أيقنت بانتصار أبيها وبعودته الى مدينة النعيم اجترأت على اختلاس شارة الملك من برنيس زوج اركيلوس خصم أبيها ، جاست مع خدينانها فى شرفة القصر وقد ارتدت ثوبا رقيقا أبيض بدا فيه جمالها الساحر أشد سحراً رغم ان كان فى بدأ ترعرعه . ولما أقبل أبوها بعد دخول انطونيو على رأس الجند الى القصر أمامه سقت هى وسط الجمع طريقاً واندفعت تعانق أباها باكية من شدة التأثر .

وكانت هذه أول مرة رأت فيها عين الرومانى الفاتح الطويل القامة العريض الأكتاف الشره الى كل لهو ومسرة تلك الفتاة الطفلة ما تزال، والتى برعت برغم ذلك كل قريناتها من فتيات القصر ونسائه . ولم تنس كليوباطرة فى دهاوتيهما أن توجه اليه نظرة حلوة فيها أكثر من معنى الاعتراف بالجميل لرده أباها اليها والى ملكه .

وعاد انطونيو الى روما وعاد بطليموس الى الحكم والى اللهو يستمرىء مرعاه ويمعن فيه بعد ما حرم زمناً منه . وكانت ابنته تطوف وأباه أنحاء البلاد ينزلان فى المدائن العامرة ويقيمان فيها من أسباب اللذة ما لا يباح لفتاة أن تعرفه . وظلا على ذلك ثلاث سنوات تباعا انتهت بموت الأب بعد ما أوصى بالملك لكليوباطرة ولاخيها بطليموس الطفل الذى لم يكن يزيد يومئذ على اثنى عشرة سنة على شريطة أن يتزوج من أخته . وكان زواج الاخ من أخته متعارفا فى الاسرات الملكية يومئذ لحرصها على أن لا يختلط دمها الفرعونى المستمد من الشمس كبيرة الالهة بدم الرعايا . واذ كان هذا الاخ قاصراً عين له قوام ثلاثة اشتركت الملكة معهم فى الحكم وان استأثرت به دونهم الى حد عظيم .

وقد ملكت قلب المصريين فى الفترة الأولى من فترات حكمها بما كانت تغدقه عليهم من صنوف المتاع وبسحرها اياهم بفتنة جمالها حتى دعيت اذ ذاك حبيبة الشعب وملكة كل نعيم . لكن عهدها بذلك لم يطل . فقد بعث منيلوس يطلب اليها ارجاع الجند الرومانيين الذين ظلوا عندها . واذ كان هؤلاء الجند قد استوطنوا الاسكندرية وتزوجوا فيها ومتعوا بنعيمها فقد أبوا مغادرة مصر واستغاثوا

بالشعب . ثم جاء من بعد ذلك ابن بومبي لنفس القصد . وكان لابيه على أبيها فضل اعادته الى ملكه مما اجلسها هي على العرش بعده . لذلك رأت واجباً عليها ان تحسن وفادته . وقابلته فرأت فيه غير أخيها الطفل الذى فرضه الملك زوجاً لها ، فقبلته ضيفا في قصرها واجابته الى ما طلب اذ كان ابوه يومئذ فى حرب مع قيصر . وقد غاظ ذلك اخاها منها فانضم الى المؤتمرين بها وعاون على انتقاض الشعب عليها ومحاولته قتلها . واذ كانت لا تملك الفرار من طريق البحر فرت فى ذهبية الى الصعيد كسيرة القلب ان لم يفعل جمالها فى اولئك السكندريين فعله . ونزلت طيبة على صورة لم تعهدها أيام زيارتها المدينة الخالدة مع ابيها المترف المتلاف . وبدلا من أن تجمل مقامها فى طيبة الاحياء جعلت مقابر الملوك موضع نجواها كأنما كانت تريد أن ترقد بينهم تنتظر البعث واياهم آملة فى الآخرة ملكا اكثر من ملك مصر ثباتا . لكن اصواتا انبعثت اليها من جوف مقابر هؤلاء الفراعنة العظام تناجيها : أن لا ملك بغير اقدام ولا جلالة من غير كبرياء ولا حكم لمن لم تملك نفسه شهوة الفتح . واذ أسلمها دهاء المصريين من أن تجد منهم أى عون أو مدد . ففرت الى سوريا وهى فى مقدرتها على سحر أهلها أكبر أملا وفى فتنتهم بجمالها أشد ثقة . ولم يخنها حدسها . فما كادت تستقر فى ربوع الشام حتى سحرت أهلها بجمالها وبلاغتها واقدامها فالتفوا حولها واجتمع منهم جيش سارت هى على رأسه ممتطية جوادها . لكن المصريين بعثوا هم الاخرين بجيوشهم ورابطوا على حدود ما بين مصر والشام ووقف الجيشان وجها لوجه لا يلتقيان وفى هذه الاثناء هزم قيصر بومبي فى موقعة فرسالا وفر

المنهزم الى مصر ، عله يجد موئلا فى بلد له عليه وعلى القائم على عرشه فضل سابق . لكن أوصياء بطليموس الطفل علموا أن قيصر يطارد غريمه ، وخشوا ان هم حموا هذا الغريم أو ألجأوه أن يصب عليهم قيصر جام غضبه،فقتلوا اللائذ بهم.فلما نزل قيصرعليهم وعلم مافعلوا ركبه الهم وحزن غاية الحزن وأمر أن تقام لبومبي أفخر طقوس الجنازة

وعرفت كليوباطرة أمر ذلك كله، وعرفت أكثر منه أن قيصر لما علم بما بينها وبين أخيها من حرب نصب نفسه حكما بينهما عملا بوصية أبيها أن تحمي روما ملك ابنائه من الشتات والدمار .هنالك فكرت فى أن تلجأ الى هذا الحكم ترفع اليه ظلامتها غير جاهلة ما قد يحمله لها من ضغن أن حمت ان خصمه وأن مدت بومبي بالرجال والذخيرة . لكنها كانت واثقة من سحرها مطمئنة الى مقدرتها وفتنتها مؤمنة بأن لا نجاح من غير اقدام .وزادها طمأنينة ما كان من بكاء قيصر حين علم بقتل بومبي.فتركت الجند واستصحبت مؤدبها الامين ابو لودور ، واجتازا طريق البحر حتى وصلا أمام الاسكندرية . بقى أن تدبر الوسيلة للنول فى حضرة قيصر. وكليوباطرة نحيفة القوام بضة لينة الملمس . فليس يعجز ابو لوردور أن يحملها وان يزعم انها بعض المتاع وانه من رجال روما يريد ايصال ما يحمله لقيصر . فالتفت الصبية الفاتنة فى بعض أسمال واردية من غير أن تبدل شيئاً من زينتها الملكية وعطرها ، وحملها مؤدبها على كتفه وزعم حين سأله الحراس عن غايته انه موصل ما يحمل الى بعض ضباط قيصر . واجتاز معسكر الرومان حتى أنزل حمله فى رفق أمام الثائر على عاهل روما، الباكى عليه حين وفاته

وكانت هذه هي الساعة التاريخية التي اتجه فيها الزمن غير وجهته. الساعة التي وقف ازاءها القصاص والمؤرخون أذهلهم البهر وسحرتهم الفتنة كما أذهلا قيصر وسحراه. نضت المليكة الصبية ما التفت به من أطمار وأسمال وبدت في زينة المليكة وعطرها وجلالها. أكانت طويلة أم قصيرة؟ أكان انفها كبيراً أم صغيراً؟ لم يعرف قيصر في هذه اللحظة من ذلك شيئاً، واختلف المؤرخون فيه خلافاً كبيراً. وكأنما كان لجمال هذه الفاتنة من الروعة ما لأشعة الشمس من قوة تحول دون التحديق بها. وكأنما بقي هذا الجمال في قوة سحره بعدما مر على صاحبته من عصور وقرون فكل يختلف في صورته وفي قسماته. على أن كليوباترة لم تحاول فتنة قيصر بجمالها. بل ارتمت عند قدميه ضارعة مستغفرة، وجعلت تتكلم وتشكو وتستعطف، وكان صوتها أفعل سحراً من جمالها، وكانت عبارتها انفذ الى القلب من صوتها الى شغاف الفؤاد ومن جمالها الذاهب باللب. جعلت تتكلم وتشكو وجعل قيصر ينصت ويصغي، ثم صار لا يسمع دفاعاً ولا شكوى بل أنغاماً دونها صوت البلبل وعزف الناى. وانتهى بكليوباطرة وبه الامر أن رققت وجدانه على قدميه ضارعة مستغفراً ثم حملها على كتفه كما حملها اليه ابولدور وذهب الى مضجعه.

وكان قيصر رغم تجاربه الخاصة والحسية للنساء كان من منار اعجابين بقوامه وناظرته وبروحه المهذب الرفيق وبرقته العاطفة القوية. لذلك اتصل بينه وبين كليوباطرة منذ هذه المقابلة الاولى بما سحره عن كثير مما كان اعتزم لمجده ومجد روما. وجلست هي

الى جانبه فى قصرها المنيف تعجب به وتكبر اعجابه . وملكته حتى لم تبق فى شك من حكومته بينها وبين أخيها . ودعا هو أخاها الطفل ليصلح بينهما ، فلما دخل عليهما فرأى فى عيونهما ماهاج الدم فى عروقه الضعيفة، وما دعاه ليلقى التاج عن رأسه وليخرج صائحاً فى الشعب وفى جند روما داعيا الى الثورة على أخته وعلى قيصر لعهر كليوباطرة ولخيانة صاحبها . ولم يرد قيصر أن يقاتل لقلة جنده ولحرصه على استبقاء هذا الطفل مغمضاً عينه على ما يفعل الحبيبان ، فاسترضاه وصالحه على تنفيذ وصية أبيه بإشراف روما . ورضى الغلام آملا أن يطمئن له الامر فيصير ملكا وفرعونا وإلها . وظل هو وكليوباترة يرتشفان من كأس الحب وينهلان أعذب موارد الهوى بما يتفق وروحيهما المهذبين. ولقدكانا بذلك سعيدين كل السعادة. ولم يكن ورد سعادتهما قاصراً على اتصال الغرام بين ابنة الملك العازف اللدنة القوام ، الموسيقية الصوت والنفس ، الرطبة الخلق ، الندية النظرة الرشيقة رشاقة الراقصة ، وبين قيصر الساحر الحلو الحديث . بل كان ورد سعادتهما الحق هو الحب . كيل كل واحد منهما صاحبه باغلال هذه العاطفة القاسية السامية فى قسوتها فسعد كل باغلاله . وكانت كليوباتره أكثر سعادة لانها استردت مع هذا الحب ملك مصر ووضعت يدها على تاج روما وصرفت قاهر السكون والجرمان وسائر دول أوربا عن حروبه فى سبيل الجمهورية ليحارب فى سبيلها وليقهر أوصياء أخيها وليثبت لها أركان عرشها بعدما نبتت فى قلبه وظل كذلك ستة أشهر لا يعرف من أمر روما شيئاً ولا يبعث الى روما بخبر ، وان عرفت روما من أمره مع ملكة مصر كثيراً . وزادت

به ارتباطاً وازداد لها عبادة حين حملت منه . اذ ذاك لجا فى أسباب المسرة يلتمسانها فى كل مكان ويرتجيان النعمة من كل الآلهة. فأقاما أعياداً عند الاهرام وأبى الهول ، وفى ابيدوس عند قبر ايزيس وأوزوريس ، وفى دندرة حيث معبد هاتور الهة النسل الخصب وفى طيبة ذات الأبواب المائة ، وفى أنس الوجود ، وفى كل معبد وعند كل آله

ووضعت كليوباطرة غلاما دعته قيصرون وخلعت عليه كل ألقاب الفراعنة آلهة مصر وعواهل روما وحكامها . ثم أبحر قيصر الى روما ولحقت هى به فى أبهة الملك وجلاله، وفى حاشية ليس للرومان بها عهد. وقيصر ظافر والشعوب عباد من ظفر . وقدأقام لمناسبةعودته أعياداً أسرف خلالهافيما خلعه على الشعب من أعطيات ونعم زادت الشعب له عبادة وأنسته ما كان من انصراف قيصر عنه الى كليوباطرة عاما كاملا . لكن هذا الشعب لم يعجب من كليوباطرة بجمالها الرائع المترفع ، لأن زعماءه وقادته جعلوا يستعطفونه على كالبورينا زوجة قيصر .

ولم يعن قيصر من ذلك بشىء .بل أقام لابنة بطليموس قصراً على نهر التبر جمع فيه من ألوان النعيم ما أبدعه خيال الملكة ، وجعل يزورها فيه فتقيم له من المراقص وصنوف اللهو ماينسيه كل هموم الحكم ومتاعبه . ثم جعل يستقبل أصحابه فى قصر التبر ،ولا يخفى عليهم من صلته بكليوباطرة شيئاً . وبالغ فى الحفاوة بها حتى أقام لها هيكلا نصب فيه تمثالها على صورة الزهرة آلهة الجمال والحب. ودارفى خاطره أن يتزوج منها رغم وجود كالبورينا زوجته وبطليموس

الطفل زوجها . ومع أن مجلس الشيوخ لم يكن ينظر الى هذا الزواج بعين الرضا فقد فكر فى أن يعدل قوانين روما بما يبيح للرجل أن يعدد زوجاته مادام لاعقب له . ولقد كان فاعلا وكان قيصرون يصبح يومئذ وارثه على عرش روما ويتغير وجه التاريخ وتبقى مصر مقراً للحضارة كما كانت لولا أن دبرت المؤامرة لقيصر وأن قتله أصحابه يوم أعياد المريخ فى العام الرابع والاربعين قبل الميلاد

بكته كليوباطرة ثم عادت الى مصر مع حاشيتها وأبنائها وتركت أخاها الملك زوجها فنسيه التاريخ ولم يعرف أحد عنه بعد ذلك خبراً ، وأقامت بالاسكندرية متوجسة خيفة أن يوقع بها خصوم قيصر وقتلته . لكن الحروب التى قامت بين أصدقائه وقتلته انتهت بانتصار انطونيو وأصحابه فى موقعة فيليب . ولم يزل ذلك وجلها وظلت فى خشية من أن ينزل أكتاف ابن أخت قيصر مصر وهو لابنها من قيصر آلد عدو . لكن نجمها كان ما يزال نجم سعادة . فتقاسم المنتصرون ملك روما ووقع الشرق لانطونيو . وانطونيو صديق قيصر ومحبه . وأنطونيو رجل شهوة لاصبر له أمام امرأة . وأنطونيو معجب بجمال كليوباطرة منذ سنين ، عابد اياها مذ كان يزور قيصر فى قصر التبر . مع ذلك لم تر كليوباطرة أن تبعث اليه وفوداً تهنئه بالملك كما بعثت سائر ممالك الشرق التى وقعت فى حكمه. وهى لم تمده فى حروبه مع قتلة قيصر بمدد من مال أو رجال. فغاظ ذلك أنطونيو وبعث اليها رسولا أن تحضر بنفسها لتدافع عن ذنوبها. وظل الرسول فى قصرها أياما عاد بعدها مسحوراً بها آخذاً نفسه بالدفاع عنها حتى تحضر اجابة لطلب سيده . وبقيت هى زمناً تعتذر

عن عدم مسارعتها لاجتياز البحر بشتى الاعذار . وبقى رسول أنطونيو خلال ذلك يحدثه عن فتنتها بما أذهب صبره . ثم بعثت هى انها آتية اليه فى تارسيس وذكرت موعد وصولها . فخف الحاكم الى المدينة ينتظرها وأقبل أسطولها يشق عباب البحر حول سفينتها السابح تدفعه أشرعة من خز، ويحمل مقدمه الرفيع تمثال آلهة البحر، وتبدو فى وسطه مقاصير زينت بأفخر الرياش . وقد ذهب بالشعب لما رأى كل هذا الجمال والجلال فصاح : « هـذه افروديت بل هذه الزهرة أتت تزور إله لهونا المحبوب » ـــــ

وبعث أنطونيو برسوله يدعوها للعشاء عنده ، فاعتذرت بأنها متعبة ودعته الى سفينتها . فلم يغضب ولم يتردد بل طار اليها وقضى شطراً من الليل فى حضرتها نسى فيه الذنوب ونسى العقاب ونسى كل شىء غيرها . ثم دعته فى الليلة التالية الى وليمة عشاء فى قصرها ودعت معه جمعا من الامراء وأرباب الدولة . وما كان أشد بهرهم حينما رأوا الليل ينقلب فى ذلك القصر نهاراً ورأوا فيه من التماثيل والآنية والطنافس والخدم وألوان الطعام يتناولونها وتطربهم أنغام الموسيقى تطير فى الجو مع ريح العطر والزهر وتمتزج مع أنغام أجسام الراقصات اللدنة عالم يحط به خيال أحد منهم من قبل . وكليوبطرة وسط هذا الجمال الساحر أروع فتنة وأشد سحراً . وابدى انطونيو دهشته متى نظرت الملكة هذا القصر وما فيه . فابتسمت قائلة : انه رسولها الذى بعثت به من أسابيع ثلاثة هو الذى صنع هذا بأمرها .

ودعاها أنطونيو الى قصره ودعا معها الامراء وحاول أن يجاريها فى البذخ والنعمة ثم ابتسم آخر الوليمة أن رأى محاولته عبثاً .

ودعته وامراءه الى وليمة ثانية قالت انها تكلفها ثلاثة ملايين درهم. فانكر أنطونيو ذلك عليها ، وراهنته انها فاعلة . وكلف هو أحد الامراء أن يحصي التكاليف . ولما رأى ان لم تزد الملكة شيئاً على ما فعلت في الوليمة الاولى أبدى لها أنه قرها . فاستمهلته وخلعت من اذنها قرطا فيه جوهرة منقطعة النظير كان الاسكندر أهداها لبعض أسلافها وألقت بها في كوب به خل فذابت وشربت هي الكوب وما فيه وقرت انطونيو . وظلت فعلتها هذه يقصها المؤرخون على انها بعض العجائب .

وأسرع أنطونيو بالنظر فيما لديه من شؤون الملك وعاد وكليوباطرة الى مصر واندفعا في سبيل الغرام تهيج سماء مصر في نفسيهما ما انطوتا عليه من حب اللذات واستباحة كل ألوانها والافتنان فيها على ان انطونيو لم يكن مهذباً كقيصر ، بل كان جندياً خشناً فج الذهن لا يعرف الرقة ولا يحيط من الادب أو اللغات بشيء . وانما حببه الى الجند ورفعه الى مقام قيصر سهولة في العبارة التي كان يخطبهم بها ونزول منه الى مشاركتهم في تذوق اللذات الدنيئة السافلة التي كانوا يتذوقونها . فلم يكن حي من أحياء الدعارة في روما أو بغي من بغاياها لا يعرفه. وكان من أسباب تخره ان اعقب من الاولاد حيثما ذهب مالا عدد له . ولقد احب كليوباترة بهذه الروح الحيوانية المتهبة المتأججة الضرام ، فأنعت فيه حياة بهيمية قوية لم تكن في قيصر ، ولكنها لم تجد فيه حياة العاطفة الانسانية التي تغذي القلب وان قصرت عن الهاب الدم . على ان هذا الخلاف بينهما اضطر انطونيو الى ان يتعلم ويحضر من الدروس ما يخفف من

شعوره بأنه دون كليوباطرة ،ودفعها ذى لتنزل عن التفنن فى رقة المتاع الى هذه البهيمية الثائرة . وقد اتفق ذلك فى بادىء الامر حين كان حرصها على انطونيو راجعاً الى حاجتها السياسية له . لكنها تذوقته بعد ذلك وبلغت من تذوقه ان لم تكن تطيق مفارقة صاحبها حين جولاته فى أحياء الدعارة واللهو ، ولم تأنف ان تدفع بكتفيها ايا من رجال تلك الاحياء ونسائها على طريقتهم . وبقيا غارقين فى نعمتهما حتى حملت • وخيل اليها ان سيربط الحمل بينهما وبين صاحبها كما ربط بينها وبين يوليوس من قبل • لكنه رآها ثقلت حركتها وخمد شعاع روحها ، فعاد يفكر فيما كان غافلا عنه من شؤون الدولة ، ورأى ان لامفر له من العودة الى روما ليصالح اكتاف بعد ماحزبت عليه فلفيا زوج انطونيو وهمت لمحاربته ، وليستعديه على اهل فنيقيا والشام الذين انتقضوا على روما وخلعوا نيرها .ولم تجد توسلات كليوباطرة اليه كى يبقى ولو الى حين وضعها. فلما قابل فلفيا فى اليونان انزل عليها من سخطه ما كسر قلبها،وغادرها الى روما فماتت قبل وصوله اليها .وأصلح موتها بينه وبين اكتاف وتزوج من أخته أكتافيا برضى مجلس الشيوخ . وكانت اكتافيا عدل كليوباطرة فى سنها وجمالها،وكانت أم طفلين من زواجها الاول محبة لحياة العائلة ونظامها عايسر لها أن تسير زوجها وفق رأيها . فأنطونيو ككل رجل له مثل هذه الطبيعة الحيوانية يهون على كل امرأة أن تقوده.ولقد ذهبت معه الى اليونان وظلت معه زهاء ثلاثة أعوام أعقبت له أثناءها ابنين شغلت بهما وبأولادها الاخرين وبأولاد أنطونيو من فلفيا.فأحرج ذلك صدر انطونيو منها وجعل يراها

أما لايعنيها منه إلا ابوته لابنائها ، من غير أن تعير مجده ولا عظمته اهتماما كالذى كانت تبديه كليوباطرة إذ كانت تدعوه انطونيو الاكبر. وبلغ من حرج صدره ان اتهمها بأنها احن على اخوتها لا كتافه منها على زوجيتها له ثم بعث بها الى روما وانطلق هو الى سوريا يجنى ثمار النصر الذى أحرزه بعض قواده .

فى هذه السنوات الثلاث كانت كليوباترا تعانى من الهم والألم أشدهما تبريحا ولذعا . علمت بما كان من زواج انطونيو واكتافيا على أثر وضعها توأمين دعت أحدهما الشمس والاخرى القمر ، فاضطربت للخبر وما كانت من قبل تضطرب من خشية امرأة . وزاد فى مخاوفها ما قد يؤدى هذا الزواج اليه من القضاء على آمالها فى قيام قيصرون مقام ابيه . هنالك غادرت الاسكندرية الى دندرة وشغلت نفسها بأن أقامت لها تور معبداً . ثم انقبضت نفسها لهذه الوحدة التى احاطت بها فعادت الى عاصمتها وشغلت نفسها من جديد ببناء قبرها . وكان اكبر جهادها أن تنسى انطونيو باستدامة العود الى تذكر قيصر . ونجحت فى ذلك نجاحا سرها . لكن هذه الذكرى وذلك الاشتغال بما بعد الموت لم يكونا ليتفقا مع ما يتحرك به الشباب فى جسد اعتاد ملذات النعيم ثم قسر على عفة قاسية . فعادت الى مثل ما عودها انطونيو من المرح فى الانحاء التى يلهو الشعب فيها . لكن ذلك لم يطفىء من رغباتها ما كان كامنا .

ولما عاد انطونيو الى الشام بعث اليها رسولا يستقدمها اليه بانطاكية . ويل له من جرىء ! أيظن أن ملكة الملوك تطير اليه بعد أن نسيته ، بل بعد أن أبغضته وبعد أن هجرها الى احضان امرأة

غيرها قضى معها أكثر مما قضى مع كليوباطره ؟ لكن لا ! تضاءل ذلك كله أمام دعوته إياها فطارت تعد عدتها للسفر واجتازت البحر اليه لاثمة عاتبة . وكفاها ان أقسم لها ان قلبه لم يعرف غيرها ولم يتعلق بسواها لتعود وإياه سيرتها الاولى : وانطاكية كانت ثالثة مدائن بحر الروم بعد روما والاسكندرية فكان لهما فيهما من مسارح اللهو ما يسد كل شهواتهما . ولكي تؤمن بحبه اياها عقد عليها زواجه منها وخلع عليها ثلاث ولايات بدل ثلاث السنوات التي غابها عنها

وبعد زمن نهلا فيه ما طاب لهما من ورد النعيم جهز لمحاربة خصوم رومافيا وراء الفرات ، ورفض مشيئتها ان تصحبه لما في ذلك عليها من مشقة . لكنه عاد الى سوريا محطما جيشه . فجاءت اليه من خير مصر مالا ورجالا بما أنساه هزيمته . واقامت معه فانسته فتنتها كل متاعبه . ثم تلقى رسالة من زوجه اكتافيا انها آتية اليه من روما في عدة وعديد . فتأثر حين رآها تقابل صده لها وجفوته اياها بهذا الكرم والاخلاص والحب . لكن كليوباترة وقفت في سبيل ماأتت اكتافيا فيه . ورفض أنطونيو أن يرى أخت عاهل روما أو أن يقبل منها مدحاً فعادت الى المدينة الخالدة ذات التلال السبعة مقهورة آسفة .

وعد الرومانيون هذه الفعلة على أنطونيو . فلما استرد قواه عاد لحارب خصوم روما وانتصر عليهم . لكنه بدلا من أن يحتفل بانتصاره في روما ذهب يحتفل به في الاسكندرية ويعتبرها عاصمة تعادل روما . وذلك مالاطاقة للرومانيين باحتماله . فأثار اكتاف

الرومان عليه. وابتهجت كليوباطرة لذلك وجهزت أسطول مصر الضخم وسارت وأنطونيو الى أثينا فى انتظار ما ستتمخض عنه الحوادث راجية الانتصار على أكتاف حتى تجلس قيصرون على عرش أبيه. لكن نجمها كان قد بدأ ينحدر نحو المغيب. فقد التقى الاسطولان فى (أكسيم) وكانت الملكة فى سفينتها « الانطونياد » فى مؤخرة الاسطول المصرى ترقبه. وبدأت المعركة يحمى وطيسها وشعرت الملكة بأن حلمها أن تحكم روما وأن تقيم ابن قيصر مقام أبيه على عرش الغاصب أكتاف يتلاشى. عندئذ طار صوابها وتولاها الذهول. فلما أفاقت ألفت الريح تهب نحو مصر فأمرت رجالها بالعودة وما يزال الامل فى النصر مضطرباً بين العسكرين. والتقطت أنطونيو من سفينته وأخذته معها فى « الانطونياد » وعادا الى مصر وقد تولاه الاسى ان رأى نجمه يأفل وعظمته تذوى وتذبل.

فاما كليوباطرة فلم تفل الهزيمة من غرب عزمتها، بل نقلت أسطولها براً من البحر الابيض الى البحر الاحمر راجية أن تغزو الهند على نحو ما كانت تفكر مع قيصر. لكن هيرود عدوها فى سوريا لم يمهلها أن قتل رجالها وأحرق سفنها. هنالك تحطمت كل آمالها الامبراطورية واضطرت ان تقف كل حياتها ونشاطها على الدفاع عن مصر.

وأسلم أنطونيو نفسه للشراب ليله ونهاره آملا أن ينسيه الشراب هم انكساره. وظل فى شرابه حتى علم أن أكتاف آت من طريق سوريا لغزو مصر واكبر همه ان يطفىء حياة ابن قيصر وكانت مشابهته لأبيه اكبر شهيد على اغتصاب ابن عمه عرش روما. وأخذ

أنطونيو قيادة جيوش مصر . لكن الحظ اذا عثر لج به العثار . فانهزم أنطونيو فعاد الى قصر كليوباطرة وأمر أحد عبيده أن يقتله . فأمسك العبد الخنجر وتظاهر بطعن سيده ثم طعن نفسه فهوى .فاصغر ذلك انطونيو فى عين نفسه فقضى عليها بأن التى بنفسه على النصل وذهب يعالج آلام الاحتضار يسلكها سبيلا لراحة الموت، وقضى بين ذراعى محبوبته الفاتنة فبكته أحر بكاء ثم دفنته فى القبر الذى شادته حين هجرها وبالغت فى الحزن عليه لما احست من سوء ما أعد لها القدر من مصير بعده .

ودخل أكتاف الاسكندرية ظافراً وكل همه أن يقضى على ابن عمه الذى فر من وجهه.وحاولت كليوباطرة أن تلعب به كما لعبت من قبله بقيصر وبأنطونيو . وفى سبيل أبنائها وفى سبيل ملك قيصرون لم تكن لتعنى بشىء أو تتورع عن شىء .وبرغم حزنها على أنطونيو وجزعها على مصيرها ومصير أبنائها ولزومها القبر تقضى فيه وقتها باكية مكتئبة فقد ظفر أكتاف منها بساعات حديث شهى.وكان كل همه أن يأخذها الى روما وأن تسير فى حفلات نصره ليرضى بذلك شهوة انتقامه وانتقام اخته منها وليقدم للشعب الرومانى منظرا تبتهج له قلوب الشعوب : منظر ذل العزيز . وعرفت هى هذا فثارت فى عروقها كل دماء البطالسة فراعنة مصر الاعظمين . لكنها لم تكن قادرة الا على نفسها . وكانت قدرت هذا المصير ووطنت عليه نفسها وأوصت خادما من اتباعها أن يحضر لها ثعبانا فى طاكية طعامها يوم تشير له الى جبينها. وأشارت الى هذا الجبين المصقول يوم أيقنت أن أكتاف غريمها يريد أن يذلها. ونزعت التين واحدة بعد واحدة

ثم أمسكت الثعبان فوضعت فمه في ثديها لينفث اليها الموت من خلاله، وكم نفث هذا الثدي الحياة الى أبنائها والى الذين أنعمت عليهم الآلهة بالمتاع بها

وكان معها خادمتاها ايراس وشارميون فشاركتاها مصيرها بعد ما حلتاها بكل حلي ملكها الذي تحطم، والذي حاربت حتى المقادير في سبيل عزه ورفعته منذ مولدها الى مماتها (من سنة ٦٩ الى سنة ٣٠ قبل الميلاد)

ويومئذ ذهبت الى بارئها أرواح كثيرين من عشاق غانية التاريخ ويومئذ انطفأ نجم كان منيراً في سماء الجمال والذكاء والقوة والنشاط وانطفأ معه سراج أسرة البطالسة كما انطفأ من مجد مصر حظ عظيم .

الخديوي الاول اسماعيل باشا

لئن صح ان كان لولاية محمد على حكم مصر أثر مباشر فى تاريخها الحديث ، وصح ان كان لشق قناة السويس أثر مباشر كذلك فى توجيه هذا التاريخ وجهة خاصة ، فالذى لاريب فيه أن اكبر الاثر الذى خضعت وما تزال تخضع له مصر حتى الآن انما ترتب على حكم اسماعيل باشا . فأكبر مظاهر الحضارة التى تراها اليوم فى مصر يرجع اليه : اليه يرجع فضل انشاء السكك الحديدية وتنظيم البريد ، وله الفضل الاول فى النظام القضائى القائم فى مصر حتى اليوم، وله أكثر من ذلك كله الفضل الاكبر فى شعور الامة المصرية بقوميتها وبكيانها. ثم إن عليه تبعة الارتباك السياسى الذى لا تزال مصر تجاهد بكل قواها للخروج منه ، وتبعة الاضطراب المالى الذى شل حركة البلاد سنوات طويلة وهو ما يزال الى اليوم باقى الاثر ، وعليه أكثر من ذلك كله تبعة تسليم البلاد ماليا واقتصاديا وسياسيا الى أيدى الأجانب . فهذه الستة عشر عاما التى رأته على عرش مصر (من سنة ١٨٦٣ الى سنه ١٨٧٩) والتى شهدت من مظاهر النشاط المثمر ، ومن فضائح الظلم المخرب، ومن البذخ والاسراف اللذين لا يعرف التاريخ ولا تعرف الأقاصيص لهما نظيراً ، والتى انتهت بسقوط عاهل مصر العظيم بعد أن جاهد أمته فأجهدها، وبعد أن جاهد أوربا فأخضعته لها ،وبعد ان جاهد القدر فهوى به عن عرشه وأخرجه من مصر حسيراً ينظر الى شواطئها تبتعد عنه بعين دامعة وقلب كسير ، هذه

الستة عشر عاما هى التى جرت الى مصر مظاهر الحضارة الاوربية وهى التى جرت على مصر الخراب، وهى التى أيقظت فى شعب مصر الروح الاستقلالية التى لم ينسها يوما من الايام ؛ وهى التى أججت فى نفوس المصريين نيران كراهية الاستعباد والظلم والحرص على الحرية والعدل.

ولم يكن عجيباً أن تترك هذه الاعوام الستة عشر فى مصر كل هذا الاثر واسماعيل باشا كان حاكم مصر المطلق. فقد كان بشخصه بطلا من أبطال الاقاصيص، وكانت أيام حكمه اسطورة لا يسلم العقل بها لو رواها التاريخ عن عصر قديم. كان اسماعيل ساحراً اعظم السحر ذكياً اشد الذكاء وسيم الطلعة حاد النظرة ماضى العزيمة جذابا لكل من اتصل به . وكان مع ذلك قصير النظر شرهاً فى كل مطامعه وشهواته مغامراً فى سبيلها مجازفا مجازفة لايهون منها أى حذر . وكان فيه من دم محمد على اقدام لايعرف التردد وبطش لا هوادة فيه وقسوة لايتسرب اليها أمل فى رحمة . وكانت هذه الصفات كلها بالغة منه فوق ماتبلغه من أذكياء الناس والباطشين منهم . ثم انه كان مولعاً أشد ولع بالمظاهر الاجتماعية للحضارة الاوربية وان غاب عنه الجانب المعنوى منها ، وهو الجانب الذى يحركها ويمدها بكل مافيها من قوة. لذلك سخر ذكاءه واقدامه ليجعل لعرش مصر مظاهر العروش الاوربية وليكون قصره كقصر لويس الرابع عشر ان لم يكن أبهى منه وأزهر ، وليقول عن مصر انها أصبحت قطعة من اوربا . وفى سبيل ذلك انشأ كثيراً وخرب كثيراً وأثقل كاهل مصر بدين ماتزال تنوء الى اليوم به ومازال تحتمل بسببه نقصا فى سيادتها وذبولا فى استقلالها وعزتها .

ولد اسماعيل بن ابراهيم بن محمد على بمصر فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٣٠ وتربى فى المدرسة التى انشأها جده محمد على باشا بالقصر العالى ثم أوفده جده لما بلغ السادسة عشرة من عمره مع طائفة من الشبان الى باريس حيث التحق فيها بمدرسة أركان حرب L'ecole de l'etat major ثم عاد الى مصر بعد أن أتم بها دراسته . . .

وكان عباس الاول والى مصر يومئذ . وقد حدث خلاف بينه وبين أفراد العائلة ومن بينهم سعيد باشا على اقتسام التركه . فذهبوا الى الاستانة يحتكمون الى جلالة السلطان . وفض جلالته النزاع بان أوفد اثنين من رجاله الى مصر سويا الخلاف . وعاد أفراد العائلة العلوية خلا اسماعيل الذى ظل بالآستانة وعين فيها عضوا بمجلس أحكام الدولة العلية .

وفى سنة ١٨٥٤ تولى سعيد باشا أريكه مصر خلفا لعباس الاول . فاستقدم اسماعيل وجعله على رئاسة مجلس أحكام مصر فى مثل وظيفته التى كان يشغلها بالاستانة . ولم يكن اسماعيل يومئذ وليآ للعهد أن كان أخاه أحمد أكبر رجال العائلة وكان بذلك صاحب عرشها بعد سعيد . لكن احمد توفى وآلت ولاية العهد لاسماعيل . من يومئذ جعل سعيد يخشى وجوده على مقربة منه فجعل يوفده فى مهام خاصة الى البابا والى نابليون الثالث والى الباب العالى بالآستانة . وفى سنة ١٨٦١ نشبت فتنة بالسودان فبعث به على رأس أربعة عشر الف مقاتل لقمعها . ونجح اسماعيل فى ذلك وعاد وله فى أعين الشعب مقام كريم . ولما توفى أخوه أحمد وآلت اليه ولاية العهد ساءت العلاقة بينه وبين عمه الوالى الى حد أنه لما توفى سعيد باشا فى

١٨ يناير سنة ١٨٦٣ ونودى به واليا مكانه حدد للتشريفات بالقاهرة نفس الساعة التى كانت محددة لسير جنازة سعيد بالاسكندرية ، فلم يحتفل بالدفن احتفالا رسمياً ولم يحفل بالمشهد أحد .

وقد انتعشت النفوس بأكبر الآمال لاول ولاية اسماعيل باشا الحكم ، أن كان الناس فى سعة بسبب انتظام جباية الضرائب أيام سعيد وارتفاع أسعار القطن ارتفاعاً عظيما ترتب على حروب الانفصال بين شمال الولايات المتحدة وجنوبها، وأن ابدى اسماعيل من الحرص على حضارة مصر واصلاحها ماجعل الرجاء فى المستقبل عظيما . وكان أول ماصنعه اسماعيل مما استراحت له النفوس أن نشر فى الناس على أثر ارتقائه العرش برنامجاً خلابا كله المبادىء الحرة والوعود المغرية بخير الامل والاصلاحات الواسعة على أحدث النظم الاوربية . وفى هذا البرنامج وعد بالغاء السخرة والرقيق والاتجار به وباصدار قوانين خاصة بالتعليم وبتحديد مخصصات والى مصر . وتوقع الناس أن ينفذ هذا البرنامج وأن تخطو مصر الخطى الواسعة التى تترتب حتما على تنفيذه لما بدا على اسماعيل بعد عوده من دراسته بأوربا ومن سياحاته الكثيرة فيها من الحرص على تنمية ثروته الخاصة . وزاد الناس رجاء فى ذلك ما كانت عليه حال البلاد اجمالا من الانتظام والطمأنينة .

لكن اسماعيل حرص، الى جانب نشر هذا البرنامج، على ستر حالة الخزانة المالية وبخاصة فيما يتعلق بالديون التى خلفها سلفه سعيد باشا . ومع أن هذه الديون لم تكن تزيد فى التقديرات الرسمية التى عرفت الى حين موت سعيد على أربعة ملايين من الجنيهات فقد

ظهرت فى البيان الذى نشرته حكومة اسماعيل باشا أحد عشر مليونا ومائة وستين ألفاً من الجنيهات . والسبب فى نشر هذا البيان ليس مجرد الحرص على تحديد ما للدولة وما عليها، فمثل هذا الحرص لم يكن معروفا فى ذلك الوقت. وانما السبب أن اسماعيل باشا كان يرى مايقتضيه تنفيذ برنامجه العظيم من طائل النفقات مما لاسبيل الى الحصول عليه من غير طريق الاقتراض . لذلك أراد أن يبين للناس وللاوربيين خاصة أن سلفه الذى لم يصنع شيئا لحضارة مصر أكثر من هذا الجيش الذى اختاره من طوال القامات، والذى كان يصحبه أنى ذهب ، هو الذى بدأ سنة الاقتراض وهو الذى اقترض هذا المبلغ العظيم من غير فائدة للبلاد .

والواقع أن مطامع اسماعيل كانت عظيمة تنوء بهاموارد مصر. فقد أراد أن يصل الى ما رمى اليه جده محمد على من استقلال البلاد. لكنه كان يعلم أن تحقيق ذلك بالسيف غير ميسور ، وانه على كل حال عرضة لان يصطدم من معارضة أوربا بما اصطدمت به انتصارات مصر أيام جده . وكان يعلم كذلك ما للرشوة من أثر فى وزراء الباب العالى ، فاذا هو سخا بيده استطاع أن يحصل على هذا الاستقلال شيئاً فشيئاً . ثم إنه رأى من جهة ثالثة أن لاسبيل للحصول على المال اللازم لهذه الغاية ولسداد أطماعه وشهواته الا أن يظهر أمام أوربا حاكما غربياً يريد الاصلاح بالفعل . فنشر البرنامج المشار اليه ونشر قائمة بديون سعيد وأبدى من مظاهر العطف الانسانى على رعاياه ماجلب اليه أنظار أوربا. من ذلك أنه لم يوافق على الاستمرار فى تنفيذ اتفاقية قناة السويس التى عقدت فى عهد

سلفه سعيد باشا بينه وبين المسيو فرديناند دلسبس لأنه رأى شروطها قاسية بالنسبة لمصر وبالنسبة للعمال المصريين الذين كانوا يرهقون في حفر القناة أشد ارهاق، يسامون الخسف ويضربون بالكرابيج ويطعمون الزقوم ويكادون لا يقتضون عن عملهم أجراً. ولما استحر الخلاف بين اسماعيل وشركة القنال ارتضى الطرفان تحكيم نابليون الثالث. ولسنا نستطيع أن نفهم هذا التحكيم الا على أنه نوع من الكبرياء والغرور. فنابليون الثالث امبراطور فرنسا، وشركة القنال على صفتها الدولية كانت ما تزال في كل مظاهرها شركة فرنسية تعنى امبراطور فرنسا حمايتها. فتحكيمه مع ذلك نوع من الكبرياء والغرور معناه انه لا يجوز لغير رأس من أكبر الرؤوس المتوجة أن تنظر في خلاف بين اسماعيل والشركة الدولية العالمية. وانتهى التحكيم بالزام مصر بأن تدفع للشركة تعويضاً من عدم تنفيذ شروط الاتفاق أربعة وثمانين مليونا من الفرنكات، أى ثلاثة ملايين وثلاثمائة وستين ألفاً من الجنيهات. فاذا أضيفت نفقات الدعوى وماقامت به الحكومة المصرية من أعمال النشر والاذاعة وما كان يتقاضاه القائمون بهذه الاعمال من باهظ النفقات لم يكن غلوا تقدير ما خسرته مصر فى هذه الحركة باربعة ملايين من الجنيهات .

وبعد زمن وجيز من ولايته الحكم جاء جلالة السلطان عبد العزيز الى مصر ومعه الصدر الاعظم فؤاد باشا. فكانت هذه أول فرصة عرضت لاسماعيل كي ينفذ ماجال بخاطره كوسيلة لبلوغ الغاية التى صبا اليها من قبل جده محمد على. ولم يكفه ما أقامه لجلالة السلطان من أعياد فاقت فى الفخامة كل ما يتصوره خيال السلطان

الشرق . بل تقع الصدر الاعظم بمبلغ زهيد مقابل الخدم التي أداها أو يمكن أن يؤديها لبقاء علاقات المودة والصفاء بين والى مصر وجلالة السلطان. هذا المبلغ الزهيد هو ستون ألفاً من الجنيهات.

على أن تباشير الخير التي جعلت المصريين يستقبلون ارتقاء اسماعيل الى العرش بالبشر والتهليل لم تدم طويلا . فقد انتهت حرب الانفصال بين شمال الولايات المتحدة وجنوبها وعادت أسعار القطن فانحدرت من ستة عشر جنيها للقنطار الى ثلاثة جنيهات أو ثلاثة جنيهات ونصف الجنيه. وفتكت بالزراعة المصرية آفات انقصت من دخل الضريبة العقارية واضطرت الحكومة معها لشراء الماشية والغلال لتموين الاهالى مما خسرت معه ما يزيد على مائة وعشرين ألفاً من الجنيهات. ثم ان اسماعيل كان مغرما أشد الغرام بتملك الاطيان حتى لقد بلغت مساحة « دوائر » العائلة المالكة في سنة ١٨٦٥ ما يزيد على خمس الاطيان المزروعة في مصر الوسطى وفى الوجه البحرى .

ذلك كله مضافا إلى حاجات الميزانية العادية وما احتاجت اليه الاصلاحات العامة التي بدأ اسماعيل باشا بالقيام بها تنفيذاً لبرنامجه جعل الالتجاء الى الاقتراض أمراً لا مفر منه . وقد بدأ اسماعيل فعلا بالاقتراض منذ ولى الحكم . فلما انقضت على ولايته سنة وبعض السنة كان الالتجاء الى المرابين فى مصر غير كاف لحاجاته ، وكان لا بد من الاقتراض من بيوتات مالية كبيرة فى اوربا. ولم يجد اسماعيل عنتاً فى استصدار تصريح بالاقتراض من الآستانة. وبذلك استطاع في ٨ سبتمبر سنة ١٨٦٤ عقد أول قروضه وقدره ٧٠٤ر٣ ٠٠٠ جنيه.

كيف صور اسماعيل لنفسه برنامج الاصلاحات العامة، وماهى

الطريقة التى أراد ان ينقل بها مصر من بلد شرقى بعيد عن مظاهر الحضارة الاوروبية الا القليل الذى جاء مع نابليون والبعثة الفرنسية والذى دخل الى مصر سيداً لحاجات محمد على الحربية ؟؟ هى صورة غاية فى البساطة . يجب أن نقيم مدناً أوربية النظام فى طرقها وفى عمارتها وفى بساتينها فما يلبث المقيمون بها أن يصطبغوا بالحضارة الاوربية . ويجب أن ندخل أحدث المخترعات والنظم كالسكك الحديدية والبريد والتلغراف فما يلبث الناس أن يفهموا هذه الاختراعات والنظم وأن يصيروا كأصحابها . ويجب أن نعلم جماعة من النشء ليكونوا واسطة احتفاظ بمظاهر الحضارة هذه . أما الشعب فلم يكن اسماعيل يأبه له كثيراً لأنه كان كغيره من الحكام الشرقيين الى يومئذ ، وككثير من الحكام الغربيين الى زمن غير بعيد قبله ، يعتبر مصر كما اعتبرها جده من قبل مزرعة له ، مركز الشعب فيها مركز العبد أو الخادم . وقد أراد اسماعيل أن يصل لتحقيق فكرته من الحضارة والاصلاح فى سنوات مما لم تصل أوربا لتحقيقه الا فى قرون . فبدأ تنظيم القاهرة على نظام باريس وغير باريس من مدائن اوربا الكبرى يخطط فيها الشوارع ويقيم القصور وينشىء الدواوين ودور الحكومة ويغرس البساتين ، وجعل من جانبه يعيش عيشة بذخ لم يتهيأ لخيال شاعر ولا قصاص من قبل . وطبيعى أن اقتضى القيام بذلك كله من النفقات ما تلاشى معه قرض سنة ١٨٦٤ أسرع التلاشى وما كثرت معه الديون السائرة التى كان يقترضها من المرابين الاجانب المقيمين بمصر كثرة اضطرته للتفكير من جديد فى الالتجاء الى أوربا كى يعقد قرضاً آخر .

ولم يكفه قرض واحد ، بل كان وزيره نوبار باشا يتفاوض له مع كل البيوتات المالية وعقد له فى ثلاث سنوات ثلاثة قروض . قرض سنة ١٨٦٥ وقدره ٠٠٠ر٣٨٧ر٣ جنيها وقرض سنة ١٨٦٦ وقدره ثلاثة ملايين من الجنيهات ، وقرض سنة ١٨٦٧ وقدره ٠٠٠ر٠٨٠ر٢ جنيه . لكن هذه الملايين كلها لم تكن شيئاً مذكوراً الى جانب النفقات الباهظة التى كان يقوم بها اسماعيل باشا .

وماذا تريد من رجل أقل أطماعه أن يصل ليكون ملكا على بلاد مستقلة استقلالا داخلياً على الاقل ! وكم كلفه ذلك من باهظ الرشوة يدفعها للكثيرين من رجال الباب العالى بالآستانة ! ولقد كانت أول خطوة خطاها فى هذا السبيل أن حصل فى سنة ١٨٦٦ على فرمان من جلالة السلطان بجعل الوراثة فى ابنائه بدلا من جعلها فى اكبر العائلة كما كانت من قبل . ثم حصل كذلك على ضم سواكن ومصوع لمصر بعد ماسلخا عنها من بعد حكم محمد على

ثم إنه من بعد أن حكم نابليون الثالث امبراطور فرنسا فى الخلاف بينه وبين شركة قناة السويس أصبح صديقاً حميما للشركة وأصبح ينتظر اليوم الذى يعلن فيه افتتاح القناة ليدعو العالم كله كى شهد هذا التحوير البديع لنظام الطبيعة تحويراً من شأنه أن يغير سير الوجود الاقتصادى والتجارى تغييراً خطيراً . وكانت سنة ١٨٦٩ هى السنة التى حددت لهذا الافتتاح . وكانت قروض السنوات الثلاث السالفة الذكر قد نفدت كلها وتزايد الدين السائر مع ذلك تزايداً جعل اسماعيل يفكر فى الحصول على المال للظهور

بالمظهر اللازم فى حفلة الافتتاح تفكيراً جديا استغرق كل مواهبه وكل ذكائه .

وفى هذا السبيل سافر فى سنة ١٨٦٧ الى أوربا وزار باريس ولندره واستضافه نابليون الثالث والملكة فكتوريا . وكان معه فى هذه السياحة وزيره نوبار باشا المطلع على دخائل مفاوضات البيوتات المالية والتدبر بدهائه وخبثه على القيام بأعمال فى السياسة جسام . وفى هذه الزيارة بدىء الحديث فى مسألة تعديل نظام الامتيازات الاجنبية . فقد كان الى يومئذ كما كان الى يوم الغائه فى تركيا قائماً على القاعدة القانونية التى تقرر أن المدعى يقاضى المدعى عليه أمام قضاته . وكان من أثر ذلك أن شعر الاجانب انفسهم بالارتباك فى مقاضاة بعضهم بعضا . فاستقر رأى اسماعيل ووزيره على اقامة نظام المحاكم المختلطة القائم اليوم فى مصر ، على أن يشمل اختصاص هذه المحاكم الشؤون الجنائية كذلك . ومنذ هذه الزيارة التى قام بها اسماعيل لاوربا فى سنة ١٨٦٧ فتحت مسألة تعديل النظام القضائى فى شأن الاجانب ، وظلت المفاوضات فيها مستمرة بعد ذلك ثمانى سنوات حتى كللت بالنجاح فى سنة ١٨٧٥ . لكن هذه المسألة لم تكن الجوهرية يومئذ . انما المسألة الجوهرية كانت الحصول على المال لسداد الديون السائرة فيما أعلنه اسماعيل باشا المفتش وزير مالية اسماعيل ولتحضير حفلة افتتاح القناة فى رأى المستر كيف الذى حقق أسباب ديون اسماعيل فى سنة ١٨٧٠ كما سترى ، وقد نجح اسماعيل فى عقد قرض تم توقيعه سنة ١٨٦٨ قيمته الاسمية مبلغ ١١٫٨٩٠٫٠٠٠ جنيه والمتحصل الحقيقى منه

مبلغ ١٩٣٫٣٣٤٫٧ جنيه . وقد قبل اسماعيل ضمن شروط هذا القرض أن يمتنع عن الاستدانة لمدة خمس سنوات مقبلة مما يدل على انه كان فى أشد الحاجة الى المال . و كان افتتاح القناة فى ذلك الظرف هو شاغل اسماعيل الأكبر .

فلقد حرص على أن يدعو الى هذه الحفلة كل الرؤوس المتوجة فى أوربا وأكبر عدد من ذوى المقام والمكانة فى العالم . وكان اكبر همه من هذا أن يشهد هؤلاء جميعاً كيف تقل مصر من بلاد شرقية أفريقية لجعل منها بلاداً غربية متحضرة . وفى الحق انه أعد لهذا المظهر خير عدته . فقد بنى فى القاهرة قصوراً تضارع أفخم قصور المدائن الاوربية العظمى . بنى قصر الجيزة الذى انقلب فى العهد الاخير حديقة للحيوانات ووصل بينه وبين القاهرة بكوبرى قصر النيل . وبنى قصر الجزيرة الذى آل أخيراً الى الامراء آل لطف الله. وبنى غير هذين من القصور الشاهقه ومن دواوين الحكومة ماتعتز به مدائن أوربا . ثم أعد مسرح الاوبرا وكلف الموسيقى الايطالى الكبير فردى فوضع أوبرا عائدة لتمثل أثناء حفلات الافتتاح . وأنشأ حديقة الازبكية فى وسط القاهرة أسوة بالحدائق العامة فى العواصم الكبرى، وليتيسر للزائرين وبخاصة الامبراطورة أوجينى زوج نابليون الثالث زيارة آثار الفراعنة اختط طريق الاهرام فى أشهر معدودة . هذا الى ما مد من خطوط السكة الحديدية ، والى ما شيد من مدينة الاسماعيلية على ضفة القناة ، كما أنه كان قد انشأ فى مختلف أنحاء القاهرة كثيراً من المدارس الجديدة كما أعاد المدارس التى كانت قد انشئت فى عهد جده محمد على باشا

واضمحلت من بعده. فأنشأ مدارس المبتديان والتجهيزية والمهندسخانة والمساحة والألسن والعمليات والادارة واللسان القديم والتجارة ومدرسة للبنات ومدارس كثيرة أخرى فى القاهرة والاسكندرية والارياف. وكذلك كان من حقه أن يفخر بهذه المنشآت العظيمة وان يريها لملوك أوربا ليعلموا أنه أكثر حضارة من متبوعه الاعظم سلطان تركيا ، وانه اذا طلب يوما أن يستقل بحكم مصر فطلبه لا شىء من المبالغة فيه.

وسافر من جديد الى أوربا سنة ١٨٦٩ وعاد بعدما دعا كل الرؤوس المتوجة الى حضور الاحتفال بافتتاح القناة. وقد أجاب الدعوة منهم عدد غير قليل. ثم تم افتتاح القناة فى خمسة أيام. ففى ١٦ نوفبر سنة ١٨٦٩ ركب المدعوون بواخرهم وعددها ثمان وستون ترفرف فوقها أعلام مختلفة ويتقدمها (النسر) سفين الامبراطورة أوجينى زوج نابليون الثالث التى جاءت بالنيابة عن زوجها وقطعوا المسافة من بور سعيد الى الاسماعيلية فى ذلك اليوم. وبعد أن أقيمت فى الاسماعيلية أعياد استمرت يومى ١٧ و١٨ نوفبر ركب المدعوون من جديد بواخرهم يوم ١٩ وبلغوا السويس يوم ٢٠ نوفبر. ولم يكتف اسماعيل بهذا بل طاف بضيوفه العظام انحاء مصر يظهرهم على ما جدد فيها من حضارة تضارع حضارة أوربا. وقد كلفته هذه الاعياد الباهرة، حسب التقديرات الرسمية ، اربعة ملايين من الجنيهات.

وانتهت الاعياد وأضواؤها الباهرة وابتساماتها الخلابة وأجال اسماعيل بصره يريد متابعة أعماله فاذا خزانة الدولة قفر ، واذا هو

فى اشد الحاجة الى المال . ولم يكن يستطيع أن يقترض وهو مقيد فى عقد سنة ١٨٦٨ بأن لا يعقد قرضاً جديداً قبل مضى سنوات خمس . فلجأ الى المرابين من جديد ولجأ الى وسيلة تشبه ما يسميه الفلاحون اليوم : البيع على الوجه . فكان يبيع آلاف الارادب من الغلال قبل زرعها ويقبض ثمنها ، فاذا جاء موعد التسليم أعطى ما يجبى من الضرائب غلالا ثم اشترى الباقى بأسعار أعلى بكثير من الاسعار التى باع بها . ولجأ الى غير ذلك من الوسائل المخربة حتى اضطر جلالة سلطان تركيا رغم ما أصاب وزراؤه من أموال اسماعيل أن يبعث له يحظر عليه الاقتراض بغير تصريح سابق منه .

لكن ذلك كله لم يوهن من عزيمة اسماعيل الصلب ولم يثن من ارادته . يجب أن يوجد المال للقيام بمشروعاته ولمضاعفة هذا البذخ الذى كان يعيش فيه والذى اضطره لنثر الذهب من الابواب والنوافذ نثراً . وهل تراه يرضى أن يقول لرجل من اتباعه الذين يتولون تسليته أو لجارية من مئات الجوارى اللاتى كانت تترنم بأصواتهن قصوره : إن سيدكم قد عرف أخيراً كلمة المستحيل . كلا ! ليس هذا من خلق اسماعيل . فليعقد اذن قرضا ترهن املاكه الخاصة لسداده . وعقد بالفعل قرضاً خاصا فى سنة ١٨٧٠ قيمته الاسمية ٨٦٠ر١٤٢ر٧ جنيه والمبلغ المتحصل منه بالفعل خمسة ملايين جنيه .

ومن سنة ١٨٧٠ بدأ يرمى بنظره الى التوسع الاستعمارى . ولقد أصاب من ذلك حظاً من النجاح غير قليل . ففيما بين هذه السنة وسنة ١٨٧٥ استصفى لمصر كل الشواطىء الشرقية من السويس الى رأس غردفوى وحاصر بربر وزيلع . وفى سنة ١٨٧٤

ضم دارفور الى مصر واحتل هرر . وقد أدى احتلال هرر الى حروب مع الحبشة قتل فيها ابنه ، ولم يكن النصر فيها حليف جيوشه . على ان ذلك لم يصدها عن التوغل جنوبا الى حدود الأوغندة . وكان من أكبر رجال اسماعيل المسؤولين فى السودان صموئيل بيكر والكولونيل جوردون . ولعل ذلك كان أول ما دعا انكلترا لتفكر فى هذا القطر النائى ، وكان السبب فى السياسة التى رسمتها لنفسها فيه والتى أدت الى مركز السودان الحاضر .

وكانت هذه الاعمال ، وكان اسراف الحكومة فى مصر ، وكانت نفقات اسماعيل ومن حوله، تجعل كل مبلغ ضئيلا لايقوى على سدادها . لكن اسماعيل باشا بدأ يرى هول الديون التى استدانها و بدأ يشعر بأن من الواجب التفكير فى السعى للتخلص منها. ولعله كان مخلصاً فى سعيه وان كانت كل الوسائل التى ابتدعت لجلب المال لم تنجح فى أكثر من ان زادت الخديوى مطامع وسرفا . وأول ما أبدع من الوسائل قانون المقابلة. وخلاصته: ان ديون مصر الى يومئذ كانت تبلغ ستة أمثال الضريبة العقارية . فاذا دفع الملاك ضعف الضريبة ست سنوات أمكن سداد الدين . ومقابل هذه الضريبة المضاعفة يعفى الملاك أبداً من نصف الضريبة التى عليهم . وقد دفع كثير من كبار الملاك والباشوات الضريبة المضاعفه بطلب ولى الامر . وبدأت الحكومة فعلا تسدد الدين السائر . لكنها لم تمض عليها سنة واحدة حتى كانت قد استدانت من جديد بسندات أصدرتها مكفولة بضريبة المقابلة ما قيمته اثنا عشر مليونا من الجنيهات.

ولما كان موعد الخمس السنوات المحدد فى عقد قرض سنة ١٨٦٨

قارب الانتهاء رأى اسماعيل أن يستأذن الباب العالى فى قرض جديد يوحد به ديونه . واتفق فعلا مع بيت او بنهيم الذى أصدر قرض سنة ١٨٦٨ على أن يصدر قرضاً جديداً قيمته اثنان وثلاثون مليونا من الجنيهات لهذا التوحيد . على أن كل ماحصلته الحكومة المصرية من هذا المبلغ كان ٢٠٫٨٤٠٫٠٧٧ جنيهاً . وكان الدين السائر وحده قد بلغ يومئذ ثمانية وعشرين مليوناً .

ثم إن الخديو كان قد اضطر الى انفاق مبلغ ضخم فى الاستانة للحصول على فرمان سنة ١٨٧٣ الذى وطد الوراثة فى بكر الابناء على نحو ماصدر به فرمان سنة ١٨٦٦ والذى أتم لمصر استقلالها الداخلى حتى لم يبق لتركيا الاالآن تسك العملة باسم سلطانها وتتقاضى الجزية آخر كل سنة . وزاد هذا المبلغ فى مقدار الديون السائرة زيادة جعلتها تجاوز مقدار القرض الجديد بما يوازى نصفه . لذلك لم يفلح القرض فى سداد الدين السائر . واستمر اسماعيل على طريقته يصدر سندات جديدة أسماها فى هذه المرة سندات الروزنامة . وقد حصلت الحكومة من هذه السندات ٣٫٣٣٧٫٢١٠ جنيه فلم تكف هى الاخرى مضافة الى الدين الجديد لسداد الديون السائرة ولم يبق أمام اسماعيل الا بيع أسهم الحكومة فى قنال السويس . ولقد عرضها للبيع فى السوق العالمى . لكن انكلترا جعلت المسألة ماسة بسياستها ووقفت فى وجه فرنسا واشترت الاسهم من اسماعيل بمبلغ أربعة ملايين من الجنيهات وتمت الصفقة فى ١٨٧٥ .

وفى هذا العام الذى أطل فيه الخراب محدقا بعينيه البشعتين فى وجه اسماعيل تم تنظيم المحاكم المختلطة بعد معارضة غير قليلة من

جانب فرنسا ، وافتتحها اسماعيل وهو مايزال يأمل فى أن اعمال الحضارة التى قام ويقوم بها فى مصر تسمح له أبداً بأن يجد من الدائنين من يثق به ، ناسياً أنه كان قد رهن كل ايرادات الدولة وكل أملاكه الخاصة وأن الثقة به تزعزعت فى كل مكان . لذلك ما بزغت شمس سنة ١٨٧٦ حتى كان وقت الحساب قد آن ، وحتى أطفئت أنوار هذه الأعياد الدائمة وهذا النشاط العجيب الذى نشره اسماعيل لا فى مصر وحدها بل فى أرجاء كثيرة قريبة من مصر ونائية عنها — فى السودان وفى تركيا وفى فرنسا وفى انكلترا وفى كل بلد حلت به رحاله أو كان له دائنون فيه .

سنة ١٧٨٦ !! نعم هى السنة العصيبة فى حياة اسماعيل لأنها السنة التى بدأ فيها الصراع العنيف بينه وبين أوربا مجتمعة . والعجيب انه واصل هذا الصراع ومايزال واثقاً من نفسه ومن حيلته . لذلك كان إذا اضطر الى الاذعان يوما لم يكن ذلك منه حرصاً على الوفاء ولكن انتظاراً لفرصة النكث والأخذ بالثار . لكن خصومه كانوا أقوى منه أضعافا برغم أنه كان فى داره . وعلى الرغم من كل الوسائل التى لجأ اليها فقد انتهى آخر الامر فاسلم نفسه للمقادير التى قضت بخلعه وابعاده عن بلاده بقية حياته .

ومن عجيب سخر القدر من الناس أن اسماعيل هو الذى القى لاوربا بأول فكرة للتدخل فى شئونه وشئون مصر تدخلا ينتهى فى امره هو الى الخلع ، وفى أمر مصر الى الخضوع لنير أوربا أولا وانكلترا أخيراً . ذلك بأنه لما ثقل حمله وأيقن أن لا وسيلة الى الاقتراض من جديد الا أن تثق به أوربا أجال نظره صوب صديقته

الصدوق فرنسا فألفاها ما تزال مهيضة الجناح من أثر هزيمتها سنة ١٨٧٠ . عند ذلك فكر في مصادقة انكلترا وانتهز فرصة مرور ولى عهدها بمصر فطلب اليه أن يعين انكليزى مستشاراً للمالية المصرية. وكان جواب ولى العهد أن ذلك من شأن القنصل الانكليزى. فبعث القنصل بخطاب الى حكومته كطلب اسماعيل . واهملت انكلترا الخطاب حتى اشترت أسهم القناة . يومئذ ذكرت الخطاب من جديد فأرسلت الى مصر بعثة لفحص شئونها المالية وعلى رأسها المستر ستيفن كيف.

ولم يترك اسماعيل باشا وسيلة لاسترضاء المستر كيف ولجنته الا بذلها. وقدمت اللجنة تقريرها الى الحكومة الانجليزية فامتنعت عن نشره بحجة أن النشر يزيد مركز الخديوى حرجا . ولقد نشر التقرير من بعد فتبين أنه لا يزيد المركز سوءاً وأنه على العكس من ذلك يبين للناس أن ما اقترضته مصر إنما أنفقوا أكثره فى أعمال مثمرة ان لم تظهر نتائجها بعد فهى على كل حال ضمان يمكن أن يعتمد الدائنون عليه. على أن التقرير استظهر دقة حال مصر وأشار بأن لا بد من توحيد ديونها على قاعدة جعل الفائدة لها جميعاً ٧ فى المائة . ولم يعجب اسماعيل هذا الرأى وأراد المقاومة بتأجيل الدفع ولو كان من نتيجة ذلك اشهار افلاسه أسوة بمتبوعه الاعظم سلطان تركيا . لكن سرعان ما أدرك خطر ما اندفع اليه فتلافاه بأن أصدر قانونا فى ٢ و ٧ مايو سنة ١٨٧٦ بتوحيد الدين وبانشاء صندوق خاص بعملياته . وصندوق الدين تعين الحكومة المصرية أعضاءه من الاجانب بالاتفاق مع دولهم . وهذه أول خطوة من

خطى التسليم والخضوع لاوربا ولتدخلها فى شئون مصر الداخلية.

على أن الدائنين لم يرتضوا القواعد التى بنى عليها توحيد الديون فضجوا بالشكوى وطلبوا تعيين لجنة جديدة لفحص حالة مصر المالية. فذهب المستر جوشن والمسيو جوبير مندوبين عن الدائنين لاجراء هذا الفحص. وكان من أثر فحصهم أن صدر دكريتو ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ يفرق بين ديون الحكومة المصرية وديون اسماعيل الخاصة ويزيد فى اختصاص صندوق الدين وينشئ منصبى المراقبين العامين أحدهما انكليزى والآخر فرنسى يراقب أحدهما كل ايرادات الدولة ويراقب الاخر كل مصروفاتها، وينشأ كذلك ادارة للسكة الحديدية مكونة من انكليزيين ومصريين وفرنسى واحد، على أن يكون الرئيس انكليزيا. وبهذا الدكريتو أصبحت الحكومة المصرية فى يد صندوق الدين والمراقبين الأجانب وأصبح اسماعيل صورة لا يطلب منها الا أن تكف عن الأذى. وبدأت هذه النظم الجديدة بالعمل وبدأ اسماعيل يشعر بتلاشيه وانحدار سلطانه المطلق الى هاوية الفناء.

أين كان الشعب المصرى فى أثناء ذلك كله؟ لم يكن فى نظر اسماعيل شيئا الا أنه العبد المطيع الذى يفعل ما يؤمر به والبقرة الحلوب التى تدر الضرائب لاقامة الميزانية. ولم تكن للحكومة ميزانية معروفة وانما كانت ميزانيتها ما تتطلبه شهوات حاكمها الذكى القاسى. ولتحصيل هذه الميزانية غير المحدودة كان يكفى ان يقول اسماعيل: «أريد» لتتحرك كل الحكومة كى تنفذ ارادته. والناس على دين ملوكهم. فكان كل موظف فى الحكومة كاسماعيل شهوة وقسوة. وكان ما يطلبه

اسماعيل يجبى من الناس اضعافاً مضاعفة سداً لشهواته وشهوات هؤلاء الجباة الجناة . والناس يجب أن يدفعوا أو يكوى الكرباج والسوط جلودهم ويدمغ جباههم . ويجب أن يدفعوا أو يلقى بهم فى غيابات السجن يذوقون فيها أشد العذاب ، ولم لا ؟ أليس عزيز مصر وولى أمرها يريد . (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم) . فمن عصى فعليه اللعنة وله العذاب . وأى عذاب وأية لعنة ! كان رجال الحكم يومئذ من غير المصريين الا قليلا . فلم تكن بينهم وبين مصر وشيجة رحم أو عاطفة مودة أو قربى تحرك فى نفوسهم بازاء المصريين المساكين معنى من الرحمة أو الانسانية ، بل كانوا من الاكراد والجركس والارمن والأ لبانيين . وكانوا قساة القلوب غلاظ الاكباد على عقولهم أقفالها ، لا يعصون اسماعيل ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

لذلك كان طبيعياً أن لا يتحرك الشعب لتدخل الاجنبى فى شؤونه . ولماذا يتحرك ؟ أليس حكامه هؤلاء أجانب عنه كالذين تدخلوا فى شأن الحكم سواء بسواء ؟ واختلاف العقيدة لا يكفى ليقوم شعب هده الظلم وأضعف نفسه لينصر ظالمه على مخالفه فى العقيدة ، وبخاصة اذا انتظر من هذا المخالف رفع الحيف ووقف الظلم والأذى .

وبدأ اسماعيل يشعر بهذا ويحسه فى أعماق نفسه . جلس حسيراً فى قصره مغلولة يده يشهد بعينى رأسه ماجر اليه بذخه واسرافه من خراب وسمح لاذنه أن تسمع لاول مرة مايضج به الناس من ألم وشكوى . وماذا يعنى النـاس من قصور تشاد وحدائق تغرس وجسور تمد فوق النهر وألحان تعزفها الحسان اذا كان ذلك كله يشاد

من دمائهم ويعد على أكتافهم ؟ وزاد اسماعيل شعوراً بالكارثة ان استنفدت أقساط الدين كل الضرائب التي جمعت على النحو الذى كانت تجمع به من قبل من وسائل الارهاق، ولم يبق منها شيء يدفع الموظفين ولا للجيش .

ورأى الدائنون بأعينهم هذه الحال البشعة فاتفق الرأى على تعيين لجنة جديدة لفحص جديد . وفى سنة ١٨٧٨ تعينت لجنة الفحص العليا أنشأها دكريتو ٢٧ يناير من تلك السنة . وفى ٣٠ مارس صدر دكريتو آخر بجعل للجنة أوسع السلطة . وتشكلت من مسيو دلسبس رئيسا ومن مستر ريفرس ولسن نائب رئيس ، ومن أعضاء صندوق الدين الاربعة . وبدأت اللجنة فحصها تحركها فكرة أساسية هى وضع قرار اتهام اسماعيل . وبعد انتهائها من الفحص قدمت تقريراً مبدئياً كانت الفكرة السائدة فيه وجوب تحديد سلطة الخديو واعتباره مسؤولا عن حرج مركز مصر ، واقترحت لذلك اجراء اصلاحات فى التشريع المالى بالنسبة للضرائب وأن تخصص ايرادات أملاك الخديو كلها ومساحتها ٩١٧ر٠٠٠ فدان لسداد ما يكون من عجز فى الميزانية .

تردد اسماعيل بادىء الرأى فى قبول هذه المطالبة ، لكنه رأى تردده لا يفيد شيئاً بعد أن أصبح الامر كله للمراقبين ولصندوق الدين ، وانه اذا قبل ما اقترح عليه فقد يفتح ذلك أمامه بابا جديداً للاقتراض من جهة ، ويترك له الوقت من الجهة الاخرى فى تدبير وسيلة للخلاص من هذه المراقبة التى غلت يده . وتحت ضغط نوبار باشا أعلن الى المستر ريفرس ولسن فى يوم ٢٣ أغسطس

سنة ١٨٧٨ قبوله اقتراحات اللجنة . وفى ٢٨ أغسطس أصدر الامر العالى المشهور بانشاء وزارة (يحكم هو معها وبواسطتها وتكون متضامنة فى مسؤليتها) وشكل نوبار باشا هذه الوزارة واستمال فيها بالمستر ريفرس ولسن .

ومنذ طلب نوبار باشا الى المستر ريفرس ولسن معاونته فى الوزارة قام الاخير بالمفاوضة لعقد قرض جديد تسد منه الديون السائرة ويسد عجز الميزانية . وقبل أن يوقع عقد القرض أصدر اسماعيل دكريتو ٢٦ اكتوبر سنة ١٨٧٨ تنزل أعضاء العائلة الخديوية للحكومة بموجبه عن املاكهم العقارية وقدرها ٤٢٥ر٧٢٩ فدان خلا العقارات ، واعتبرت هذه الاملاك ضامنة للقرض الجديد الذى دعى باسم قرض الدومين أو قرض روتشيلد .

وفى شهر اكتوبر أصبح المستر ولسن وزيراً للمالية والمسيو دبلنيير وزيراً للاشغال العمومية والغيت بذلك المراقبة الثنائية على ايرادات الدولة ومصروفاتها على أن تعود اذا عزل هذان الوزيران الاوربيان من منصبيهما من غير موافقة انكلترا وفرنسا . وجعلت هذه الوزارة المختلطة جل همها أن تسدد الديون وأن تتلافى عجز الميزانية . والواقع أن الديون السائرة بلغت مبلغاً ضاق دونه القرض الجديد على الرغم من أنه بلغ ثمانيه ملايين . وكذلك وقفت الوزارة المختلطة بعد ثلاث سنوات من المراقبة المالية موقف الحكومات التى سبقتها وعجزت أن تواجه حرج المركز بخير مما واجهته غيرها من قبل ولجأت الى الضغط والاضطهاد اللذين لجأت اليهما أشد الحكومات عسفاً واستبداداً . وزاد الموقف حرجا أن رأى وزير

المالية الانكليزى الاستغناء عن الفين وخمسمائة ضابط من غير أن يدفع لهم متأخرات رواتبهم لأكثر من سنة كاملة. هنالك هاجوا وقاموا ومن بينهم أحمد عرابى فى ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ بمظاهرة خطيرة وأحاطوا بنوبار وولسن وأهانوهما وأوسعوهما ضربا . ولما نمى الخبر الى اسماعيل جاء بنفسه . فلما رآه الضباط وأمرهم بالانصراف لم يعص أمره منهم أحد مما دل على أن له فى تدبير هذه الفتنة يداً . وقد ثبت بعد ذلك انه كان المدبر لها بالفعل بأن اوعز الى أكثر الضباط اقداماً وجرأة بالقيام بها .

وكان من الضباط الذين قاموا بهذه المظاهرة ومن الذين استغنى عنهم ريفرس ولسون عدد غير قليل من المصريين الصميمين. ولعل ذلك هو الذى أدى الى استمرار الحركة فى المستقبل والذى كان نواة الثورة العرابية. فان الموظفين والضباط من الشركس والاتراك والارمن وغيرهم — ممن كان بيدهم الامر فكانوا يسومون المصريين الخسف وسوء العذاب— شعروا بفشلهم وبعجزهم اذا بقيت الخصومة بينهم وبين المصريين قائمة . ثم ان ريفرس ولسن تقدم بسبب آخر أدى الى تحرك العناصر القومية الصميمة فى البلاد . فقد طلب الى الحكومة أن تعلن أن مصر مفلسة كى تعامل معاملة المفلس فى شأن ديونها . هنالك اجتمع نواب البلاد وأعيانها وكبراؤها وموظفوها الدينيون والمدنيون والحربيون وقدموا للخديو برنامجا ماليا يخالف برنامج ولسن محتجين على القول بافلاس مصر. ولم تكن يد اسماعيل بعيدة عن وضع هذا البرنامج . ثم لم يكتف النواب ببرنامجهم الذى تقدموا به، بل تقدموا كذلك بعرض للخديوى يبينون

فيه استياءهم من الوزارة لعدم اكتراثها بآرائهم . وانضم الخديو لهذه الحركة وعضدها، لانه رأى فيها الوسيلة الوحيدة لعود بعض سلطته اليه بعد أن تقلص ظلها وانتقلت الى أيدى الاجانب . وبلغ من تعضيده إياها أن رفض النواب الارفضاض لما جاء رياض باشا وزير الداخلية يعلن اليهم انتهاء الدورة. وكذلك أصبح هذا المجلس الذى خلقه اسماعيل فى سنة ١٨٨٦ صورة يوهم بها الدول الاوروبية أن مصر أصبحت بالفعل جزءاً من أوربا وقد شعر بوجوده وقدر مكانته . فقد احتج فى ٢٩ مارس سنة ١٨٧٥ على الوزارة المختلطة لانها لم تكن تعترف بوجوده وبمسئوليتها أمامه . وفى ٥ أبريل طالب الى الخديو تعديل قانون الانتخاب واعلان مسئولية الحكومة أمام مجلس النواب. ولم يقف عند ذلك بل احتج على بقاء الوزارة المختلطة وبالتالى على وجود ولسن ودبلنيير فيها. ولم يلبث اسماعيل ان ابلغ هذا الاحتجاج حتى عزل الوزارة وعهد الى شريف باشا بتأليف الوزارة الجديدة. وفى الشهور الثلاثة التى انقضت بين توليها وخلع اسماعيل بدأت بوضع قانون للانتخاب كما نشرت فى ٤ يونيه لائحة مجلس شورى النواب الاساسية وفيها تقرر الحصانة البرلمانية وتحدد عدد النواب وتنص على المسئولية الوزارية. ومع ان هذه الوزارة كانت جادة فى عملها ومع انها سبقت هذا التشريع النيابى بتشريع مالى صدر به دكريتو بتاريخ ٢٢ ابريل سنة ١٨٧٩ يكفل للاجانب حقوقهم ويقر المراقبة الثنائية وصندوق الدين فى اختصاصهما الواسع فان اوربا بدأت تشعر بأن مصر على وشك انتقال خطير ليس من العسير تقدير مدى نتائجه ، وان خيراً للمصالح الاوربية الوقوف فى سبيله . فبدأت المانيا والنمسا

بالاحتجاج فى ١٨ مايو على دكريتو ٢٢ ابريل بدعوى انه يخالف لتعهدات مصر الدولية وألقتا مسئولية هذه المخالفة على الخديو. وفى ٨ يونيو احتذت وزارتا باريس ولندره مثال المانيا والنمسا. وقد حاول اسماعيل القضاء على هذه الحركة الدولية فطلب موافقة الدول على الدكريتو، لكن حركته هذه لم تنجح.

وكانت الدول قد سئمت هذا الصراع الطويل مع اسماعيل. ولعلها كذلك خشيت بعد انضمامه للامة واظهاره العطف كل العطف على مطالبها، أن تقوى الحركة القومية المصرية وأن يصبح اسماعيل مثلما كان جده محمد على مكانة وقوة سلطان. لذلك رأت أفضل السياسات أن ينزل عن العرش. لكن اسماعيل لم ينظر الى المسألة هذه النظرة وأراد أن يلجأ الى جلالة سلطان تركيا آملا أن يكون لما قدمه له من طائل الاموال وعظيم التضحيات بعض الاثر. وهنا خاب فأله. فقد بعث الباب العالى فى ٢٦ يونيو تلغرافا بعزل اسماعيل عن العرش وبرفع ولده توفيق مكانه. وعلى أثر ذلك أقلع اسماعيل من الاسكندرية قاصداً ايطاليا وقلبه خافق وعيونه هامية بالدمع. وأقام فى ايطاليا زمناً ثم انتقل الى الاستانة اذ أنام بها فى قصره «أمر جيان» على شواطئ البوسفور حتى جاء أجله فى ٢ مارس سنة ١٨٩٥

***

وكم دار بخاطره فى هذه السنوات الاربع عشرة التى انقضت بين عزله وأجله أن يعود الى نضال يسترد به عرشه. وكان أول ما صنع من ذلك ان بعث الى السلطان بالاستانة على أثر وصوله الى نابولى رسالة حارة يذكر له فيها ما أجرى من عظيم الاصلاح فى وادى النيل وما قام

به من فتح السودان الى خط الاستواء حيث خفقت الراية العثمانية من تلك الانحاء فى ربوع لم تخفق من قبل فوقها لكن السلطان لم ينسأ بخطاياه ولا أخطائه عنه بل نسى كل ماضى اسماعيل وما أغدقه على الاستانة ورجالها من مال وأنعم وما ناله بسببه وقد أصبح لا يملك لنفسه نفعا ولا ضراً ولا يملك لمتبوعه العظيم رشوة ولا هدية وأصحاب العروش لا يعنون إلا لصاحب القوة ما داموا يهابون قوته ويطمعون فى خيره ومعونته وقال ذلك من عنت اسماعيل ولكنه حملها على الصبر حتى كانت الثورة العرابية فى مصر هنالك خبر الألم فى نفسه وادكر أنه لم يفكر فى مقاومة كالتى قاومها اليوم هؤلاء المصريون الابطال ولو أنه قاوم فرعا كان له من الاقدار عون يبقى نجمه عاليا أما ولم يفعل فليس له ان يرجو من الاقدار مدداً وهى لا تمد الضعيف أو الخائف وانما تحارب فى صف الشجاع المقدام

وقد دخل الانكليز مصر فشمله حكم اليأس على كل آماله فى استعادة ملكه فظل فى ايطاليا حتى انتقل الى الاستانة ليلقى فيها منيته وليكون فيها أسير عطف الاتراك الذين طالما غنموا بما أغدقه عليهم من مدد ومال أيام ولايته

الخديوى توفيق باشا

ثلاثة عشر عاما تولى فيها توفيق أمر مصر كان خلالها فى زهرة شبابه بين السابعة والعشرين والاربعين . لكنه كان فيها كذلك بين عوامل لا يستطيع مدافعتها والتغلب عليها إلا نابغة محنك . كان فيها بين تركيا الناقمة لضعف سلطانها فى مصر ، وانكلترا الطامحة الى بسط نفوذها نهائيا على وادى النيل ، وفرنسا المكتئبة لتقلص مكانتها رويداً رويداً من أرض الفراعنة ، والامة المصرية المثقلة بديون اسماعيل بأسا وظلم حكامها والمتأججة نفوس أهلها بالثورة طمعاً فى الاستقلال والدستور . وهو بين هذه العوامل رجل يشعر بضعة أمومته ويحقد أهلها عليه ، ويود لو أنه كان فى مكان أبيه بطشا وسلطانا ، ويخفضه الاقتدار الذى أتيح من سعة الذكاء ما وهبت غيره ، ولتربيته الشرقية البحتة التى اقتضت أن لا يغادر مصر وأن لا يتصل بالمدنية الاوربية اتصال أخوته ، وللظروف التى جعلت تتقاذفه منذ ارتقى عرش أبيه فتصدمه بكل واحد من العوامل المحيطة به ، إنتهى به الامر الى أن يكون فى تاريخ مصر صورة غير محبوبة ، ولا ممقوتة ، صورة مرت فى هذا التاريخ فكان أثرها فيه سلبياً هو أثر العاجز عن أن يقوم لبلاده أو لنفسه بخير . وليودع العالم فى الاربعين من عمره فيلقى بمصائر مصر بين يدى ولى عهده الفتى عباس وما يزال فى الثامنة عشرة من عمره .

***

ولد توفيق باشا فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٥٢ ثمرة لبرهة هوى من اسماعيل مع احدى جواريه التى لم تنـل منه إلا حظوة قصيرة ولم تكن له زوجا . ولم يكن اسماعيل يومئـذ وارثا لعرش سعيد ان كان احمد أكبر العائلة ما يزال حياً . لذلك لم يلفت مولد توفيق نظر أحد إلا ما كان من زراية أميرات العائلة المالكة لامه . فلما حصل اسماعيل على فرمان وراثة العرش للولد الاكبر انقلبت الزراية اللام حقداً على الابن. وشارك اسماعيل أهله فى عدم عطفهم على توفيق وان لم يبلغ ذلك من نفسه مبلغ حقده على حليم باشا وارث عرشه على النظام القديم . وثبت عدم عطفه على توفيق وعدم رعايته اياه فى عزمه على أن يكون عرشه لحسين من بعده. وقد كان يستطيع ذلك اعتماداً على أمومة توفيق أو بالتخلص منه كما كان يفعل ملوك ذلك العصر فى تركيا ، لكنه لم يكن يتعجل النظر فى أمر لم يكن فى حسبانه وقوعه قبل زمان طويل . وكفاه وجود توفيق بمعزل عنه فى قصر له مقتصراً على ادارة أراضيه .

على ان عزلة توفيق وعدم اغداق أبيه أسباب الرضا عليه جعله ينظر الى ما صنع أبوه من استدانة ومن ارهاق المزارعين والفلاحين ومن بطش بالناس جميعاً نظرة مصرى لا نظرة ولى عهد . لذلك اتصل بطائفة من الناقمين على الحال التى آلت مصر اليها ، أمثال السيد جمال الدين الافغانى واللقانى والشيخ محمد عبده ومن كان يلوذ بهم من أمثال عرابى ، وانخرط فى سلك الماسونية الذى انخرطوا فيه . فلما اضطر اسماعيل تحت ضغط الدائنين الى أن يعين نوبار باشا رئيساً

للوزارة المسئولة الاولى وأن يضم اليه مستر ريفرس ولسن ومسيو دبلنيير، الاول وزيراً للمالية والثانى وزيراً للاشغال ، ثم لما رأى أن الحال المالية فى البلاد تزداد كل يوم سوءاً برغم ما تنزل عنه من سلطته ومن أملاكه،ورأى الشعور العام ضد التدخل الاجنبي يزداد فى البلاد كلها ، خلع نوبار من الوزارة واتفق مع فرنسا وانجلترا على تعيين ولى عهده توفيق باشا رئيساً للحكومة . على أن ولى العهد كان يعلم دقة الموقف كما يعلم بنوع خاص تهيج الشعور العام بازاء ما كان يعتزمه السير ريفرس ولسن كعضو فى لجنة التحقيق الدولية من اعلان افلاس مصر . لذلك لم يجد الوزيران الاوربيان من رئيس الوزارة الجديدة مؤيداً قويا لهما. وعلى أثر اعلان وزير المالية تأجيل دفع الفوائد المستحقة للدائنين فى شهر ابريل تقدمت عريضة من العلماء والوجهاء والنواب ورجال الجيش يحتج فيها مقدموها على هذا التصرف ويطلبون الى الخديو أن يلجأ الى نوابه للخروج من المأزق ، وعلى ذلك استقالت وزارة توفيق من غير أن تفعل شيئاً . وكلف اسماعيل شريف باشا بتأليف وزارة تكون مسئولة حقيقة أمام برلمان تنظم حقوقه وطرق الانتخاب له بحيث يستطيع أن يقوم بما تقتضيه الاحوال وأن يحقق الامانى القومية .

وكان ذلك هو الانقلاب الحكومى الذى أريد به القضاء على سلطة المراقبين وعلى تدخل الاجانب فى الادارة المصرية ، والذى انتهى بتركيا الى عزل اسماعيل باشا فى ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ والى إرسال برقية فى اليوم نفسه الى توفيق باشا تعلن فيها اسناد منصب

الخديوية المصرية إلى جنابه ويختتمها وزير تركيا بقوله « والأمر والفرمان فى كل حال لمن له الامر أفندم » .

كانت هـذه الضربة الحاسمة غير المنتظرة من جانب تركيا منبهة لكل من يعنيهم أمر مصر وكل من لهم مصالح فيها لكى يقفوا على حـذر . ومع أن توفيق باشا فوجىء بالخبر وفزع له حتى لقد قابل موظف قصره الذى أبلغه اليه أسوأ مقابلة بأن صفعه، فانه شعر من ذلك الحين بأن التركة التى آلت اليـه اعباؤها تركة مبهظة مخوفة . ترى ماذا عساه يصنع بازاء أبيه ، وبازاء تركيا، وبازاء الدول وتدخلها فى شؤون مصر ، وبازاء الامة المصرية المتوثبة للحركة بل للثورة ؟

أما اسماعيل فأيقن أن لا مفر له من الانحناء لعاصـفة لم يكن يستطيع مواجهتها وان لم ينقطع رجاؤه فى العود يوما ما الى هذا العرش الذى انتزع منه اغتصابا . لذلك قابل الصدمة بكل ما يستطيع رجـل فى عظمته وفى قوته أن يواجهها به ، وأظهر من العطف على ولى عهده ما لم يكن له من قبل به عهـد . وفى الايام التى انقضت ما بين تبوء توفيق عرش أبيه وسـفر اسماعيل من بلاد عزيزة عليه كانت عواطف الابوة والبنوة بينهما كخير ما يمكن أن تكون فى مثل هذا الظرف العصيب .

اطمأن توفيق إذن من هـذه الناحية . ولقد أظهر من عواطف البنوة ما دفعه للتنزل عن عشرين ألف جنيه من مرتباته السنوية لأبيه كى تبلغ مرتباته خمسين ألف جنيه . ولمناسـبة رفع مرتبات البيت الخـديو اليه أراد فى نفس الوقت أن يظهر للأمة حرصه على

مصلحتها ومشاركته إياها فى متاعبها المالية فأمر بالغاء الراتب المعين لوالدته وحرمه وقدرها خمسة وخمسون ألف جنيه .

بعد إرتقاء توفيق العرش جعلت تركيا تفكر فى الاستفادة من الانقلاب بأن تسترد ما كسبته مصر بفرمان سنة ١٨٧٣ الذى جعلها مستقلة استقلالا داخلياً تاما فيما عدا سك العملة ودفع الجزية. وقد أثار هذا الخبر فى مصر قلقاً غير قليل . على أن فرنسا وانكلترا عارضتا الباب العالى فيما أظهره من عزمه وأنبأتا ممثليهما فى مصر بأنهما معترمتان فيما إذا لم يقرر السلطان أحكام فرمان سنة ١٨٧٣ فى الفرمان الذى يوجهه الى الخديو توفيق أن تطلبا الاستقلال التام لمصر . وقد اختلف فى الاسباب التى دعت تركيا الى هذا التصرف: أهى كانت تريد بالفعل الغاء الحقوق والامتيازات التى حصلت عليها مصر أثناء ولاية اسماعيل باشا أم هى كانت تتذرع بالمطل والتسويف للحصول على مبلغ من المال بدليل أنها قطعت فى ذلك الوقت حوالة على مصر أبت الحكومة المصرية قبولها بسبب ارتباكها المالى . على أن هذا التسويف طوع لفرنسا ولانكلترا أن تتدخلا وأن تطالبا الباب العالى بابلاغهما فرمان تولية الخديو كوثيقة دولية وأن تثبتا بذلك حقوقهما فى التدخل فى شؤون مصر للمحافظة على حقوقها بازاء تركيا استناداً على ما كان من تدخلهما للمحافظة على مصالح رعاياهما الدائنين للحكومة المصرية . وكان من أثر ذلك أن شعر توفيق بما للدولتين من فضل عليه بسبب محافظتهما على حقوقه وحقوق البلاد التى ولى عرشها .

ولم يصل الفرمان بتولية الخديو الجديد الا بعد شهرين من ارتقائه عرش أبيه . أى فى ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٩

خلال هذين الشهرين كانت خطة توفيق غامضة ماتزال . فهو حين ارتقى العرش كان فى زمرة الماسون الذين يناصرون الحرية والعدالة . لذلك وجه خطابه الى شريف باشا لتشكيل الوزارة الاولى فى عهده مقدراً للأمة معتمداً عليها ذاكراً « انى عظيم الميل لبلادى شديد الرغبة فى تحقيق آمال الأمة التى أظهرت السرور بولايتى عازم عزما أكيداً على التماس أحسن الوسائل لازالة الاختلال المفسد لكثير من المصالح ... الا أن ادراكى لهذه الغاية التى هى موضوع آمالى يتوقف على مساعدة الامة بجملتها » . وتحقيقا لهذه السياسة تألفت لجان من الاوربيين غايتها تقديم العرائض الى قناصلهم يلتمسون بها من دولهم منع تدخل الاجانب فى أحوال مصر وقصر النظر فيها على الوطنيين . ثم ان توفيق باشا تحدث فى ذلك الظرف الى مكاتب التيمس فأشار بادىء ذى بدء الى أنه لايبرح مقيد اليد فى العمل حتى يرد الفرمان بتعيينه . لكنه مع ذلك صرح للكاتب بأنه لايريد الرجوع الى تعيين وزراء أوربيين بل ينبغى أن تكون الوزارة مصرية وطنية يصح أن يعاونها رجال من الاوربيين فى الادارات على أن يكونوا موظفين مصريين لاأكثر . أما سير ريفرس ولسن ومسيو دبلنيير شخصياً فقد صرح توفيق بأنه يعارض أشد المعارضة فى رجوعهما أياً كانت صفتهما ، لأن رجوعهما يكون مخالفاً لمصلحة مصر على خط مستقيم . وطلب الخديو الى الدول فى حديثه هذا أن تمهله بضعة

أعوام «فنحن فى مقام الامتحان فلا يحسن بأوربا أن تمسك على وعلى مصر طريق النجاح»

وكان من أثر هذه الخطة وتلك التصريحات ان هدأت أعصاب المصريين التى كانت متوترة فى الأيام الأخيرة من عهد اسماعيل. فعلى الرغم من عزل الحكومة عشرة آلاف من الجنـد المجتمعين تحت السـلاح وانقاص الجيش العامل الى اثنى عشر الفاً وتأخير صرف مرتبات الكثيرين ، أمسك الرجاء بالناس عن أن يلجأوا للهياج . لكن نبات توفيق باشا الديموقراطية لم تلبث الى أكثر من وصول الفرمان بتثبيته على عرشـه . ففى مساء اليوم الذى عاد فيه مندوب السلطان الذى كان يحمل هذا الفرمان قافلا الى تركيا بعـد حفـلة تلاوته أقيلت وزارة شريف باشا وألف توفيق باشا وزارة تحت رئاسته مباشرة . والخديو التى روجت تبريراً لهـذا التصرف انما هى ارادة الخديو تعجيل الاصـلاح . أما الحقيقة فعدم رضا توفيق عن ميول شريف باشا الدستورية . ففى الخطاب الذى أرسل به الخديو الى كل من وزرائه الجدد معنى قصده العودة الى حكومة الفرد . فيه تكليف لكل من النظار أن يحضر أوراق شؤون وزارته ومعلوماتها عند حضوره الى المجلس لعرضها . على ان توفيق كان يشعر بأن الأمة لا يمكن أن ترضى عن هذه الحال . لذلك بعث بتلغراف الى رياض باشا الذى كان متغيباً هو ونوبار باشا، أوقل منفيين فى أوربا، يستقدمه اليه لعلمه بعدم ميل هـذا الوزير الى حياة الشورى . فلما حضر فى أوائل سبتمبر عهد اليه بتشكيل الوزارة وقطع على نفسـه العهـد باحترام ارادة ٢٨ أغسطس

سنة ١٨٧٩ التي قررت مبدأ مسئولية الوزارة وتضامنها . وبعد ثلاثة أشهر من استقرار هذه الوزارة في مناصبها زار توفيق، جريا على سنة أسلافه ، أنحاء ملكه في الوجهين القبلي والبحري وقضى فيهما أشهراً وعاد منهما في أوائل مايو سنة ١٨٨٠

وكان الهدوء شاملا أنحاء مصر في هذه الفترة . لكنه كان هدوء تربص وانتظار . ذلك بأن المسألة الشائكة التي انتهت بعزل اسماعيل كانت تحت البحث منذ أول ولاية توفيق وكانت لا تؤذن بخير كثير فعلى الرغم مما أمليته الخديو لمكاتب التيمس من المعارضة في عودة ولسن ودبلنيير بعد فشل سياستهما المالية في مصر لم تر الحكومة الفرنسية بعد اتفاقها مع حكومة مصر على اعادة المراقبين أن يعين أحد غير مسيو دبلنيير . أما الحكومة البريطانية فأشارت بتعيين السير بارنج (لورد كرومر) . وتم تعيين الرقيبين في ٤ سبتمبر سنة ١٨٧٩ وباشرا عملهما وانتهيا بتقديم تقرير الى الخديو في أواخر عام تعيينهما يقترحان فيه تعيين لجنة تصفية للدين المصرى كله . وبعد محادثات بين الدول صاحبات الشأن تعينت اللجنة في ٣١ مارس برئاسة السير ريفرس ولسن وتعهدت الدول بقبول قراراتها . وإذن فقد رأى توفيق نفسه بإزاء حالة كان يراها أول جلوسه على العرش مخالفة لمصلحة مصر على خط مستقيم من غير أن يستطيع لها نقضاً .

وقدمت لجنة التصفية تقريرها في ١٧ يوليو سنة ١٨٨٠ فأصدره الخديو فوراً وأطلق عليه اسم قانون التصفية . وعلى موجب هذا القانون بلغ دين مصر ٩٨٫٧٤٨٫٩٣٠ جنيهاً . وقد روعيت في هذا القانون ، كما روعيت في كل تصرفات ممثلى الدول الاجنبية

مصالح الدائنين الأجانب على حساب نظام الحكم فى مصر. وبالرغم مما كان يعلمه المراقبون وغير المراقبين من أن أكثر من نصف هذا الدين لم يدفع الى مصر لم يفكر أحد فى إلزام الدائنين بالتنزل عن شيء من الديون الاسمية التى كانوا يقتضونها من مال المصريين ومن دمائهم . ولما كان تدخل الاجانب منيراً لعواطف المصريين فى عهد اسماعيل فقد بدأت هذه العواطف تثور من جديد بعد هدأة التربص وبدأت العاصفة تتكون فى الجو لتؤذن بالانفجار عما قريب .

وبدأت نذر الانفجار بما كان من تبرم رجال الجيش تبرما سببه امتهان العنصر المصرى فيه لمصلحة الاجانب من الاتراك والجراكسة . فلما سرح اسماعيل باشا فى أواخر أيامه ألفين وخمسمائة من الضباط أكثرهم مصريون كان اخوانهم يشعرون بالالم من أجلهم ويخشون أن يصيبهم مثل نصيبهم. على أن ارتقاء توفيق الى العرش واستيزاره شريف باشا هدأ الحالة زمناً . فقد ظن الناس انهم حاصلون على هيئة نيابية خير من شورى النواب القديم تراقب الحكومة وتمنع تدخل الاجانب وتعيد العدل الى نصابه . فلما عين رياض باشا وعين معه فى وزارة الحربية شركسى قح هو عثمان رفقى ، يمقت المصريين ويحتقرهم ، ولما تكشفت نيات الخديو ووزارته عن العدول عن الحكم النيابى بل عن شورى النواب نفسه ، ثم لما بدىء بتنفيذ قانون التصفية وتبين أن حال مصر المالية لم تفد منه خيراً — لما حدث ذلك كله كان المدنيون وكان رجال الجيش تغلى فى صدورهم مراجل الحقد وتتأجج نفوسهم بنيران الثورة .

وعجيب أن يحدث ذلك كله بأعين توفيق فلا يراه ولا يقدر مداه ، بل يندفع فى التيار العجيب الذى اندفع فيه مخالفاً بذلك كل ما أظهره من الميول أول جلوسه على عرش أبيه . فهذا الميل الشديد لتحقيق آمال الامة وهذا الاعتماد على معاونتها قد انقلب فجأة عقب وصول الفرمان الى اعادة حكومة الفرد ثم الى اسناد الوزارة لنصير قوى من أنصار النظام المطلق . وهذا الحرص على معارضة عودة ولسن ودبلنيير وعلى أن تكون الوزارة مصرية وطنية وهذه الدعوة لانتظار أوربا نجاح السياسة الوطنية الجديدة قد انقلب فجأة الى قبول هذين الشخصين وغيرهما من الاشخاص والى ترك التدخل الاجنبى يتوغل فى ادارة البلاد. وهذه السياسة المالية التى فشلت على يد ولسن قد انقلبت فجأة سياسة الحكومة المصرية لبصدر على موجبها قانون التصفية . وهذه الانقلابات كلها قبلها توفيق راضى النفس مطمئناً . على أن لهذا العجيب فى نظرنا تفسيره الواضح : فتوفيق الضعيف قد رأى ما حل بأبيه حين عارض انكلترا وفرنسا فيجب ألا يعارضهما. وانكلترا وفرنسا تريدان هذا النظام فيجب أن يريده. ليتمخض ذلك كله عن انفجار أو عن ثورة أو عما يمكن أن يتمخض عنه ، فليس توفيق الضعيف هو الذى يطالب بالتفكير فى هذا . ويكفيه أن يعتمد فى بقائه فى عرشه على سند الدولتين اللتين استخلصتا له من تركيا فرمان توليته .

وكان يسيراً أن يرى توفيق نذر الانفجار آتية من ناحية رجال الجيش. ذلك بأنه فضلا عن تسريح ألوف من الجند ومئات من الضباط فى آخر عهد اسماعيل وبالرغم من تسريح عشرة آلاف جندى أول

ولايته ، فان تنفيذ قانون التصفية أسفر عن عجز الميزانية اللازمة لنفقات الدولة فى سنة ١٨٨١ عجزاً بلغ مقداره ١٦١٠٠٠ جنيه بينما كان متوفراً فى صندوق الدين بعد دفع الفوائد مبلغ ٨١٣٠٠٠ جنيه أنفقت فى استهلاك السندات بدلا من أن يسدد منها ذلك العجز .
وقد ترتب على هذا أن بقى كثيرون من الموظفين، ومن بينهم رجال الجيش، لا يتقاضون مرتباتهم . أضف الى هذا أن رفقى باشا ناظر الحربية أصدر لائحة مقتضاها عدم ترقية المصريين الى الدرجات التى يستحقونها، بينما يرقى الجراكسة الى أكثر مما يستحقون. ولما كان الضباط المصريين جماعة سرية بين أعضائها احمد عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى وكانوا قد قدموا لرياض باشا طلبات بالاصلاح منذ شهر مايو سنة ١٨٨١ لم تنظر الحكومة فيها ، فقد قرر هؤلاء دفع آلايات الجيش للاحتجاج على تصرفات رفقى باشا وعلى المطالبة بعزله. ورفعت بالفعل عريضة للخديو متضمنة هذا الاحتجاج .

وكان محمود باشا سامى البارودى وزير الاوقاف فى وزارة رياض على اتصال بهؤلاء الضباط . لذلك تيسر لهم أن علموا بعد احتجاج الجيش أن الحكومة تريد محاكمة الثلاثة الذين ذكرنا أسماءهم وأنها أمرتهم بالذهاب الى قشلاقات قصر النيل فى أول فبراير سنة ١٨٨١ لتقبض بعد ذلك عليهم . فما كادوا يذهبون وما كاد يقبض عليهم ويجردون من رتبهم ويسجنون حتى كانت آلاياتهم قد حضرت وأنقذتهم من سجنهم بقوة السلاح .

وسار الضباط الثلاثة على رأس آلاياتهم من قصر النيل الى عابدين. وهناك وقف عرابى بين الجند خطيباً فشكرهم على اخلاصهم له

وانقاذهم إياه. ثم تقدم الى الخديو يطلب العفو عنه وعن زملائه ، وخلع عثمان رفقى من نظارة الحربية ، وأردف عبارته هذه بقوله : أنهم لا يبرحون الا بنيل بغيتهم . ولما كان توفيق قد رأى كل الأوامر التى أصدرها الى ضباط الجند لا تنفذ ورأى نفسه فى مأزق لا يعرف سبيلا الى النجاة منه سارع الى اجابة طلب العصاة وأقال عثمان رفقى من الحربية وعين مكانه صديق الضباط المتقضبين محمود سامى البارودى.

لو أن توفيقاً كانت له سياسة معينة يومئذ لما وقع حادث قصر النيل. لكنه كان مضطرب الرأى والسياسة جميعاً لأنه كان يدرك كما قدماء أن سنده الاخير ليس تركيا وليس الامة المصرية مادام حليم باشا وارث العرش على النظام القديم مقيماً فى الآستانة يدس لالغاء وراثة الابن ويعاونه أنصار من الساسة والامراء ، ومادام هؤلاء يريدأن يعتمد على الامة أو ينيلها شيئاً من الحقوق التى تتمرها بكيانها. على أن حادث قصر النيل لم يكف توفيقاً درساً فى وجوب تحديد سياسة يسير عليها لكيلا يكون دائماً معرضا للتصادم مع القوى المختلفة المحيطة به . فمع شعوره بأن أباه اضطر للاستعانة بالأمة ولو استعانة صورية ممثلة فى مجلس شورى النواب فقد ظل حفيظاً على مبدإ الحكومة المطلقة. ثم أنه الى جانب هذا كان قد بدأ يتخوف رياضا لقوته وشدة سلطانه على الرغم من مشاركة رياض إياه فى تأييد النظام المطلق . لذلك بدأت الوزارة تضعف شيئاً فشيئاً على حين بدأ المتمردون من رجال الجيش يزدادون قوة على أثر انتصار يوم قصر النيل وينضم اليهم كثيرون من غير العسكريين ويجاهرون جميعاً

بضرورة تشكيل مجلس النواب . وكان سامى البارودى من أصحاب هذا الرأى ومن أقوى المحركين لعرابى ومن معه ، بل كان هو روح الحركة ومحورها .

وبرغم ضعف الوزارة وشعور الخديو بمعارضة عنصر قوى فى البلاد لها فانه أراد أن يقاوم هذه المعارضة بالشدة . لذلك عمد الى عزل سامى البارودى من وزارة الحربية والى تعيين صهره داود باشا يكن مكانه . وأراد داود باشا قمع الحركة فأمر بمنع اجتماع الضباط وبث عليهم الارصاد والعيون . ولما عاد الخديو من الاسكندرية أمر الوزير الجديد بأجراء تنقلات بين الألايات شعر معها عرابى وأصحابه بأن المراد تشتيتهم للتنكيل بهم بعد ذلك ، فرفضوا تنفيذ الأمر وأبلغوا الخديو بان الجيش سيحضر بتمامه الى عابدين لابداء اقتراحات تتعلق بنظام الحكم فى البلاد وبشؤون الجيش وتحسين حاله .

ترى ماذا يفعل توفيق بازاء هذه الحركة وهى حركة تمرد عسكرى صريح . أتراه يترك الامر لوزارته فيصرح أن عليها حفظ النظام والأمن ؟ أتراه يدعو اليه كبار رجال الدولة وأعيانها فى مجلس عام لينظر فى الأمر ؟ أتراه أمر بتجريد المتمردين من رتبهم وألقابهم لكيلا يكون لوزارته ولا لغيرها من رجال البلاد عليه فضل ويقف صلبا ينتظر النتائج كائنة ما تكون : كلا ! فهذه كلها حلول تحتاج الى عزيمة والى قوة جنان والى شعور بالمسئولية واستعداد لمجابهة الخطر وجها لوجه . وتوفيق الضعيف لا يملك شيئاً من هذا . لذلك عمد الى وسيلة عجيبة لا يعمد اليها سياسى . أخذ وزراءه ووجههم الى حيث تعسكر الألايات المتمردة يحقق معهم ويستعطفهم . ثم

ذهب بنفسه الى القلعة حيث ألآى عرابى ليرجوه أن لا يفعل ما اعتزم فعله. لكنه وجد عرابى قد سبقه الى عابدين فعاد هو الآخر ادراجه اليها .

وهناك فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ قام عرابى على رأس الجيش ممتطيا جواده مستلا سيفه ووقف توفيق فى شرفة عابدين يحيط به وزراؤه وقناصل الدول .

وبأمر توفيق أغمد عرابى سيفه وتقدم بمطالبه ، وهى اسقاط الوزارة وتشكيل مجلس النواب وزيادة عدد الجيش والتصديق على قانون العسكرية الجديد وعزل شيخ الاسلام. وربما كان التصديق على قانون العسكرية أهم مطالب الجند . وربما اكتفوا به لو أن الخديو أجابهم فوراً اليه وأمرهم بالانصراف لكى تنظر حكومته فيما عدا ذلك من المطالب . لكن الخديو اضطرب لساعته ورفض الطلبات جميعاً مواجهاً خطر النداء بعزله واعلان الجمهورية فى مصر على نحو ما كان يدور برأس عرابى وأصحابه . لكن وزراءه وقناصل الدول أشاروا على الخديو بالعود الى داخل السراى خشية أن تعجل مواجهة ماين الرجاين الحوادث . وصار مستر كولفن القائم بعمل المراقب الانكليزى وقنصلا انجلترا والنمسا رسلا بين الخديو وعرابى . وتصلب عرابى التصلب كله وأشار بعض الحاضرين على الخديو ، ومن بينهم مستر كلفن ، أن يتشبث بالرفض . مؤكدين أن لن يصل رجال الجيش الى اكثر من الظاهرة التى قاموا بها . لكن الخديو أوصله ضعفه وعدم احتياطه الى التسليم فسقطت وزارة رياض لساعتها ووعد الخديو

بتنفيذ باقى المطالب بالتدريج ، ودعا اليه شريف باشا كى يشكل الوزارة الجديدة . ورفض شريف بسبب ما أمامه من المصاعب وأخصها تمرد الجيش وعدم طاعته الأوامر . فلما أظهر عرابى استعداده ورجاله للامتثال وللطاعة ، ولما جاء عمد البلاد فكفلوا عرابى فيما قاله ، ثم لما استشار شريف حكومة تركيا وحكومات انجلترا وفرنسا وكفل معاونتهم جميعاً ، بعد كل هذا شكل الوزارة وأمر الضباط الثلاثة بأن يتفرقوا فى انحاء مختلفة من القطر وبعث بعرابى الى رأس الوادى وباشر الحكم فى حزم واناة كانت البلاد يومئذ بحاجة أشد الحاجة اليهما .

وآنس توفيق نفسه فى عزلة بعد ما أذعن الى الاستعانة بشريف الذى كان قد أقصاه عن الحكم ثم طمع فى الحكم المطلق على أثر وصول الفرمان بتثبيته فى عرشه . وأحسبه هذه المرة كان يود أن تطول عزلته وأن تظل الحكومة عاملة والامن مستتباً وأن تجرى الاشياء فى نصابها فلا تزعجه العسكرية ولا غير العسكرية مرة أخرى . لكنه لم يلبث إلا قليلا حتى علم أن الباب العالى أرسل وفداً برياسة على نظامى باشا . ترى ما هى مهمة الوفد ؟ الخديو لا يعلم ، وفرنسا وانجلترا لا تعلمان ، والوزارة العثمانية نفسها لا تعلم . لقد أرسله أمير المؤمنين بارادة شاهانية ، فماذا عسى أن تكون هذه الارادة؟ ونزل الوفد مصر فى ١٠ اكتوبر سنة ١٨٨١ بعد ما احتجت انجلترا وفرنسا على تركيا لارسالها إياه من غير اتفاق معها ولا مجرد اخطار لها . وجاء الوفد واحتفل الخديو به وأقام بمصر سبعة عشر يوما وعاد ادراجه ، وكان كل ما فعل أن أكد للخديو ثقة المتبوع

الاعظم به وان أكد للجيش المصري في حديث دار بين نظامي باشا وطلبة عصمت بعسمم من الجند أن حكومة الباب العالي لا تلوم الجند على ما فعلوا وانها ترى مصر في طمأنينة وسكينة .

بإزاء تصرف الوفد شعر توفيق كأن الدسائس التي كانت تحاك له خيوطها على ضفاف البسفور بمعرفة حليم باشا تعاونه الاميرات قد آتت ثمراتها ، وانه لولا تأييد انكلترا وفرنسا إياه لكان معرضاً لمثل ماتعرض له أبوه من قبل . ومن يدرى؟ فقد يكون حليم باشا قبل ان تسترد تركيا في فرمان تولية ما شاءت ان تسترده من الحقوق المكسوبة لمصر . فليزدد توفيق اذن اعتماداً على فرنسا وعلى انكلترا ، وليخش في نفس الوقت تدخلهما ، وليضطرب لذلك بين مختلف العوامل ، وليترك وزارته تجاهد وحدها للخلاص من حرج الموقف

ودعت الوزارة لانتخاب مجلس شورى النواب كما تقرر بلائحته القانون النظامي لمجلس النواب ، وافتتحه توفيق بخطاب عرش ألقي في ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ ورد عليه سلطان باشا رئيس المجلس ، وعرضت الوزارة القانون النظامي فاختلف المجلس معها في أمر الميزانية . ذلك ان الحكومة كانت ترى احتراماً للاتفاقات التي تمت بين الحكومة المصرية والدول الأجنبية ان يكون الأمر الأخير في الميزانية للوزارة مع مراعاة ارادة النواب قدر المستطاع في حدود هذه الاتفاقات . أما النواب فكانوا يريدون ان يكون رأيهم الأخير أو يسار على القاعدة الدستورية من حل المجلس أو سقوط الوزارة . ولم يمكن التوفيق بين الرأيين ، فكان ذلك سبباً

فى استقالة وزارة شريف باشا بتاريخ ٤ فبراير سنة ١٨٨٢ وحلول وزارة محمود باشا سامى البارودى محلها مع تعيين عرابى باشا وزيراً للحربية فيها

وفى أثناء قيام الخلاف بين وزارة شريف باشا ومجلس شورى النواب أرسلت الحكومتان الفرنسية والانكليزية مذكرة مشتركة الى الخديو توفيق باشا تؤيدانه فيها فى الخديوية وفقاً للفرمانات وتعدان سكينة مصر مما يعنيهما لمصلحة رعاياهما وتعلنان استعدادهما لدفع ما يطرأ على الحكومة الخديوية من الاخطار . وكان منتظراً ان تحدث هذه المذكرة من الاثر ما يضعف تمرد المتمردين . على ان تركيا احتجت على الدولتين لتخطيهما إياها ومخاطبتهما الخديو مباشرة كما علم العرابيون ان انكلترا أبلغت فرنسا أنها برغم هذه المذكرة تعتبر نفسها حرة فى الخطة التى تتخذها تنفيذاً لمقاصدها . وقوى ذلك من ساعدهم وجعلهم أقل اكتراثاً للحوادث وتقديراً لنتائجها . والواقع ان فكرة الثورة التى بدأها الجيش كانت قد انتشرت فى أنحاء البلاد جميعا وان قمع تيار هذه الروح كان قد أصبح متعذراً . وبخاصة مع وجود رئيس للدولة ضعيف ضعف توفيق .

واستمر مجلس النواب ينعقد الى ٢٦ مارس سنة ١٨٨٢ حين صدر الامر بانفضاض دوره العادى

وفى أعقاب انفضاض المجلس نظر عرابى الى ما حوله موجسا خيفة مما يدبر خصومه له . ولم تك إلا أيام حتى صدرت أوامر الحكومة بالقبض على عشرات الجراكسة ومن بينهم عثمان باشا رفقى

بتهمة ائتمارهم به وبزملائه وبالنظام الذى أقاموه ومحاكمتهم أمام مجلس حربى والحكم عليهم بالنفى الى أقاصى السودان . وكان عرابى ومن معه مقتنعين بأن الخديو هو المحرض على هذه المؤامرة. وزادهم اقتناعا رفض الخديو التصديق على حكم المجلس الحربى . وعلى ذلك استمر الخلاف بين الخديو والوزارة . يصر الوزراء على تنفيذ حكم المجلس ويعترضه رئيس الدولة . وأدى ذلك الى تخوف فرنسا وانكلترا على الرعايا الاجانب فى مصر، فقرروا ارسال بوارج الى المياه المصرية للمحافظة على حياتهم ومصالحهم . واعلنت فرنسا وانجلترا جميعا حرصهما على تأييد الخديو فى مركزه. وفى ذلك اشارة الى ما كانتا تتوقعانه من وصول عرابى وأصحابه الى استصدار قرار من النواب بعزله .

ولما اشتد الخلاف بين الوزارة والخديو دعت الوزارة الهيئة النيابية للاجتماع وتوسط سلطان باشا رئيس المجلس وجماعة من كبار النواب معه يريدون الوصول الى حل لهذا الخلاف . وكان من الحلول التى قبلها الخديو أن يقال سامى البارودى من رياسة الوزارة وأن يحل محله مصطفى باشا فهمى . لكن مصطفى باشا ابى. وبينما المحادثات دائرة بين النواب والخديو والوزارة كانت البوارج الانكليزية والفرنسية قد وصلت الى المياه المصرية وأعقبتها الدولتان ببلاغ وجهه قنصلاهما فى ٢٥ مايو الى الخديو يطلبان فيه سقوط الوزارة بتمامها وخروج عرابى من القطر المصرى مع ضمان الدولتين رتبه ومرتباته ونياشينه واقامة على فهمى وعبد العال حلمى فى

الارياف واصدار الخديو بعد ذلك عفواً عاما عن جميع من كانت لهم يد فى المسألة .

وأبلغ الخديو وزراءه هذا الانذار، فرفضوه بحجة أن ليس للدول شأن فى مخابرة مصر الا عن طريق الاستانة . على أن الخديو أظهر رضاه عن الانذار فاستقالت الوزارة محتجة وقبل الخديو استقالتها ودعا شريف باشا لتشكيل وزارة جديدة . لكن شريف باشا رأى الموقف لايطاق فاعتذر كما اعتذر عمر باشا لطفى . وفى هذه الأثناء أوفد الباب العالى درويش باشا معتمداً سلطانياً لينظر فى الخلاف بين الخديو ووزرائه بل والعرابيين جميعاً ، فان هؤلاء كانوا قد انتهوا الى ضرورة خلع الخديو وتولية البرنس حليم مكانه . وكانوا يطمعون فى نجاح هذه السياسة لعلمهم أن تركيا تؤيدها .

وفى انتظار حل المشاكل وتعيين وزارة جديدة وطنية تفاقم الخطب واضطرب حبل الامن فاضطر الخديو الى أن يعين عرابى وحده ناظراً للحربية ليتولى أمر الامن فى البلاد .

ولم يشعر الخديو من جانب المعتمد السلطانى بما يدل على استعداد تركيا اذا اقتضت الحال للتدخل المسلح ولتأييده فى مركزه برغم العرابيين . لذلك قبل الموقف كما هو وعين وزارة اسماعيل راغب باشا على أن يظل عرابى وزيراً للحربية . وظل توفيق ووزراؤه فى العاصمة وظلت أساطيل الدول فى مياه الاسكندرية وظل الناس يتحدثون فيما يمكن أن تؤول اليه الامور فى زمن قريب . وكان أعجب المواقف يومئذ موقف تركيا . فقد اقترحت انكلترا وفرنسا أن

ينعقد بالاستانة مؤتمر دولى للنظر فى حالة مصر واقرارها على صورة من الصور . لكن تركيا رفضت رفضاً باتا بدعوى أن الحالة فى مصر عادية وان النظام العام لاخوف عليه . وفيما الحديث بين الدول فى أمر المؤتمر وانعقاده اذ ذاك وقعت فتنة الاسكندرية فى ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ .

وليس يسيراً معرفة الأسباب الحقيقية التى أدت الى هذه الفتنة . أهى كانت حركة فجائية نتيجة تكدس هذا الثغر بالسكان وتزايد الوافدين عليه بسبب الحال غير الطبيعية التى نشأت عن وجود البوارج فى مياهه ؟ أم هى كانت بتدبير سابق من عرابى وأنصاره كما يزعم بعض الكتاب الانكليز مؤيدين زعمهم بأن الحكومة تباطأت فى قمع الذين أثاروا الفتنة وبكثرة عدد قتلى الاجانب على قتلى المصريين زيادة محسوسة ؛ أم هى كانت على العكس من ذلك مدبرة من جانب الانكليز على ما ذهب اليه عرابى وأنصاره مؤيدين رأيهم بأن أمير الاسطول الانكليزى كان مأموراً بالمحافظة على أرواح الرعايا البريطانيين ومصالحهم على خلاف أمير الاسطول الفرنسى الذى كان مكلفا بالمظاهرة البحرية لتأييد سلطة الخديو . ومهما يكن من هذه الفروض فقد وقعت مذابح ١١ يونيو وحكومة الخديو بالقاهرة . فخف توفيق وعرابى والوزراء فى اليوم نفسه وعقدوا مجلساً عسكريا لتحقيق أسباب الفتنة وجعلوا على رأسه عمر باشا لطفى محافظ الاسكندرية الذى اتهمه الانكليز بالتهاون فى قمعها ، وبلغوا من اتهامه أن انسحب المحامى الانكليزى الذى حضر تحقيق المجلس العسكرى بأمر القنصلية البريطانية .

وبقى الخديو وحكومته بالاسكندرية يريدون اعادة الامن الى نصابه . وكان توفيق يومئـذ فى مركز لايحسد عليه : فهو لم يكن يأمن جانب تركيا ، وكان يعتقد اعتقاداً جازما أنها تعارضه وتؤيد المتمردين عليه رجاء الوصول يوما من الايام الى خلعه واقامة حليم باشا مكانه ، وهو لم يكن يأمن العرابيين لما كان يعتقده من بغضهم إياه واتفاقهم مع السياسة التركية فى التخلص منه ، وهو مع اعتماده على تأييد فرنسا وانـكلترا كان يخشى أن لايتخطى أمرهما التأييـد المعنوى فاذا فوجئا بالامر الواقع من عزله لم يقوما بعمل لتثبيته فى عرشه . ثم هو لم يكن يثق حتى بالجراكسة من وزرائه ، لانه شعر بالقوة المصرية تتغلب على كل شىء فى البلاد وتبتلعه .

وتجسم الشعور بهذه القوة القوميـة فى رأس عرابى وأعوانه حتى دفعهم الى تقوية حصون الاسكندرية استعداداً لدفع الغـارة البحرية عليها. ومع ان الدول كانت قد تخطت معارضة تركيا فى عقد مؤتمر الاستانة لحل المسألة المصرية وانعقد المؤتمر فى العاصمة التركية فعلا برئاسة لورد دفرين سفير انـكلترا لدى الباب العالى وكان طبيعياً أن يكف الجميع عن تعقيد المسائل فى مصر حتى يصدر المؤتمر قراره فان تحصين قلاع الاسكندرية استمر، كما ان الاميرال سيمور الانكليزى أبلغ الخديو بأنه مضطر اذا لم تقف التحصينات الى ضرب قلاع الاسكندرية بالمدافع. وعلى الرغم من احتجاج ممثلى الدول على بلاغ الاميرال ومن انكار طلبة عصمت الاستمرار فى التحصينات ومن أن تسوية المسألة كانت ممكنة لو أن فرنسا شاركت فى الضغط المعنوى على الحكومة المصرية كى تنتظر قرار مؤتمر الاستانة فان الاميرال سيمور

أصر على قراره وقررت وزارة فريسنيه انسحاب الاسطول الفرنسى الى بور سعيد.

ماذا يفعل توفيق ومقامه بسراى رأس التين يجعله معرضاً لقنابل مدافع البوارج؟ لقد طلب اليه المستر كالفن أن ينتقل الى بارجة أمير البحر الانكليزى لان غرض الاسطول الانكليزى تأييد ملكه. لكن توفيق كان يعلم أن التجاءه وهو أمير هذه البلاد التى تطلق النار عليها الى أساطيل مهاجميها يعرضه لعزل تنفرد انكلترا بالاعتراض عليه بينما تشترك فرنسا والدول الاخرى مع تركيا فى تأييده لما كان لفرنسا من ضلع ظاهر مع العرابيين ومع حليم باشا. لذلك رأى الاستسلام للمقادير وقال لمستر كلفن ما مؤداه

« انى لا أبرح مكانى ولو وقعت الواقعة وأطلقت المدافع على الاسكندرية ، فان لى من رعيتى قوما أمناء لم يخونونى بل خدمونى بأمانة وصداقة فلا يصح أن أتركهم أوان الشدة لأنجو بنفسى ، ولا يليق بى كذلك أن أترك البلاد فى وقت الحرب فان فى ذلك عاراً عظيما » واكتفى بالانتقال هو ودرويش باشا الى قصر الرمل بعيداً عن مرمى المدافع .

وفى صباح ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ أطلقت البوارج الانكليزية مدافعها على حصون الاسكندرية فجاوبت الحصون باطلاق مدافعها. على أن المواقعة لم تدم لاكثر من الساعة الحادية عشرة قبل الظهر إذ صمتت نيران الحصون ودك بعضها دكا وشعر العرابيون بأن ما توهموه من قوتهم على مقاومة البوارج الانكليزية لم يكن إلا وهما . على أن ذلك لم يفت فى عضدهم ولم يوهن من عزيمتهم

اذ اعتقدوا أنهم يستطيعون أن يعسكروا فى كفرالدوار ليعودوا بعد زمن الى مهاجمة الاسكندرية . وعلى ذلك قرر عرابى ومن معه الانسحاب من الثغر بعد أن أيقنوا من أن الخديو الذى رفض الالتجاء الى بوارج الانكليز قد سر لانتصارهم وأنه لذلك قد صار خصماً ظاهراً للثائرين عليهم . وفيما كانت المدينة تحترق بفعل الجماهير الثائرة والعساكر المقيمة مع عرابى عاد الخديوى من سراى الرمل حيث كان سجيناً تحت أمر رجال عرابى الى سراى رأس التين حيث استقبله الجند الانكليز على بابها وحيث استقبله الاميرال سيمور وعدد من رجاله داخلها.

وكان فى الوقت متسع ما يزال لاخماد نار الفتنة فى مصر لو أن تركيا لم تكن متأثرة بسياسة فرنسا حريصة على تأييد الثائرين. فقد طلب اليها لورد دفرين، بناء على تعليمات حكومته، أن تعلن أن عرابى عاص وتؤيد سلطة الخديوى وامدادها بالارسال قوة لقمع العصيان واعادة النظام. لكن تركيا أبت أن تخطو هذه الخطوة. وطلبت انكلترا الى فرنسا أن تشترك معها فى الدفاع عن قناة السويس ، فأعلن الساسة الفرنسيون أن قنال السويس بمأمن من أن يهدده مهدد. والواقع أن عرابى ومن معه لم يفكر أحد منهم فى تحصين بناحية القنال اعتماداً منهم على حيدته وعلى تأكيد المسيو دلسبس بأن أية قوة محاربة لن تستطيع خرق حياده . ورأت انكلترا بازاء ذلك كله أن الفرصة سانحة لان تخطو خطوة جديدة فى وادى النيل بعد خطوتها الاولى التى أتمها دزرائيلى فى سنة ١٨٧٥ بشترى أسهم القناة التى كانت مملوكة لاسماعيل فقررت التدخل المسلح منفردة . ولم تعبأ بحيدة القناة

بل ذهبت أساطيلها المقلة للجيش الذاهب الى مصر قاصدة بورسعيد والاسماعيلية فاحتلتهما من غير أية مقاومة ولا أى احتجاج . وعسكرت القوة الانكليزية يوم ٢٢ أغسطس فى الاسماعيلية . وفى هذا الظرف وبعد فوات الفرصة أعلنت تركيا عصيان عرابى وأيدت توفيقاً فى عرشه . لكن توفيقاً كان قد انضم الى السياسة الانكليزية وعزل عرابى من نظارة الحربية واعتبره ثائراً . وقامت فى مصر إذ ذاك حكومتان : حكومة توفيق يؤيدها فريق من المصريين وتؤيدها انكلترا ، وحكومة الثورة تخضع لها البلاد كلها. لكن هذه الحكومة الثانية لم يطل أمرها. فقد انهزم عرابى وجنده فى موقعة التل الكبير يوم ١٢ سبتمبر ودخل الانكليز القاهرة فى الخامس عشر من هذا الشهر نفسه .

وعاد توفيق الى عاصمة ملكه فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ يصحبه الدوق أوف كنوت والجنرال ولسلى والسير ادورد مالت . وكان توفيق يظن أن قضاء انكلترا على الثورة باسم تأييد مركزه معناه عوده للحكم وتولى أمور البلاد على ما تجيزه الفرمانات . ولعله لم يخطر بباله أن انتصار انكلترا فى التل الكبير ودخول الجيوش الانكليزية الى عاصمة ملكه قد قدر له أن يكون معناه القضاء على سلطته ، بنقلها من يده الى يد هؤلاء الذين ثبتوه فى عرشه . ولعله لم يخطر بباله أن عوده الى مقر سلطانه محاطاً بالامير وبالقائد وبقنصل انكلترا سينتهى لاريب الى أن تكون الحوادث العرابية آخر ما خبأ القدر لتوفيق من نشاط . ولئن كان عرابى

سيحاكم وسينفى الى سيلان فان ولى عرش مصر لن يكون أعظم من عرابى سلطانا برغم مقامه فى قصوره وسط عاصمة ملكه .

فبرغم تبليغ اللورددوفرين الباب العالى عقب موقعة التل الكبير أن الحكومة البريطانية تفكر فى سحب جنودها من مصر مادام النظام قد استتب فيها فان حكومة جلالة الملكة رأت عقب انتصارها على الثوار أن يكون مصير الثوار بيدها لا بيد حكومة الخديو. أليست هى التى تغلبت عليهم وقهرتهم ؟ واذا كان الخديو وأنصاره يرون طبيعياً أن يقضى على عرابى وكل من معه بالاعدام جزاء فشلهم فى ثورتهم ، فان انكلترا تنظر للامر نظرة أخرى. ولذلك أبلغ القنصل الانكليزى الخديو أن لا يتصرف فى أمر الثائرين قبل حضور اللورد دوفرين الى مصر ، وكانت حكومته قد انتدبته «لينصح الى حكومة الخديو بالوسائل الواجب اتباعها لاعادة سلطة سموه » . وكان أول ما صنعه لورد دوفرين أن طلب الافراج عن المئات الذين اكتظت بهم السجون باعتبارهم ثائرين عدا خمسة هم عرابى وطلبه ومحمود سامى ومحمود فهمى وعلى فهمى . ومع أن القوانين التركية للمجالس العسكرية لم تكن تبيح حضور محام عن المتهمين فقد جاء محاميان انكليزيان هما مستر نابير ومستر برودلى . وبعد صدور الحكم بالاعدام استبدله الخديو عملا بنصيحة قنصل انكلترا — ونصيحته عند توفيق أمر محترم — بالنفى المؤبد

وكان لا بد لانسحاب الجنود الانكليزية من أن تستريح انكلترا الى انتظام الجيش المصرى انتظاما تطمئن معه الى عدم تهديد الامن مرة أخرى ، وأن تطمئن الى شىء آخر هو أن لا تتعرض مصر

لتغزو دولة أخرى إياها غزواً يعرض قناة السويس الى الخطر . وغيرة مرة أعلنت انكلترا استعدادها للجلاء عن مصر وسحب جنودها منها متى اطمأنت الى هذه الغايات . وهذه ثمان وأربعون سنة مضت منذ الاحتلال ولما تهتد الحكومة البريطانية — على الاقل — الى مايطمئنها على أن لاتغزو مصر دولة أخرى أو أن تتعرض قناة السويس الدولية للخطر .

على أنها رأت فى ذلك التاريخ وبعد مشورة اللورد دفرين أن تنظيم الحكم فى البلاد على قاعدة العدل هو أقرب الوسائل لتحقيق الاغراض التى تريد أن تتحقق لتجلو عن وادى النيل . فامرت ، استغفر الله ، فنصحت أن يلغى توفيق قانون مجلس النواب ويستبدل به قانون مجلس الشورى والجمعية العموميه وأخذت بيدها مقاليد مالية البلاد ونحت فرنسا قدر المستطاع عنها ودعت الى عقد مؤتمر لاستبدال نظام التصفية بنظام آخر ، وجعلت تتغلغل فى شؤون الحكم شيئاً فشيئاً حتى وضعت يدها على كل شىء وعلى توفيق من بين ماوضعت يدها عليه .

وسر توفيق بهذه الحال الجديدة واطمأن أشد الاطمئنان لها . بل لقد بلغ من اخلاصه لانكلترا أن كان لايكتم على عمالها سراً من أسرار وزارته . روى أحد الذين حضروا ذلك العصر أن رياض باشا اتفق مع زملائه مرة على أن يعقدوا مجلس وزارة لايحضره المراقب الانكليزى كلما أرادوا النظر فى شؤون تمس مصر وحدها . وأبلغ رئيس الوزارة توفيقا هذا الخبر. ثم لم يكن باكثر

من دهشة رياض حين نبهه قنصل انكلترا العام الى أنه كان يعتقد فيه الصراحة ، وروى له ما أخبر هو به الخديو من قبل .

ولم يكن يدور بخاطر توفيق شيء من أمر جلاء الجنود البريطانية عن مصر برغم الحاح السياسة الفرنسية فيه بعد اذ رأت نفوذها فى وادى النيل يتقلص . وكيف تريد توفيقاً أن يؤيد السياسة الفرنسية وقد كانت منضمة للعرابيين ضده فى ظروف كثيرة ، وكانت تعطف على فكرة تعيين حليم باشا فى منصب الخديوية ؟ : واذن فليصنع الانكليز لتنظيم أمر البلاد مايشاؤون . ليقرروا ثلاثة ملايين من الجنيهات تعويضا لمن أصابهم ضرر من جراء فتنة الاسكندرية ، وليوطدوا نظام الحكم الذى يرون توطيده فى مصر ، وليوفدوا الى السودان مايشاؤون من الجيوش لقمع ثورة المهدى، وليقرروا الانسحاب من السودان واخلاءه فيأبى رئيس وزارته شريف باشا ويقبل نوبار الوزارة والانسحاب — ليصنعوا بمصر ماشاؤا وليعينوا من الوزراء من شاؤا فلن ينسى توفيق لهم فضل تثبيته على عرشه ولن يكون لهم الا أخلص المخلصين .

ولعل ما كتبه لورد كرومر عن توفيق وخلقه خير مايوضح لنا مبلغ اطمئنان توفيق للحالة الجديدة ، حالة الاحتلال الانكليزى قال جنابه مامؤداه :

«ماأحسب خير أصدقاء توفيق يذهبون الى أنه كان رجلا عظيما أو خديويا مثلا . فالواقع انه لم يكن من العظمة فى شيء . ولقد كان مكتفيا بزوج واحدة فضرب بذلك مثلا صالحا لأهل بلاده . وكان أبا صالحاً نشيطا معنيا بحسن تربية أولاده . وقد اشتهر

بالتقوى ولكنه كان خلواً من أية ظاهرة التعصب مما يصطبغ به أتقياء «المسلمين» . ووصلت تقواه بينه وبين رعاياه المسلمين وكانت لذلك عاملا سياسيا له بعض الخطر . وكان بالقياس الى من حوله مستقيما وفيا . وكان كأكثر أهل بلاده يخاف المسؤولية ويجتهد ما استطاع ليلقى كل مايقدر على القائه منها على اكتاف الآخرين . فكان يشكو من كثرة عدد الاوربيين فى الحكومة المصرية فاذا قصد اليه اوربى يلتمس منصبا أجابه بأنه يكون سعيداً لاجابة الطلب ولكن سلطة بريطانية تمنعه من السير بما يمليه عليه قلبه وكان عديم النشاط يعوزه الابتكار، ولكنه كان اذا اضطر الى أن يقر قرارا أبدى فى غير قليل من الاحيان مايدل على الكرامة وحسن التقدير وبعد النظر . وكان طيب القلب حتى يكاد فى بعض الاحايين يبدى من الاعتراف بالجميل عما قدم اليه من خدمة ما يندر أن يكون من صفات حاكم شرقى . وكان يظهر أعمق المقت لكل أنواع التحكم والارهاق والقسوة . ولم يكن أبداً مسئولا شخصيا عن عمل من هذه الاعمال ، وان كان تباطؤه واهماله قد أباح ارتكاب كثير من الظلامات باسمه . ولم يكن متعلماً تعلما عالياً . وقل ان قرأ كتابا . ولكنه كان يطلع على الصحف ويتحدث مع رجال من كل طراز ومكانة . وكان متوسطاً فى ادراك الحوادث التى تلقى اليه وفى تتبع المناقشة التى تحدث امامه . أما من حيث حدة الذكاء فربما كان فوق متوسط أهل بلاده

« واذا لم يكن عظيما فى الرجال فهو لم يكن خديويا مملا . فلو أنه كان رجلا قوى الارادة سامى الخلق حاد الذكاء لوضع نفسه على رأس

حركة الاصلاح في مصر، ولظهرت سلطته، ولما توقد غيرة من الانكليز الذين كانوا موظفين في حكومته على أنه مع ذلك كانت له العصبية السلمية أنه لم يكن ملوثاً برذائل الحاكم الشرقي . وهو اذا لم يكن قد قام بالعمل لشيء في حركة اصلاح فكفاه انه كان مغتبطا لقيام آخرين بدله بهذه الحركة وهو اذا لم يكن قد ساق غيره في سبيل الخير فكفاه انه اتبع الغير في هذا السبيل واشهد اني اقتنعت برأيه في أحيان اكثر من التي اقنعته فيها برأيي عند وجود خلاف بيننا»

وهذا الحكم يبين للقارىء السبب في انا لم نقف بعد حوادث الثورة العرابية عند شيء من حياة توفيق، فقد كانت حياة عادية لا تتخللها الحوادث لانه لم يكن له في الحوادث يد ولا تصرف، وبقي كذلك الى ان توفي في سنة ١٨٩٢ غير محمود ولا مذموم

***

والآن نقبل على توفيق نتبعه في الحوادث الجسام التي حدثت أول أيام حكمه والى أدت بمصر الى موقفها الحاضر هذا ما لا يصعب الجواب عليه فعلى توفيق التبعة اذا كان على انسان تبعة ضعف نفسه واضطرابه ... ولا ... ان نغفلها ... أكبر التبعة على الحوادث اي اخاطب توفيق وكان له عمه لا علك محورها عما يتفق ومصلحة بلده ... التبعة على تركيا، وعلى فرنسا، وعلى انكلترا، و... عرابي وماذا يستطيع ضعيف قصير النظر كتوفيق أن يصنع ... هذه القوى جميعاً الا أن يترك نفسه معادية من الحوادث ... بأسكه وبلاده الى ما وصلا اليه

محمد قدرى باشا

(نقلت هذه الصورة عن مجلة المقتطف الغراء)

من الكتب ما ينبه ذكره ويعظم أثره بمقدار يخفى على ذكر المؤلف حتى ليكاد يعفى خبره . من هذا الطراز كتب ثلاثة ما يغيب اسم واحد منها عن ذاكرة محام ولا قاض ولا طالب حقوق ولا رجل من رجال الشرع الاسلامى . هذه الكتب الثلاثة هى: مرشد الحيران الى معرفة أحوال الانسان فى المعاملات الشرعية على مذهب الامام الأعظم أبى حنيفة النعمان ، وكتاب الاحكام الشرعية فى الاحوال الشخصية ، وكتاب قانون العدل والانصاف للقضاء فى مشكلات الاوقاف . بل أن معرفة هذه الكتب لا تقف عند رجال القانون والشرع ، بل تمتد كذلك الى عدد عظيم من سواد الناس . فقد نظمت ثلاثتها أحكام الشريعة على مذهب أبى حنيفة فى تقنين ذى مواد يفى بحاجة كل من يهمه الوقوف على هذه الاحكام إذ يجدها مبوبة مرتبة مدققا فى اختيار ألفاظها حتى تمثى مدلولاتها على صورة من التحديد الدقيق الذى يقضى به فن الفقه القانونى . وهذه الكتب الثلاثة هى الاولى والاخيرة فى بابها ولذلك نبه ذكرها وعظم أثرها وتداول الناس ما فيها بالدراسة ، فاذا سألت أكثرهم عن واضعها قيل لك هو قدرى باشا . لكن أكثر الناس لايعلمون من أمر قدرى باشا إلا اسمه ، والا أنه واضع هذه الكتب الثلاثة ، وقد يكون ذلك كافياً لتاريخه . فهذه الكتب الثلاثة هى فى الحق أثر كاف لتخليد واضعه . واذا كان نابليون قد جعل من قانونه

المدنى عنوان مجده واعتبر ما الى جانب ذلك من مجد النصر والظفر وحكمه العالم ثانويا ، فكتب قدرى باشا فى تقنين أحكام الشرع فى المعاملات والاوقاف والأحوال الشخصية عنوان مجد باق على الزمان .

لكن ، من كان قدرى باشا ؟ وماذا كان تاريخ حياته ؟ لابد انه كان فقيهاً عظيما من علماء الازهر معهد دراسة الشريعة الاسلامية وموضع العناية بها . فالرجل الفذ الذى يقنن شريعة من الشرائع يجب أن يكون من أساطين رجال هذه الشريعة . فليس طبيعياً أن يخرج هذا المعهد الالوف من العلماء والفقهاء ثم يكون من يقنن الشرع غيرهم ! غير ان الواقع أن قدرى باشا لم يكن منهم ولم ينخرط فى سلكهم ، ولم ينضم الى زمرتهم . وكتبه الفقهية هذه ليست كل تواليفه وان كانت أبقاها وأخلدها . فقد كانت تربيته ودراسته مدنية بحتة . وكانت الوظائف التى تقلدها تبعد عن أن تمس الازهر الشريف أى مساس

وقد ولد بملوى حوالى سنة ١٨٢١ من أب أناضولى هو قدرى أغا الذى كان من أعيان بلد وزير كبرلى . وحين جاء الى مصر أقطعه والى مصر بعض العزب بمركز ملوى على طريقة الالتزام التى كانت معروفة يومئذ فتزوج من مصرية أولدها ولده محمداً وأدخله مدرسة صغيرة بملوى ، حتى اذا أتم الدراسة بها بعث به الى القاهرة فى مدرسة الالسن حيث أتم بها دراسته وعين فيها مترجما مساعداً

وكانت مدرسة الألسن هى المعهد الذى أسس لبث الثقافة الحديثة فى مصر . فقد أدرك أهل ذلك العصر ادراكا تاما ان

المدنية الغربية قوية التيار جارفته وان الحضــارة الاسلامية التى يمثلها الازهر أصبحت غير قادرة على الوقوف فى وجه هذا التيار ، كما انها كانت قد جمدت على تعاليم لا تقبل أن تطعم بالتعاليم الحديثة فلا يمكن معالجــة التوفيق بين المذهبين . وكانت اللغات — أو الالسن على ما كانوا يسمونها يومئذ — هى موضع عناية مدرسة الالسن الـكبرى . فـكانت تدرس فيها اللغات التركية والفارسية والفرنسية والايطالية والانكليزية . وكانت العناية فيها باللغة العربية عناية فائقة يدل عليها ما وضعه الذين تخرجوا منها وما ترجموه من كتب ومؤلفات كثيرة . قال قدرى باشا صاحب هــذه الترجمة فى كتابه (معلومات جغرافية) الذى نشر فى سنة ١٨٦٩ : « وقد ترجم تلاميذ هذه المدرسة أكثر من ألفى مجلد » وأتى بأسماء كثير ممن ترجموا والفنون التى ترجموا كتبها الغربية . وكان القصــد من تعليم هذه (الالسن) والقيام من بعد ذلك بترجمة الـكتب فى مختلف الفنون نقل الحضارة الغالبة الى مصر ليتمكن أهلها من السـير سيرة أهل أوربا . ولعل أكثر ما ترجم انما ترجم عن اللغة الفرنسية. فقــد تأثرت مصر بالثورة الفرنسية الـكبرى ، كما تأثرت بها دول أوربا المختلفة . وكان من أثر ذلك أن قام المغفور له محمد على باشـا فيها بحركة تشبه الحركة التى قام بهـا نابليون فى فرنسـا ، وكان مرجواً أن تؤتى خير الثمرات لولا أن تألبت أوربا على مصر وحرمتها يومئذ ثمرات الظفر ، كما وقفت بعد ذلك عائقا فى سبيل تقدمها تقدما يرفعها الى الصف الذى يجب أن تشغله بين أرقى أمم الارض وأقواها

عين قدرى باشا اذن مترجما مساعداً بمدرسة الالسن على أثر تمام دراسته بها . وكان له ميل خاص لدراسة علوم الفقه ولمقارنة الشريعة الاسلامية بالقوانين الاوربية . فكان لذلك يحضر بعض دروس الفقه بالازهر وكان مكبا على مطالعة كتب الشرع منذ حداثة سنه . لكن آثاره فى ذلك لم تظهر الا بعد سنين طويلة . وبقيت الترجمة عمله الرسمى الذى كان يتقنه أيما اتقان . ولذلك نقل من مدرسة الالسن الى نظارة المالية مترجما لامساعد مترجم .

ولما احتل ابراهيم باشا الشام عين شريف باشا واليا لها . فأخذ هذا الاخير قدرى باشا (وكان مايزال قدرى أفندى) سكرتيراً له ، ثم سافرا الى الاستانة وعادا بعد ذلك الى مصر وظلا متلازمين حتى عين قدرى باشا أستاذاً للغتين العربية والتركية فى مدرسه الامير مصطفى فاضل باشا . ثم اختاره الخديو مربياً لولى العهد . ثم عين بالمعية فالمعارف فمجلس التجار بالاسكندريه فرئيساً لقلم ترجمة الخارجية .

وأثناء اشتغاله بالتدريس وضع عدة كتب فى مواضيع مختلفة . لكن أكثرها كان فى اللغة العربية وأجروميتها ومفرداتها ، وكان معاجم عربية ـ فرنسية . من ذلك الدر النفيس فى أفنى العرب والفرنسيس ويقع فى سبعمائة صفحة ، والدر المنتخب من لغات الفرنسيس والعثمانيين والعرب ، وأجرومية فى اللغة العربية ، ومختصر الاجرومية الفرنساوية مترجمة الى العربية ، والمترادفات باللغة العربية والفرنساوية . هذا عدا بعض كتب فى التاريخ والجغرافيا ككتاب (معلومات

جغرافية مصحوبة ببعض نبذ تاريخيه لأهم مدن مصر جمعت وترجمت بالعربيـة لفائدة الشبيبة المصرية) . وهذا الـكتاب تم طبعه فى سنة ١٨٦٩

يدل كثير من هذه الـكتب على مبلغ تضلع قدرى باشا فى اللغتين العربية والفرنسية وعلى مقدرته الفائقة فى الترجمة . لذلك كان طبيعياً أن يدعى للاشتراك فى التمهيد للعمل التشريعى العظيم الذى كانت الحـكومة المصرية تفكر فيه والذى كان مقدمة لانتشار المحاكم المختلطة والمحاكم الاهلية . فقد كان القضاء المصري فى ذلك العهد منوطاً بالمجالس الملغاة التى كانت تحكم بالعرف وكانت تجمع من الرجال من قلت درايتهم بقواعد العدالة . واذ كانت مبادىء الثورة الفرنسيه قد تسربت الى مصر من طريق الحملة الفرنسية فى سـنة ١٧٩٨ ومن طريق الشـبان المصريين الذين أوفدوا الى فرنسا ثم عادوا الى مصر ، فقـد اتجهت الفكرة الى تعريب القوانين الفرنسية التى وضعت أيام نابليون ، وعهدت الحـكومة الى جماعة من أفاضـل المترجمين المصريين بهذه المهمة . فعرب القانون المدنى الفرنسى رفاعة بك رافع وعبـد الله بك رئيس قلم الترجمة واحمد افنـدى حلمى وعبد السلام افندى احمد . أما قانون المرافعات فعربه ابو السعود افندى وحسن افندى فهمى أحد مترجمى وزارة الخارجية ، وعرب قدرى باشا قانون العقوبات ، وعرب صالح مجدى بك قانون تحقيق الجنايات . وجمعت هذه القوانين كلها وطبعت بالمطبعة الأميرية فى سنة ١٢٨٣ هـ .

واذ كان ميـل قدرى باشا للفقه والتشريع يرجع الى أيام

الدراسة ، على ما قدمنا ، فقد صادف ذلك العمل هذا الميل ودفع بصاحبه الى التفكير في تقنين أحكام الشريعة الاسلامية . وزاده إمعاناً فى هذا التفكير أن عهد اليه بالاشتراك فى ترجمة قوانين المحاكم المختلطة الى اللغة العربية مع اللجنة التى أنشئت فى وزارة الحقانية للقيام بهذا العمل تمهيداً لوضع تشريع جديد للمحاكم الاهلية التى أزمع انشاؤها من يومئذ . ولما كان التشريع المصريين يقتضى التوفيق بين أحكام القانون المختلط الجديد الذى أخذ عن القانون الفرنسى وبين أحكام الشريعة الاسلامية التى كان عليها القضاء الى يومئذ ، فقد اشتغل قدرى باشا بهذه المقارنات ، فوضع كتابا لم ينشر بعد وما تزال نسخته المخطوطه فى دار الكتب المصرية عن (تطبيق ماوجد فى القانون المدنى — الفرنسى — موافقاً لمذهب أبى حنيفة). وجاء فى مقدمته أنه (بيان المسائل الشرعية التى وجدت فى القانون المدنى مناسبة وموافقه لمذهب الامام الاعظم أبى حنيفة النعمان)

هذه الترجمة لقانون المقومات الفرنسى ولقوانين المحاكم المختلطه وهذه البحوث المتصلة فى المقارنات بين أحكام الشرع والقانون المدنى الفرنسى مضافة الى ميله الاصيل ، جعل من قدرى باشا فقيها فى القانون . ولقد نقل من رياسة قلم ترجمة الخارجية مستشاراً بمحكمة الاستئناف المختلطة ، وظل فى منصبه هذا الى أن عين وزيراً للحقانية فى أول عهد المغفور له محمد توفيق باشا ، ثم استقال مع الوزارة وعاد بعد ذلك وزيراً للمعارف ، ثم انتقل وزيراً للحقانية من جديد . وعمل فى منصبه هذا على وضع القوانين للمحاكم الاهلية التى أريد انشاؤها ، واشترك بنفسه فى وضع القانون المدنى وقانون تحقيق

الجنايات والقانون التجارى . وفيما كان لا يزال ناظراً للحقانيـة صدرت لائحة ترتيب المحاكم الاهلية ، ثم أحيل الى المعاش، وصدرت القوانين التى اشتغل فى وضعها أيام كان نخرى باشا ناظراً للحقانية .

كان طبيعياً إذاً أن ينصرف قدرى باشا فى الشطر التـالى من حياته عن الاشتغال بما شغل به فى الشطر الاول ـ من ترجمة ونحو وصرف ـ الى العمل فى القانون والتشريع . وكان قدرى باشا من طراز الذين يتوفرون بكل قوتهم على العمل ولا يملونه . ولذلك وجه كل همه الى تقنين مذهب ابى حنيفة بوضع الـكتب الثـلاثة التى ما يزال اسمه مقروناً بها : مرشد الحيران فى المعاملات ، والأحكام الشرعيـة فى الاحوال الشخصية ، وقانون العـدل والانصاف فى القضاء على مشكلات الاوقاف .وقد ظلت هذه الـكتب كلها مخطوطة الى حين وفاته فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٨٦ ولم تطبع الا بعد الوفاة بسنوات طويلة . وهى مع ذلك التى خلدت ذكره ومازال سبب مجده ، هى هذا الجهد العظيم الذى لم يضطلع به من رجال الشرع الاسلامى أحد فاضطلع هو به وأداه على خير وجوهه . واقتران اسمه بها دليل على انها آثر خالد حقاً .

فلقـد كان فى أعماله الأخرى مايكفى ليجعل منه واحداً من رجالات مصر وفى مقدمتهم . كان يكفى اقتران اسمه بلائحة ترتيب المحاكم الاهلية وصدورها . وكان يكفى أنه تقلد الوزارة ثلاث مرات فى حياته. وكانت تكفى كتبه الاخرى . لـكن مناصب الحـكومة واقتران الذكر بقانون من القوانين أو عمل عام ناب فيـه صاحب الذكر عن الحـكومة لايخـلد اسم صاحب المنصب الا على أنه اسم

لأكثر ، اسم من هذه الاسماء التى قد تصل الى المناصب بالرياء أو الخديعة أو غير هذين من الاسباب الكثيرة الوضيعة التى يعتبرها بعض الناس حلية لهم وسلما يرتقون به درجات الحياة ، اسم مكون من حروف هجائية لا من أعمال جليلة ، اسم جف على نقائص الحياة فلاشيها الموت ولا نصيب له من خير يبقى على الحياة أثره . فأما هذه الكتب الثلاثة التى لم تظهر الا بعد موت مصنفها فقد أعادت اسمه الى الحياة متألقا شديد الاشراق سقطت من حوله حياة المادة وضعفها وبقيت له حياة الروح المتصلة بالكون من أزله الى أبده.

ويقول الذين عرفوا قدرى باشا أيام حياته انه مع إكبابه على العمل أشد الاكباب لم يكن من المتجهمين للحياة العابسين فى وجهها ، بل كان ظريفا غاية الظرف ، وكان يتقن الضرب على العود ، وكان لا يأبى ان يجلس من اخوانه خريجى مدرسة الالسن فى حفلة طرب يسمعهم من أنغام عوده ما يهون على النفس أعباء العمل . وانك لتجد أولئك الذين وهبتهم الطبيعة من قدرتها ما يجعلهم قوة عاملة ذات أثر خالد فى العالم أحرص الناس على أن ينالوا من جوانب الطبيعة الباسمة حظا يعينهم على أداء الواجب العظيم الذى فرض الوجود عليهم أداءه ، والذى يقتضيهم من الجهد ما ينوءون به لولا هذا الحظ القليل . وما كان لأحد أن يأخذهم بذلك ، وهو ، أيا كان لونه ، ليس الا رياضة لنفوسهم وأعصابهم أن يبهظها الجهد أو يأتى عليها الملال . وإذا أبهظ الجهد قوى الافذاذ الذين يقيمون العالم وحضارته فقد آن للملايين الذين يعيشون فى كنف مواهب هؤلاء ويعمون بعملهم أن تتحطم سعادتهم وأن تهدم حضارتهم .

وكان من قسوة القدر على قدرى باشا أن كف بصره وأن انطفأ نور عينيه، وكانتا قبل ذلك دوائى جمال وحدة وقد سافر الى النمسا أملا فى معالجة نفسه من هذا المرض، ولم يمنعه عدم نجاحه فى هذا من متابعة عمله الذى أخرج للناس فى نفس الفقه الشرعى كتبه الثلاثة

وتوفى، فأحدثت وفاته فراغا فى عالم النهضة القومية ولكن هذه النهضة كانت حين وفاته فى منحدر أدى بها الى وقوف تيار النشاط العظيم الذى قام به هو وزملاؤه فمن قبل سنة ١٨٨٦ كانت مصر قد أصيبت فى مطامعها فى الحوية لصر بة لا تقل قسوة عما أصيبت به على أثر انتصارات محمد على باشا على تركيا وكانت أوربا هى صاحبة الضربة الاولى وصاحبة الضربة الثانية

ولن تزال كتب قدرى باشا الثلاثة عنوان مجد لا تقل عظمة عن قانون نابليون ولئن نسى الناس من حياة قدرى باشا كل شىء فلن ينسوا هذه الكتب الثلاثة وهى كافية لدمغ مجد رجال لا مجد رجل واحد

بطرس باشا غالى

لعلك إن طلبت مثلا أعلى بين بلاد العالم لشعب وديع هادىء لاترى خيراً من مصر محققة لهذا المثل . ثم لعلك ان طلبت مثلا أعلى لشعب طموح لاتفتأ أحشاؤه تضطرب بأسباب الثورة على الحاضر تطلعاً الى الكمال والى العظمة والمجد ، لاترى خيراً من شعب مصر محققا لهذا المثل . فقل أن عرفت مصر وسائل العنف فى السعى الى أغراضها . ولم يقع أن ذلت مصر واستكانت ويئست من تحقيق هذه الاغراض . ولهذا الظاهر من التناقض فى صورة الحياة المصرية أثر كبير فى قدر رجال مصر والآخذين بها لتحقيق مطامعها . فهى أبداً فى نضال مع أمم غيرها تريد قهرها واذلالها . وهى أبدا لاتذل لقاهر وان كانت ظروفها وكان تاريخها قد ألجأها الى ستر ثورتها الدائمه تحت ظاهر من الهدوء والسكينة . ولذلك كان حتما بحكم هذه الظروف أن ينشأ فيها الرجل المحرك للعواطف يستنهضها وللهمم يحفزها ، ولنشاط الجماهير يدفعه الى الغاية السامية التى تطمع مصر بحق فيها ، وأن ينشأ الى جانب هذا الرجل رجل آخر هو السياسى الذى يعمل لتلافى الاصطدام بين اندفاعات الشعب وبين القوى الغالبة فى مصر اصطداما عجز الكل حتى اليوم عن تقدير نتائجه : أهو ينتهى الى تحطيم قوة الغالبين وقيام مصر الى جانبهم قوية اليد كما أنها قوية النفس ، أم هو ينتهى الى تحطيم أمل النفس المصريه فى بلوغ المكانه التى تطمع فيها ؟ وإذا تحطم أمل أمة فترت أجيالا بعد أجيال

عن بعثه واستعداده، حتى يكون ظرف جديد يعين على هـذا البعث ويدفع الى نفس الأمة الأمل حارا قويا ينبض به قلبها ثم يندفق ثورة قوية تخلع النير وتحطم القيود .

وكان هذان الرجلان ، رجل الدعوة الى المثل الأعلى ورجل السياسة والسلم ، خصمين فى أكثر الظروف. وكانت الجماهير بطبيعتها نصيرة أبدا للمثل الأعلى لأنه غذاؤها فى الحياة بل هو حياتها بالذات. أما السياسى الذى يزن القوى ويفاضلها ويعمل للوصول الى خير ما يمكن أن تصل اليه بلاده فالحوادث اللاحقة هى التى تحكم عليه أوله. ولقد كان بطرس باشا غالى سياسيا، وكان من أكثر المصريين اتصالا بحوادث عصره من ناحيتها السياسية . فلنجعل للحوادث وحدها الحكم عليه ، ولتكن كلمة التاريخ كلمة حق وإنصاف .

***

ولد بطرس غالى بالقاهرة فى ١٢ مايو سنة ١٨٤٦ وتلقى دراسته الاولى فى مدرسة حارة السقايين التى أنشأها الانبا كيرلس الرابع الملقب عند الاقباط بأبى الاصلاح . وبعد ثمانى سنوات أمضاها فى هذه المدرسة انتقل الى مدرسة مصطفى فاضل باشا، وكان له من الصلة بها أن والده غالى بك نيروز كان يشتغل فى دائرة مصطفى فاضل فلما تخرج منها اشتغل مدرساً بمدرسة حارة السقايين وظل مع ذلك يتلقى علوم الترجمة فى مدرسة الترجمة التى أنشأها المرحوم رفاعة باشا

وكان فى أثناء دراسته مثلا للذكاء ولقوة الذاكرة المنقطعة النظير : كان يكفيه أن يقرأ ما يدرس له مرتين أو ثلاث مرات ليستظهره استظهارا تاما . ويسرت له قوة ذاكرته العلم باللغات

المختلفة . فقد أتقن العربية والفرنسية والتركية والفارسية . وهاتان اللغتان الاخيرتان أتقنهما على أحد تجار خان الخليلى ، اذ كان يتلقى عليه مقابل دفع (شبرقته) له . ثم انه تعلم اللغة القبطية بعد الثلاثين من سنه لمناسبة تدل ، الى جانب قوة الذاكرة ، على قوة فى الارادة امتاز بها . ذلك انه سافر الى انكلترا فقابله أحد العلماء العارفين باللغة القبطية . ولما علم انه قبطى كلمه بها فلم يجبه ، ولكنه لم يلبث بعد ان عاد الى مصر أن أكب على دراستها . فلم تمض ستة أشهر حتى كتب لصاحبه العالم الانكليزى خطابا بها .

وأعانه فى الحياة الى جانب ذكائه وقوة ذاكرته ومضاء ارادته صحة متينة كان يدل عليها طول قامته وعضله المفتول ، كما كان بريق عينيه بريقاً عجيباً يدل على ذكائه وحياته . لذلك لم يكد يتخطى أوليات الشباب حتى عرفه أولو الامر يومئذ وعهدوا إليه بأعمال ذات خطر ومسؤولية . فقد دخل فى مسابقة حين كان مدرسا بمدرسة حارة السقايين انتقل بها الى وظيفة كاتب بمجلس تجار الاسكندرية الذى حلت المحكمة المختلطة بعد ذلك محله . وجعل يرتقى من وظيفته هذه حتى صار رئيس كتاب المجلس الذى حكم سنة ١٨٧٣ فى قضية ضد مصلحة أحد المحسوبين على اسماعيل باشا المفتش . واذ كان مجلس التجار تابعاً لنظارة الداخلية ، فقد أوصل المفتش الامر الى ناظرها شريف باشا وأبلغه أن بطرس غالى كان صاحب اليد فى اصدار ذلك الحكم الجائر . فدعا الناظر بطرس اليه فأعجبته مناقشته كما أعجب بمعرفته اللغات ، ولذلك نقله من عمله وعينه رئيساً لكتاب نظارة الحقانية التى كلف شريف بانشائها استعدادا لتطبيق نظام الاصلاح القضائى الجديد

وكانت سنة ١٨٧٤ سنة نشاط كبير فى الحقانية بسبب التحضير لانشاء المحاكم المختلطة . وكان المغفور له محمد قدرى باشا مشتغلا بترجمة قوانين هذه المحاكم الى اللغة العربية . فانضم اليه بطرس وعنى واياه بتعريب التشريع الذى ما يزال أكثره ساريا فى مصر الى الوقت الحاضر .

وأتاح له الاشتغال فى التحضير للمحاكم المختلطة التعرف الى رئيس النظار نوبار باشا ، فكان اتصاله بهذا أثر كبير فى تكوينه السياسى . ومافتىء هذا الاتصال بينهما وثيقاً مستمراً داعيا الى ثقة نوبار بباشكاتب الحقانية ، حتى كان هو أول من اختاره ليكون ناظراً للخارجية فى وزارته التى ألفها سنة ١٨٩٥ بعد أن اختاره رياض باشا قبل ذلك ومنذ سنة ١٨٩٣ ليكون ناظراً للمالية .

ويرجع اختيار رياض باشا اياه لوزارة المالية ، الى سبب خاص : ذلك أنه لما انتهت الحكومة المصرية من انشاء المحاكم المختلطة فى سنة ١٨٧٥ كانت على أبواب الضائقة المالية التى جرتها اليها الاستدانة الفادحة منذ أول حكم المغفور له اسماعيل باشا فى سنة ١٨٦٣ . ففى سنة ١٨٧٦ صدر القانون بتأليف صندوق الدين وبتعيين المراقبين الماليين . لكن هذا القانون لم يخفف من وطأة الديون شيئاً ولم يرفع من الضغط على دافعى الضرائب وارهاقهم بأقسى وسائل الارهاق وأبعدها عن كل معانى الانسانية ، ثم استيلاء صندوق الدين على كل ما كان يحصل ، حتى اضطرت الحكومة الى عدم دفع مرتبات الموظفين مما جعل أحد الانكليز الموظفين فيها يومئذ يكتب فى مذكراته أنه قضى يومين لم يدخل فمه فيهما طعام لاعوازه الى كل مايسد به رمقه .

وإذ كان الدائنون الاجانب مع ذلك مصرين على اقتضاء مصر كل تعهدات ولى نعمتها، فقد انتهوا الى الاتفاق على تشكيل لجنة للفحص ثم لتصفية ديون مصر . وعين رياض باشا نائباً عن الحكومة المصرية فى اللجنة المذكورة وعين بطرس بك غالى السكرتير العام لنظارة الحقانية مساعداً له . ثم عين رياض رئيساً للجنة، وعهد الى بطرس بالنيابة عن الحكومة . وفى ذلك الظرف الدقيق اضطر الى أن يدرس من مباحث اللجنة ومن الشؤون المالية ما مكنه من أن يضع تقريراً عن نظام الضرائب فى مصر كان بعد ذلك مرجعاً ينقل عنه وحجة يعتمد عليها .

ولما انتهت الحوادث التى تلت تقرير لجنة المالية الى اقصاء المغفور له اسماعيل باشا عن العرش تخلفه توفيق فيه كانت الحكومة قد بدأت تفكر فى الغاء المجالس القضائيه القديمة وفى انشاء نظام قضائى جديد هو النظام القائم الآن . واذ كان بطرس ممن عملوا فى التشريع للقضاء المختلط فكان طبيعياً أن يكون على رأس الذين يعملون للتشريع للقضاء الاهلى . لذلك عين وسنة ١٨٨١ وكيلا للحقانية وألقى عليه عبء تنفيذ النظام القضائى الجديد .

والى يومئذ كانت مناصب الحكم فى أعمال الدولة لا يليها الا المسلمون . فأما الاقباط فكانوا يلون وظائف انجاز أعمال الحكومة . فكانت المناصب الكتابية وما اليها مفتوحه وحدها أمامهم . فأما القضاء وادارة الاعمال العامة فكانت وقفا على أبناء الاغلبيه الدينية فى البلاد . ويسير تفسير هذا التقسيم فى ذلك الظرف لدى كان الحكم فيه للاتراك والذى كان الحاكم فيه تابعا لدولة الخلافة الاسلامية .

على أن بطرس غالى رأى فى ذلك منافاة لروح الزمن ، وبخاصة فى عصر بدأت مصر تنقل فيه النظم الاوروبية بانشاء المحاكم المختلطة وبخضوع المصريين لقضاء جماعة لا يختلفون عنهم فى الدين فقط ، بل فى الجنسية وفى اللغة أيضا . لهذا عين حين وجوده فى الحقانية عددا من الاقباط فى وظائف القضاء . ولعل هذا التصرف وما اليه من مثله هو مادعا جماعه من الذين خاصموه أثناء حياته لاتهامه بالتحيز لاهل طائفته .

وبقى فى وكالة الحقانيه حتى عين ناظراً للمالية فى سنة ١٨٩٣ . على أن أحوال مصر السياسية تغيرت فى هذه الفترة تغيراً كبيراً كان لبطرس بك غالى رأى فيه معروف . ذلك انه لما حدثت الثورة العرابية وانتهت الى تدخل الانكليز وهزيمة العرابيين فى التل الكبير وتشاورهم فى الامر كان من رأى بطرس أن يلتمسوا عفو الخديو وأن يركنوا اليه . وقد أوفده القوم يومئذ بعريضة الى الخديو توفيق فيها هذا المعنى . ومع أنه لم يظهر له عمل مباشر فى الثورة ، مما يدل على أنه لم يكن من المطمئنين اليها ، فان التجاء العرابيين اليه يدل على انه كان موضع عناية الخديو توفيق وعطفه كما يدل من جهة أخرى على أن ذكاءه وفطنته السياسية كانا موضع تقدير الذين التجؤا اليه ورأوا فيه خير واسطه للتفاهم بينهم وبين الحاكم الذى ثاروا عليه .

وحياة بطرس باشا كانت كلها بعد ذلك حياة وساطة سياسية لم تكن الحاجة اليها ماسة أيام حكم توفيق لما كان بينه وبين الانكليز من تمام التفاهم ، ولكنها كانت ضرورية وكانت

منتجة أيام حكم الخديو عباس الذى كان يثق به ويطمئن اليــه فى حل الخـلاف الـكثير الحدوث بينه وبين لورد كرومر قنصل انجلترا الجنرال فى مصر .

ولعل الحوادث التى مرت بمصر وشهدها بطرس باشا قبل أن يصل الى منصب الوزارة كانت ذات أثر كبير فى توجيه سياسته وزيراً . فقد حضر نائباً عن الحكومة المصرية فى لجنة التصفية ووقف على ميول الاجانب وعلى أطماعهم ، ثم رأى جهود اسماعيل للوقوف فى وجه تدخلهم باسم مصلحة الدائنين تنتهى الى اقصـائه عن العرش . ثم أنه حضر وشهد تطورات الثورة العرابيـة وما آلت اليــه من تشتيت الثوار والحـكم على زعمائهم بالاعـدام واستبدال ذلك الحـكم بالنفى . وكان بعد ذلك على اتصال بالمؤتمرات والمحادثات التى حصلت بقصد جلاء الجيوش الانجليزية عن مصر ، وما كان من وعود الانجليز فى ذلك وتدخلهم برغم هـذه الوعود فى الشؤون المصرية ووضعهم يدهم على الادارة المصرية . ثم كانت بعد ذلك حادثة فرمان الخديو عباس ووقوف انجلترا فى وجه تركيا باسم الدفاع عن حقوق مصر ، كما كانت حادثة الحدود واعتـذار الخديو عباس رغم اعتزازه بملـكه الشاب للقائد كتشنر. وبطرس باشا كان على ذكائه وقوة ارادته وسعة حيلته رجل سلم وعمل مطمئن ، مما جعله بعيداً عن الحركة العرابية الى أن جاء دور السلم والوساطة ، كما كان من طائفة الاقلية الدينية فى وقت كانت النعرة الدينية فيه متغلبة على كل نعرة أخرى. أضف الى هذا كله اتصاله بنوبار وتكوين عقله تـكويناً سياسياً لا تكوين زعامة شعبية مقصور غرضها على الدعوة

كالمثل الاعلى . هذه الظروف كلها تفسر لك سياسته من بعد ارتفائه الى منصب وزارة المالية فى سنة ١٨٩٣ وانتقاله الى وزارة الخارجية بعد ذلك وبقائه فيها حتى مع تقلده رياسة الوزارة فى سنة ١٩٠٨ برغم ماجرت به سنة الوزارات المصرية من تقلد رئيس الوزراء لوزارة الداخلية .

وتشهد ظروف تقلده الوزارة بأنه كان ، برغم ماقدمنا من ميله للسلم والحيلة ، موضع ثقة الخديو الشاب عباس. فلقد كانت أول وزارة اختير بطرس لها وزارة نخرى باشا التى أحلها عباس محل وزارة مصطفى فهمى فى سنة ١٨٩٣ رغم لورد كرومر والتى لم تبق لذلك فى مناصب الحكم غير يوم واحد . ثم انه حل بعد ذلك محل ثقته أن رأى فيه خير وسيط يحل المشكلات التى كانت كثيرة الحدوث بينه وبين لورد كرومر . على أن عمله فى وزارة المالية وفى وزارة الخارجية ظل عمل موظف أمين كفء حريص على بقاء المساواة فى المعاملة بين المصريين جميعاً من غير تمييز بينهم بسبب الجنس أو الدين من غير أن يبرز ليكون محلا لحكم التاريخ حتى كانت سنة ١٨٩٩ اذ وقع مع انكلترا فى ١٩ يناير اتفاقية السودان التى كانت بعض ما حاربه به خصومه فى حياته وبعض ما اتخذه قاتله ابراهيم ناصف الوردانى حجة له فى اقدامه على ارتكاب جريمة القتل السياسى ، والتى ماتزال موضع حنق المصريين عليها ونظر كثيرين منهم لها على أنها عمل من أعمال خيانة الوطن .

وقد نعجب اذ نرى بطرس غالى ولم يكن فى سنة ١٨٩٩ الا ناظرا للخارجية متضامناً مع سائر زملائه النظار فى سياسة الدولة

العامة يحمل وحده وزر هذه الاتفاقية . فاخلاء السودان فى سنة ١٨٨٤ بأمر انكلترا واستعادة فتحه بعد ذلك بامر انكلترا أيضاً لم يكن من عمل نظارة الخارجية وحدها ، بل كان من عمل مجلس النظار كله . وقد كان بطرس وزير المالية فى سنة ١٨٩٣ مع نخرى ثم مع رياض باشا الذى ألف الوزارة حلا للاشكال بين الخديوى ولورد كرومر ، ثم انتقل وزيراً للخارجية لما شكل نوبار الوزارة فى سنة ١٨٩٤ وظل فى منصبه بعد استقالة نوبار وحين شكل مصطفى باشا فهمى الوزارة من جديد . وفى هذه الاثناء كانت الاعمال لاستعادة السودان جارية حتى سقطت الخرطوم وامدرمان وتمت استعادة السودان فى سنة١٨٩٨ ، فهل يسأل وزير الخارجية وحده اذا هو وقع بعد ذلك اتفاقا باسم حكومته !

كان خصومه يقولون : ولكنه المسئول الاول والمباشر، فهو الذى وقع باسمه وبيده . ثم انه فضلا عن ذلك كان أكثر من كل الوزراء الذين معه مسئولية لانه كان أقواهم وأذكاهم وأقدرهم . بل لعله هو الذى أقنعهم بالقبول . وماذا تريد من مصطفى فهمى والذين كانوا معه وهم كانوا مثل الاستكانة والضعف . لقد كان بطرس هو العنصر القوى الوحيد فيهم ، فهو لذلك مسئول دونهم . ثم لنقل الحق أيضاً . ان بطرس قبطى وكان للاقباط زعيما ، والاقباط كانوا يومئذ وفى نظر دعاة الحركة الوطنية المصرية متهمين بممالأة الانكليز على بلادهم . فبطرس اذن قد وقع اتفاقية السودان ممالأة للانكليز وتفريطاً فى حقوق بلاده .

كذلك كان يقول خصوم بطرس . وكذلك مايزال البعض

يحسب، ولو في دخيلة نفسه، حرصاً على وحدة الامة المقدسة في الايام الحاضرة . لكن للتاريخ حكما آخر تجب المجاهرة به احقاقا للحق. فمصر يوم اتفاقية السودان كانت تابعة لتركيا وكانت لاتستطيع أن تمضى اتفاقا تنقص به من سلطتها أو سيادتها على أى جزء من الاجزاء التابعة لها، أوالتى كانت تابعة لها وعادت اليها . وقد أبلغت الحكومة المصرية حكومة الباب العالى ان انكلترا تريد أن تتفق مع مصر اتفاقا مقصوراً على ادارة السودان ، لتتمكن بذلك من الغاء الامتيازات الاجنبية فيه ولتستطيع بما تبيحه لها الشركة فى الادارة أن تسهر على أملاكها الافريقية من غير أن يضر ذلك حقوق مصر فى السودان باعتباره ولاية منها تابعة لحكم الخديوى. وبالرغم من تكرار الكتابة فى هذا الامر الى الحكومة التركية فانها لم تحرك ساكناً ولم تشر بنصيحة ولم تظهر بمجرد استعدادها لتعضيد مصر اذا هى وقفت بإزاء انكلترا موقفاً خاصاً . وعلى ذلك ألفت مصر نفسها وحيدة بإزاء انكلترا مضطرة أن تحل معها هذه المعقدة بعد أن كانت فرنسا قد ضربت قبيل ذلك فى حادثة فاشودة بما قطع كل رجاء فى مداخلتها كما انقطع الرجاء فى مداخلة غيرها من الدول . مع هذا لم يخرج اتفاق يناير سنة ١٨٩٩ السودان من ولاية صاحب عرش مصر ولم يجعل انكلترا شريكة فيه . بل هو اتفاق مقصور على ادارة السودان بنصه وبتفسير لورد كرومر وغير لورد كرومر من كتاب الانكليز وساستهم إياه وبتنفيذه فى المدة التى تلت عقده . فقد كان حاكم السودان العام، برغم أنه

حاكم عسكرى فى بلاد خاضعة للحكم العرفى ، لا ينفذ أمرا ولا ينشر قانونا إلا بعد أن يبعث به الى مجلس النظار فى القاهرة وبعد أن يرد المجلس اليه الأمر أو القانون أو الارادة السنية كما هى أو منقحة بما تراه الوزارة المصرية . فاذا كان قد حدث بعد ذلك أن استفادت السلطة الانكليزية من ضعف الوزارات التى وليت الحكم فى مصر وأن مدت ادعاءاتها الى أكثر مما يبيحه اتفاق سنة ١٨٩٩ ، فليس الذى وقع الاتفاق المذكور فى الظروف التى أشرنا اليها مسئولا عن شىء منها .

هذا هو حكم التاريخ ، وهو الحق فى أمر اتفاقية السودان وموقف بطرس باشا غالى منها . على أن ما تلاها من نشاط الحركة الوطنية بزعامة المغفور له مصطفى باشا كامل ومن طعنها على المعاهدة واتخاذها ذريعة للهجوم والمقاومة، جعل الوزارة المصرية أشد ميلا للتفاهم مع الانكليز تفاهما يخفف من حدة هذه الحركة إن كان ذلك مستطاعا ، ويقف فى وجه طغيانها على النظام وعلى الأمن اذا خشى منها عليهما ، ويعطى لاتفاقية السودان معنى غير معناها الاول يخول انكلترا فيه سلطانا لم يقصد الاتفاق تخويلها إياه

وكانت الحركة الوطنية فى ذلك الحين متجهة الى الاستفادة من خلاف الدول، معتمدة على ما يمكن أن يكون لتدخل فرنسا من قيمة فى تحرير مصر . وبرغم فشل مرشان عند فاشودة وانسحابه وتضعضع سلطان فرنسا لهذا السبب، فقد ظلت أنظار مصطفى كامل ورجال الحزب الوطنى متجهة صوب باريس حتى سنة ١٩٠٤ حين عقد الاتفاق الودى الذى التزمت به فرنسا ألا تعترض انكلترا فى

مصر . فلما تم هـذا الاتفاق شعر المصريون جميعا بازدياد مركز انـكلترا فى مصر قوة . وكان النظار المصريون المتصلون بالسلطة الانـكليزية فى مصر بسبب مراكزهم أكثر من غيرهم شعوراً بهذه القوة بل ايمانا بها واستعداداً لتقديم القرابين لتهدئة ثوائر غضبها.

وفى هذه الظروف بلغ سلطان انـكلترا فى مصر أوج قوته . فلم يكن أمر ما،بالغه ما بلغت تفاهته،يبرم أو ينقض من غير أقرارهم عن طريق موظفيهم الذين احتلوا كل مناصب الدولة الرئيسية والذين كانت لهم الكلمة النافذة على الموظفين المصريين مهما يكن منصب الموظف الانكليزى صغيرا ومنصب الموظف المصرى كبيرا. كان تلغراف جرانفل،الذى يقرر أن مشورة انـكلترا واجبة الاتباع فى مصر ،لا يقف عند ما تبديه الدولة المحتلة عن طريق عميدها من رأى، بل يمتد الى المستشار الانـكليزى والى مفتش الداخلية والى ملاحظ الطرق والى كل انـكليزى أيا كانت مكانته . وبإزاء هـذا السلطان الانكليزى النافذ فى مصر كانت الحركة الوطنية المصرية تنمو وتقوى ، وكانت الثورة النفسية لشعب مصر الوادع الذى لا يقبل مذلة ولا خضوعا قـد ملأت النفوس حتى كادت تفيض عنها . وكمظهر لهذا التنافر بين السلطة الحاكمة من ناحية والشعب المصرى من ناحية أخرى، وقعت حادثة دنشواى باصطدام جماعة من الضباط الانـكليز الذين كانوا يصيدون الحمام أثناء ذهابهم من القاهرة الى الاسكندرية مع أهل قرية دنشواى فى يونيو سنة ١٩٠٦ اصطداما انتهى الى موت الـكابتن بول الانـكليزى ، والى تأليف المحـكمة المخصوصة برئاسة بطرس باشا غالى الذى كان وزيرا للحقانية بالنيابة

لغياب وزير الحقانية بالاجازة ، والى صدور وتنفيذ ذلك الحكم الجائر الذى يعتبر مثلا من أمثلة البربرية والوحشية فى أشد عصور الانسانية ظلاما ، والذى أعدم بموجبه أربعة وجلد ثمانية أمام أنظار أهل دنشواى المفجوعين فى أهلهم وعائليهم،عدا الذين زجوا منهم فى غيابات السجون .

وكانت رياسة بطرس باشا للمحكمة المخصوصة التى أصدرت الحكم مما أخذ به وليم عليه،ولكن دون لومه ومؤاخذته على اتفاقية السودان . ويقول المدافعون عن بطرس باشا فى هذه المسألة : إن حكم دنشواى كان حكما سياسياً أملته السلطة الانكليزية التى أمرت بارسال المشانق قبل أن يصدر ، إذ أرادت أن تضرب مثل صرامة وحزم — وانه كان صادراً من أغلبية انكليزية لأعضاء المحكمة ، فلم يكن للأقلية الموجودة فيها، بحكم القانون ،بد من اقراره وتوقيعه. وبطرس باشا كان رئيساً للمحكمة المخصوصة بحكم القانون الذى ألقى بهذه الرئاسة الى ناظر الحقانية ، فكان لامفر له من الخضوع لرأى أغلبية الهيئة التى يرأسها والتى أصدرت ذلك الحكم الجائر .

وهذا الدفاع على ظاهره من الوجاهة لاينهض حجة لتبرير عمل بطرس باشا الا اذا كان هو معتقداً عدالة الحكم الذى أصدره وإنسانية تنفيذه مما لايصدق على رجل كان له من عواطف الخير والانسانية ما كان لبطرس . ذلك بأن الرجل الذى يجلس رئيساً لهيئة قضائية يعهد اليها بتطبيق العدل يجب ألا يخضع لصوت غير صوت الضمير ولاعتبار غير اعتبار العدل المجرد من كل هوى . فأما ان كانت المحكمة المخصوصة ليست هيئة قضائية وكانت صورة هزلية

لعدل لاوجود له وانما على السياسة أحكامه ، فكان حريا برجل له ما كان لبطرس من دهاء ومقدرة أن يصل من تخفيف الجور الى أقل حدوده وألا يرضى هذا التنفيذ الذى بعث الى قلب الانسانية جماء رعشة اشمئزاز وتقزز واستفز فى نفسها أشد المقت لعمل لا يمكن أن يكون من الانسانية المهذبة ولا من الانسانية المتوحشة فى شىء .

وكان حكم دنشواى خاتمة سيئة لحياة سياسى ماهر هو لورد كرومر . فعلى أثر صدوره وتنفيذه بدأت مكانة انكلترا ، كأمة مدنية ونظام ، تتزعزع فى نفوس المصريين على اختلاف طبقاتهم . وبعد أن كانت الوكالة البريطانية معتبرة ملجأ العدالة فى مصر وكانت ألوف العرائض والشكاوى ترفع اليها طلباً للنصفة من ظلم الحكام بل من حيف القضاء ، تراجع المتظلمون مذعورين أن فتحت أشباح المشانق والمشنوقين والجلاد والمجلودين عيونهم على منظر بشع يتردد الانسان فى التحديق به بل يولى منه فراراً ويمتلىء منه رعبا . لذلك لم تطق الوزارة الانجليزية أن تؤيد عميدها فى مصر فاضطر الى الاستقالة فى مارس سنة ١٩٠٧ كما اضطرت الحكومة البريطانية الى الموافقة على العفو ، بفضل جهاد مصطفى كامل ، عن مسجونى الدنشوايين .

وخلف السير الدون غورست لورد كرومر كعميد لانكلترا فى مصر ، وأراد أن يسلك فيها سياسة أخرى هى التقرب الى الخديو الذى كان مؤيداً حتى يومئذ لمصطفى كامل وللحركة الوطنية . وربما خيل الى السير غورست يومئذ أن الخديو كان قديراً على توجيه حركة مصطفى كامل وجهة أخرى مادام هو الذى خلق هذه الحركة وغذاها ، متناسياً أن الزعيم الشعبى مرتبط دائما بالمبادىء والمثل

العليا التى نادى بها ولو اعتقد عدم امكان تنفيذها . أو لعله قصد بسياسة الاتفاق مع الخديو الى ماحدث بعدها من انفصال الحزب الوطنى عن عباس الثانى ووقوفه منه موقف العداوة الصريحة فى بعض الظروف. على كل حال فقد خلقت سياسة جورست فى مصر جواً جديداً ووجهت الانظار الى نواح لم تكن تتجه اليها طويلا من قبل .

ومما اتجهت اليه الانظار يومئذ اتجاهاً خاصاً المطالبة بالدستور وتقرير سيادة الامة . فقد تألف حزب الامة وجعلت الجريدة ، وعلى رأسها الاستاذ لطفى بك السيد ، يدعون الى الدستور بكل مالديهم من قوة، ويدللون على فساد نظام مجلس الشورى فساداً بيناً . واذ كان حزب الامة يعبر عن الرأى المعتدل فى مصر فلم يكن فى مقدور الحكومة ألا تستمع له فى هذا الشأن . لكن وزارة مصطفى فهمى كانت قد سلخت فى دست الاحكام ثلاث عشرة سنة منفذة لسياسة خاصة لاتتفق مع السياسة الجديدة التى جاء بها السير جورست ولا تتفق مع تطور المطامع المصرية . لذلك استقالت فى سنة ١٩٠٨ وعهد الخديو الى بطرس باشا بتشكيل الوزارة الجديدة. فشكلها ،وكانت فاتحة أعماله فيها أن قررت الحكومة علنية جلسات مجلس الشورى وحضور الوزارة المجلس لمناقشة أعماله وللاجابة على ما يوجه اليها من الاسئلة، وأن عينت البرنس حسين كامل (المغفور له السلطان حسين) رئيسا للمجلس زيادة لهيبته واحترامه . لكن هذه الخطوة الاولى كانت دون ماتطلب الامة بمراحل ، فلم تخفف لذلك من المطالبة بالدستور بل زادتها قوة واندفاعا .واذ كان بطرس

يميل الى تحقيق هـذا المطلب فقد سعى سعيه لدى معتمد انـكلترا كى يضع نظاما يقرب مصر من الحـكم الذاتى .

وكان السير جورست لما يصل امام الرأى العام البريطانى الى شىء من مثل مكانة لورد كرومر . لذلك رأى أن حركة الصحافة حركة عنيفة فى مصر قد تحول بينه و بين موافقة الحـكومة البريطانية على طلب الحـكومة المصرية ، كما رأى أن حالة الأمن ليست كذلك مما يؤيده عند وزارة خارجيته. لذلك طلب أن يبعث قانون الصحافة الذى سن فى سنة ١٨٨٢ مبيحا للادارة حق انذار الصحف وتعطيلها، وأن يوضع قانون النفى الادارى لارهاب الجناة. والظاهر أن حرص بطرس باشا على تحقيق خطوة جديدة فى سبيل الحـكم الذاتى كان شديداً . وكثيراً ما يلجأ السياسى الشديد الحرص على تحقيق غاية معينة يراها ذات خطر فى حياة أمته، الى قبول أشياء لا يقبلها غيره، مادام يعتقدها أشياء مؤقتة قليلا ضررها الى جانب الغاية العظيمة المرجوة .لذلك لجأ بطرس بازاء رفض زميليه سعد زغلول ومحمد سعيد لطلب المعتمد البريطانى بعث قانون الصحافة واصدار قانون النفى الادارى، الى وساطة الخديو عندهما، فأوفد سمره من رجاله من أقنعهما. فصدر القانونان فى سنة ١٩٠٩ فأحدث صدورهما فى البلاد دويا هائلا ووقفت الصحافة ووقف الرأى العام ينديان الحرية المضاعة بغير ثمن الا إرضاء المطامع الانـكليزية فى حرصها على قهر مصر وإذلالها.

وامتدت هذه الضجة الى تناول مسألة كانت تتناول الوقت بعد الوقت فى الصحف؛ ولـكنها تنوولت هذه المرة بحدة لم يسبق لها نظير . ذلك أن الصحافة القبطيـة فى مصر كانت تدافع دائماً عن

بطرس باشا وكانت تتهم الصحافة الاسـلامية بالتعصب الدينى فى مهاجمتها إياه . وكانت النعرة الدينية قوية فى ذلك الحين كما قدمنا . لذلك كانت العصبية الدينية تدفع الـكتاب الى حدود غير معقولة ولـكن لها نظائرها حتى فى أشد الامم تحضراً . وأقرب هذه النظائر مالا يزال يبدو الوقت بعد الوقت فى صحافة الامم المسيحية خاصا باليهود . وكانت بعض الصحف الاسـلامية من جانبها لاتنى عن مجاراة الصحف القبطية فى هذا المضمار وسبقها . على أن ما وقفنا عليه من مصادر مختلفة أ كثرها اسلامى يقنعنا بأن بطرس باشا لم يكن متعصبا لابناء طائفته تعصب عداوة لأغلبية البلاد الدينية. يؤيد ذلك أنه لما أنشأ الجمعية الخيرية القبطية فى سنة ١٨٨١ كان من بين الخطباء يوم افتتاحها الاستاذ الشيخ محمد عبده والشيخ محمد النجار وعبد الله نديم وغيرهم، وأنه كان بعد ذلك عظيم الوفاء لكثير من أصدقائه المسلمين متصل البر بكثير من العائلات الاسلامية . من ذلك أنه كان أول من ذهب الى المغفور له الشيخ سليم البشرى على أثر إقالة الخـديو إياه من مشيخة الازهر يسأله مايسـتطيع أن يقدمه له من خدمة . وكان كثيراً مايقضى حاجات أفراد من المسلمين من غير أن تكون له بهم كبير معرفة، كما كان يصلهم صـلة أبناء طائفته . على ان بره بأبنـاء طائفته أمر طبيعى . وخير ماسمعنا عنه فى هذا أنه كان يتوافى للاقباط جميعاً كما كان يتوافى لأفراد من المسلـين ، وأنه هو الذى صنع الطائفة القبطية فرفعها من مستواها الضعيف الذى كانت فيه الى مستوى أسمى منه بكثير . فالجميات القبطية والمدارس القبطية والمنشآت الخيرية القبطية يرجع الفضل فى أكثرها له هو أ كثر مما يرجع لأى شخص آخر،

كما يرجع الفضل له فى فتح أبواب الوظائف العامة للاقباط أسوة بالمسلمين

واستمر يتابع، بالاتفاق مع المعتمد الانكليزى ، وضع النظام الجديد للهيئة النيابية المصرية . وقبل أن يتمه كى يصدر القانون به طلبت شركة قناة السويس من الحكومة المصرية مد امتيازها أربعين سنة أخرى بعد سنة ١٨٦٩. وكانت الحكومة المصرية يومئذ مستعدة لقبول الطلب . لكن حركة الرأى العام المصرى فى هذا الشأن كانت قوية اضطر أولو الامر معها أن يعرضوا المشروع على الجمعية العمومية المصرية وأن يعدوا بأن يكون رأيها فيه قطعياً . وفى أثناء نظر هذا المشروع بالجمعية وفى فرصة هياج الرأى العام وتوتر أعصابه ، فكر ابراهيم ناصف الوردانى فى قتل بطرس معتبراً إياه خائناً لوطنه بسبب توقيعه اتفاقية السودان ورياسته محكمة دنشواى . روت « الجريدة » الصادرة فى ٢١ فبراير سنة ١٩١٠ وصفاً للحادث مانصه « بقى — الباشا — كذلك حتى كان يوم أمس نزل كعادته فى جماعة من الموظفين، وعند باب نظارة الحقانية صافحهم وانصرف ومعه النائب العمومى ، فما كاد يضع رجله على سلم عربته حتى أصابه الرصاص المتعاقب من غدارة شاب لعب الشباب برأسه وتصور ماتصور وتجسمت فى نفسه الخيالات فلم تردعه هيبة الوزير ولا وقار الشيخ ولا خوف العقاب ... أصابه الرصاص فى العنق والكتف والبطن فخر صريعا حمل الى أودة ناظر الحقانية ثم الى مستشفى الدكتور ملتون . وهناك زاره سمو الخديو وجميع الوزراء والسير جورست والامراء وأعيان الامة وكلهم يرجون له الشفاء العاجل . فلما كانت الساعة السادسة عملت له عملية جراحية لاخراج

الرصاصة الثانية. ولكن كانت ، مع الاسف، قد نسفت الاحشاء وهدفت في صدر المقدم) »

وقضى رحمه الله في الساعة الثامنة والربع من صبيحة يوم ٢١ فبراير سنة ١٩١٠ ودفن في اليوم التالي في مشهد مهيب واليوم يرقد رفاته في كنيسة العائلة على جانب شارع الملكة نازلي الذي كان من قبل شارع عباس

* * *

هذه حياة بطرس غالي والقارىء يرى كيف كانت حياة سياسي عظيم ومحسن كبير ولئن كان قد أخطأ التقدير في بعض مواقفه فهو لم يقصد وما الى غير خدمة بلاده ولذلك كانت آخر كلمة فاه بها حين احتضاره « يعلم الله اني ما أردت غير الخير لبلادي » وكانت كلمة حق

مصطفى كامل باشا

فى عصر يوم ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ بينا أنا جالس مع أحد زملائى طلبة مدرسة الحقوق الخديويه اذ ذاك على باب داره، جاز الطريق أمامنا رجل ممتطجواداً ، فلما كان بازائنا وقف برهة خيالنا وقال « أبقى الله حياتكم ، الباشا توفى » . وكان زميلى من المتشيعين للحزب الوطنى المتطرفين فى تشيعهم . فلما سمع قول الناعى سأله فى لهفة : مصطفى باشا كامل ؟ فأجابه الرجل مطلقا جواده : نعم ! ولكم طول البقاء! . وتركنا أنا وصاحبى واجمين من هول الخبر وان كان حديث الباشا ومرضه والخوف على حياته بعض ماتواتر فى ذلك الحين . وبعد زمن قصير تركت صاحبى عائداً الى بيتى فألفيت على الناس فى الشوارع والحوانيت من أثر الذهول مايدل على أن نعى الباشا اليهم مس من قلوبهم أدق اوتار الحزن والالم . ولم يستقر بى المقام فى البيت دقائق حتى جاء زميل يبلغنى الخبر ويعلن الى ماقررته المدارس كلها من الاشتراك فى تشييع جنازة الزعيم العظيم : وكان يوم ١١ فبراير يوم حداد عام فى العاصمة وفى مصر كلها لم يشغل الناس شىء فيه غير جنازة الزعيم الشاب. فالمدارس والهيئات الوطنيه كلها كانت تفكر فى تنظيم الجنازة ، وأهل الريف كانوا يفدون من أطراف البلاد للاشتراك فيها ، والحكومة كانت تعد وسائل الأمن والنظام، والاجانب الذين رأوا العاصمة جللت بالسواد ورأوا أهلها اتشحوا باسباب الحداد كانوا يفكرون فى العمق

الذى تغلغل اليه الروح الوطنى من سويداء نفس هـذه الامة . فلما سار النعش يحمله على أعناقهم أهل دنشواى الذين حكمت المحكمة المخصوصة عليهم ، ثم كان لسعى مصطفى كامل أكبر الأثر فى العفو عنهم ، صمت كل ما فى المدينة ولم يبق بها أثر لحياة الا فى مشهد وداع هذا الراحل رحلة الابد . قال المرحوم قاسم أمين فى كلماته التى نشرت بعد موته ، أى بعد شهرين اثنين من وفاة مصطفى كامل ،

« ١١ فبراير سـنة ١٩٠٨ يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل هى المرة الثانية التى رأيت فيها قلب مصر يخفق : المرة الاولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواى

« رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلبا مجروحا وزوراً مخنوقا ودهشة عصبية بادية فى الايدى وفى الاصوات . كان الحزن على جميع الوجوه . حزن ساكن مستسلم للقوة مختلط بشىء من الدهشة والذهول . ترى الناس يتكلمون بصوت خافت وعبارات متقطعة وهيئة يائسة . منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين فى دار ميت كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف فى كل مكان من المدينة .

« ولكن هـذا الاخاء فى الشعور بقى مكتوماً فى النفوس لم يجد سبيلا يخرج منه فلم يبرز بروزاً واضحاً حتى يراه كل انسان

« أما فى يوم الاحتفال بجنازة صاحب (اللواء) فقد ظهر ذلك الشعور ساطعاً فى قوة جماله وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها فى العاصمة ووصل صدى دويها الى جميع أنحاء القطر .

« هذا الاحساس الجديد ، هـذا المولود الحديث الذى خرج من أحشاء الامة ، من دمها وأعصابها ، هو الامل الذى يتمم فى

وجوهنا البائسة ، هو الشعاع الذى يرسل حرارته الى قلوبنا الجامدة الباردة ، هو المستقبل . »

ولم يكن عجيباً أن يكتب قاسم أمين على هدوء نفسه وحسن تقديره هذا الذى كتب . ولم يكن عجيباً أن يحرك مصر من أقصاها الى أقصاها الحزن لوفاة الزعيم الشاب . فقد جاء به القدر فى فترة من فترات حياة هذا الوطن حين بدأت الامة تنسى مظالم الماضى أيام حكم اسماعيل وتشعر بشدة وطأة الحكم البريطانى الذى قام على أساس من المصالح المادية وحدها فلم يعن إلا بتخفيف الاعباء المالية ناسياً كل اعتبار غير تخفيض الضرائب . ليخيم على البلاد الجهل، وليكن الغرض الاسمى من التعليم خلق الموظفين ، وليشعر المصريون بافتقارهم للحاكم البريطانى ولضعفهم أمامه ، فذلك كله هين ويسير مادامت الضرائب المرهقة ومادامت السخرة والكرباج قد ألغيت . فى هذه الفترة التى شعرت فيها الأمة بالحاجة المعنوية للعزة القومية وللكرامة الانسانية،بعث القدر مصطفى بشيراً بهذه الحاجات السامية رفيع الصوت عالى الكلمة طلق اللسان قوى الجنان حلو الاسلوب يتغنى لقومه بما تشعر به نفوسهم فى غور أعماقها . فكان طبيعياً أن يلتف الظمأى حول هذا الورد من الكلام السائغ يسمعون عنده الأناشيد التى تطرب لها نفوسهم وتهتز لها قلوبهم ويجد فيها شعورهم الحبيس منفذاً ومتنفساً . ليكن ذلك الكلام غير ذى غناء . ولتبق القوة الغاشمة قديرة على أن تسير فى طريقها، ترفع من شأن المصالح المادية على حساب حاجات النفس المعنوية، فلن يغير ذلك من قيمة هذا الذى يشدو باسم الوطن ومن محبة الناس له شيئاً . ألست

ترى الى الجمع الحافل من العمال يسد جوعه على مائدة ذى المال جزاء كدحه طول نهاره ، ثم ما يلبث أن يذهب لسماع الشاعر أو المغنى يروى عنده ظمأ روحه . وهو لهذا المغنى أشد حباً منه لمن يمسك عليه حياته المادية، لأنه يحس في الشاعر معنى انسانيا، في حين أن سعيه لدى المالك وجزاءه من سعيه لا يجزيه إلا الابقاء على حياته الحيوانية البحتة .

لذلك كان جزاء وفاقا أن تحزن مصر على شاعر الوطنية العظيم مصطفى كامل . وكان حقاً أن نرى باسم أمين في وحدة هذا الشعور بفقد الزعيم الشاب الذى كرس حياته ليتغنى باسم مصر وليعلن أنه وهبها حياته ، وحدة فى الأمل الكبير بمستقبل زاهر .

***

ولد مصطفى كامل فى سنة ١٨٧٤ ، أى فى السنة التى ولد فيها الخديو عباس حلمى الثانى وقد بعث به أبوه على افندى محمد ، وكان مهندساً ، الى مدرسة أم عباس، فمدرسة القربية الابتدائيتين حيث تلقى دراسته الأولى . وفى أواخر أيامه بهما توفى أبوه وكفله أخوه حسين واصف باشا وزير الاشغال السابق ، وبعد الدراسة الابتدائية التحق بالمدرسة التجهيزية — الخديوية الآن — لتلقى دراسته الثانوية . وفيها ظهر حريئاً أكثر من زملائه جميعاً . وجرأته هى التى حملته دون سائر اخوانه يذهب بنفسه فيقابل ناظر المعارف إذ ذاك على باشا مبارك يشكو له حيف نظام الامتحان حيث أدى الى رسوبه ورسوب زملائه. وإعجاب ناظر المعارف بهذه الجرأة هو الذى جعله يعدل عن هذا النظام فيؤدى ذلك الى نجاح مصطفى وكثيرين

من زملائه . فلما أتم دراسته الثانوية التحق بمدرسة الحقوق الخديوية في العام المدرسي ١٨٩١ — ١٨٩٢ . ومن ذلك التاريخ بدأ ينشر رسائل ومقالات في الصحف، كما أنه ، على ما يذكر مؤرخوه ومن بينهم مدام جوليت آدم ، ارتبط بالخديو السابق عباس حلمي الثاني برابطة كانت ذات أثر مباشر في حياته كلها بعد ذلك .

ولم يكن مصطفى كامل هو وحده الشاب الذي اصطفاه عباس الثاني ، ولا كان هو وحده الذي أثر ارتباطه به في حياته ، بل لقد اصطفى كثيرين من الشبان يومئذ ممن توسم فيهم الذكاء والاقدام فعاونهم في دراساتهم وعاونهم بعد الدراسة ، وأوفدهم الى أوربا لمهمات سياسية تؤيد بها سلطته ومركزه كحاكم مصر الشرعي. وسياسة عباس الثاني كانت معارضة تمام المعارضة لسياسة الانكليز، فانه مالبث أن تبوأ عرش أبيه وجده حتى وجد نداً له في قصر الدوبارة لورد كرومر معتمد بريطانيا صاحبة السلطان الفعلي في البلاد بقوتها وبجيش احتلالها وباستئثارها بكل المناصب الرئيسية في الحكومة. وهو ما لبث أن تبوأ عرش أبيه وجده وأراد، مدفوعاً بحماس الشباب، أن يظهر للناس حقه وسلطانه حتى صدمته حادثة الحدود التي اضطر معها الى الاعتذار عن ملاحظته التي أبداها للقائد كتشنر حين استعراضه الجيش المصري بالسودان . وكان المتقدمون في السن من المصريين الذين شهدوا عهد اسماعيل ومظالم حكومته والذين رأوا حركة عرابي واشتركوا أو لم يشتركوا فيها وشهدوا فشلها وتغلب سلطان الانكليز عليها وعلى فرنسا وانفرادهم دونها بأمر مصر — كان هؤلاء المتقدمون في السن أشد الناس تردداً في مشاركة الامير

الشاب الذى اعتلى العرش فى الثامنة عشرة من عمره مطامعه ومطامحه، فلم يكن يستطيع الاعتماد إلا على الذين لم يهون عليهم ظلم اسماعيل استبداد الانكليز والذين لم يضعف الجهل أوالبله فى نفوسهم معنى الحرية . وكان مصطفى كامل بين هؤلاء بل كان فى مقدمتهم . فقد جمع الى الشباب إقداما جاوز حدود الاقدام مع نشاط عصبي لايهدأ الا أن يهد المرض صاحبه ويقعده عن حركته الدائمة . وهو لذلك لم يقنع بدراسة الحقوق وبكتابة المقالات فى الصحف بل أنشأ ،ومازال فى أول سنى طلب الحقوق، مجلة أسماها المدرسة،صدر أول أعدادها فى ١٨ فبراير سنة ١٨٩٢ وجعل نفسه بها زعيما لزملائه فى الدرس يلقى عليهم النصائح ويرشدهم الى الواجب ويقدم لهم مختلف المعلومات التى يرشده اليها اختباره الشاب فى بطون الكتب والنشرات الدورية .

وفى يونيه سنة ١٨٩٢ سافر لأول مرة الى فرنسا ليؤدى امتحان الحقوق الاول بباريس . وكان طبيعياً أن تأخذ بلبه النضحضارة الغرب وأن تؤثر فى أعصابه الحساسة مظاهر الحياة الناشطة والحرية المنظمة . وكانت فرنسا يومئذ قد أفاقت من كبوة سنة ١٨٧٠ حين قهرتها المانيا،وجعلت تذكر فى حسرة تدليها من الصف الاول فى تصريف سياسة العالم . والشعور بالألم يحفز الاحساس ويفيض على اللسان الشكوى والطموح والأمل . وقد تأثر مصطفى كامل بهذا أيضاً كما تأثر بالحضارة وبالحرية . وزاده تأثراً معاودته الحضور للامتحان فى سنة ١٨٩٤ بباريس وفى أواخر هذه السنة بتولوز

حيث نال إجازة الحقوق . ومن ذلك اليوم انفتحت أمام خياله الشاب آفاق الحياة وآمالها . ولعل مما وجه هذه الآمال وجهتها ماوقع له مصادفة من مقابلة الكولونيل بارنج شقيق لورد كرومر ومادار بينهما من حـديث كان له فى العالم السياسى قيمة وترتبت عليه حملة صحفية اشترك هو فيها لخالقه الفوز فاتجهت اليه الانظار فرسم له القدر بذلك طريق حياته . فقـد نشرت جريدة الاهرام الصادرة فى ٢٨ يناير سنة ١٨٩٥ مقالا عنوانه (حديث ذو شأن) موقعاً بامضاء مصطفى كامل حاويا لما دار بين المصرى الشاب وبين الضابط الانجليزى من مناقشـة أفضى فيها الضابط بكل سياسـة انجلترا فى مصر مؤيدة بالدليل القاطع الذى لايعرف حجة ولاجدلا: دليل قوة السيف والمدفع . وأفضى فيها المصرى الشاب بصحة مصر وحقها وباعتمادها لنيل هذا الحق على قوته فى ذاته وعلى أوربا التى لاتنظر الى انكلترا فى وادى النيل بعين مطمئنة . ولعل هذه الفقرة من أقوال مصطفى كامل تفسر نشاطه فى المستقبل وتفسر السياسة التى اتبعها الى سـنة ١٩٠٤ حـين تم الاتفاق الودى بين فرنسا وانكلترا اتفاقا انضمت اليه المانيا والنمسا . قال مصطفى : « ان لمصر أن تأمل من أوربا نجاتها وخلاصها ..... ولما أوربا بأسرها التى تناديها صوالحها العـدة بأن تنصرنا نصرة لتلك الصوالح التى سعيتم من يوم احتلالكم البلاد فى تقويض أركانها »

وربما كان للخديو ومصطفى كامل ولكثير من المصريين يومئذ العذر فى اعتمادهم على أوربا والتجائهم الى بعض دولها لمناوأة البعض الآخر . فلم تكن سياسـة أوربا الاستعماريه قد استقرت يومئذ

على أساس ارتضته دولها الكبرى واطمأنت معه كل واحدة منها الى أنها نالت من الغنيمة الحظ الذى يكفيها والتى تكفى قواها للدفاع عنه ولاستغلاله وامتصاص دمه . بل كانت المنافسات ماتزال على أشدها بين انكلترا وفرنسا . وكانت المانيا الناشئة متطلعة الى مثل الامبراطورية البريطانية . وكانت النمسا تنظر الى ماضيها بعين الوجل اذ تراه يرتجف . وكانت سياسة الباب العالى فى الاستانة قائمة على الاستفادة من هذه المنافسات الدولية . فلم لا تقوم سياسة مصر على هذه القاعدة أيضاً ؟ ولم لا تستفيد مصر من تطلع هذه الدول جميعاً اليها لتتخلص منها جميعاً ولتصل الى نوع من الحيدة يكفل لها ولو الاستقلال الداخلى الواسع النطاق الذى وصل اليه اسماعيل باشا ؟ .

والواقع أن فرنسا كانت ماتزال دامية الجرح لفشل سياستها بمصر بعد إحجامها عن الاشتراك مع انجلترا فى احتلال المسلح سنة ١٨٨٢ . وكان ألمها أشد لأن هذه الضربة كانت فى حكم القاضية على مانالته فى وادى النيل من نفوذ منذ حملة نابليون فى سنة ١٧٩٨ ، ومنذ اصطفائها محمد على وسعيد من بعده، ومنذ قيامها بحفر قناة السويس ونشر الثقافة الفرنسية فى بلاد الفراعنة . وزاد الجرح ايلاما أن الفشل لم يقف عند مصر بل تناول نفوذ فرنسا فى الشرق الاقصى بسبب تغلب انكلترا عليها فى الهند وفى غير الهند من الممتلكات.

وقد أراد الخديو مستتراً وأراد مصطفى كامل أن يستفيد من هذه السياسة غاية الاستفادة. وكانت القاعدة التى رسمت أن تطالب الدول الاوربية انكلترا بتنفيذ وعدها بالجلاء عن مصر ،

وأن تدفع الدول الاوربية الى هذه المطالبة ببيان ماتقوم به انكلترا في وادى النيل من أعمال تدل على قصدها البقاء فيه . وكان حديث مصطفى كامل مع كابتن بارنج خطوة أولى وخطوة قوية فى هذا السبيل . ولم تمض على هذه الخطوة أسابيع حتى استصدرت انكلترا من الحكومة المصرية دكريتو بتأليف محكمة مخصوصة تحاكم المصريين الذين يعتدون على جنود جيش الاحتلال أو ضباطه. وانتهز مصطفى كامل الفرصة للاستفادة من هذا الحادث أيضاً . ثم كان أن جاء مسيو دلونكل عضو مجلس النواب الفرنسى الى مصر فى ٢١ مارس سنة ١٨٩٥ . ولعله وحده، بل لعل الحكومة الفرنسية وحدها لم يكونا كل السبب فى حضوره . وقد استقبله مصطفى كامل بالاسكندرية وظل معه يصل بينه وبين المصريين من الطبقات المختلفة حتى غادر مصر عائداً الى بلاده فى ١٣ ابريل من ذلك العام. وفى يوم ١١ ابريل أولم دلنكل للصحفيين بالاسكندرية وخطبهم فرد عليه مصطفى كامل شاكراً اياه وشاكراً فرنسا منتظراً منها معونة مصر وتأييدها .

ويذكر المرحوم على بك فهمى كامل فى السيرة التى وضعها لأخيه أنه بعد أيام من ذلك وساعة سفر على مع الاورطة البيادة الأولى أسر اليه مصطفى بأنه مسافر الى باريس . وقد دهش على لهذا السفر المفاجىء على غير ميعاد وبلا سبب . وربما دهش له لسبب آخر حين ذكر له أخوه أن سفره انما تدعو اليه « المسألة المصرية » لما يقتضيه هذا السفر وهذه المسألة والدعوة لها من طائل النفقة . وسافر مصطفى الى باريس . والحق أنه قام بالدعوة فيها بطريقة

تدل على مهارة لا تتاح لفرد ، بل تدبرها جماعة ، وعلى نشاط لا يؤتاه كثيرون . فذكر بديا أنه موفد من قبل الحزب الوطنى المصرى . والحزب الوطنى على ما نعرفه نحن اليوم وعلى ما خلقه مصطفى كامل فى سنة ١٩٠٨ لم يكن له وجود فى سنة ١٨٩٥ . لكن الحزب الوطنى هو الاسم الذى كان يطلق على العرابيين . واذن فهو يذكر الفرنسيين بهذا الحزب الذى تغلب عليه الانكليز وحدهم حين تنحى الفرنسيون عن وادى النيل .

ثم أنه جعل أساس دعوته فضلا عن ذلاقة لسانه لوحة فنية بديعة لم يذكر لنا مؤرخوه من الذى نقشها ومن الذى أمر بنقشها ، وتمثل هذه اللوحة فرنسا واقفة فى قوس نصر قام على نصب رفيع يجرى النيل من تحته ، وقد قامت مصر على شاطئه مقيدة يحرسها جندى بريطانى ، وتقدم جماعة من المصريين الى فرنسا يستنجدونها لتفك أسار وطنهم . ونقش على اللوحة بالعربية وبالفرنسية هذه الابيات :

أفرنسا يامن رفعت البلايا عن شعوب تهزها ذكراك
انصرى مصر ان مصر بسوء واحفظى النيل من مهاوى الهلاك
وانشرى فى الورى الحقائق حتى تجتلى الخير أمة تهواك

ومن هذه اللوحة طبعت الوف وزعت فى انحاء العالم ونشرت فى كل صحيفة بعد أن قدمها مصطفى كامل بعريضة الى رئيس مجلس النواب الفرنسى نيابة عن المجلس . ومما جاء فى هذه العريضة قوله : « جاءت الامة المصرية تستغيث بهذه الامة الكريمة — فرنسا — التى حررت عدة من الامم ، فهل تجاب الى استغاثتها وتضرعها ؟

وهل فرنسا أن تؤيد بهذا العمل الجليل مكانتها فى العالم الاسلامى الواثق بها ؟ على ان ذكر اسم مصر عندماتكون حرة مستقلة بجانب الامم العديدة التى حررتها فرنسا ليس بالفخار القليل لها .. فلتحى فرنسا محررة الامم » .

كان لهذا العمل الذى قام به مصطفى كامل نيابة عما سماه الحزب الوطنى ضجة كبيرة فى العالم لفتت اليه الانظار من كل صوب وجعلت الصحف فى مختلف الدول تهتف باسمه ، خلا الصحف الانكليزية التى تناولت هذا العمل بالتقريع وعزته الى مقامات خاصة فى مصر . وشد هذا النجاح الاول من عزيمة مصطفى كامل ومكن له من الاتصال بكبار الساسة ومازال فى مقتبل شبابه . وزاده جرأة واقداما فجعل يطوف عواصم أوربا يتحدث فيها الى الصحفيين والساسة مذكراً أياهم بوعود انكلترا بالجلاء عن مصر وبصالح دولهم فى أن يتم هذا الجلاء . ثم عاد الى باريس فنشر فيها رسالة عن أخطار الاحتلال الانكليزى لمصر . وفى ١٣ نوفمبر سنة ١٨٩٥ كتب الى لورد سالسبرى رداً على خطاب كان الوزير الانكليزى قد القاه فى جلدهول عن سياسة أوربا نحو تركيا . وفى خطابه دافع مصطفى كامل عن المسلمين وعن دولة الخلافه . وفى ٣ يناير سنة ١٨٩٦ كتب الى المستر جلادستون يطلب اليه ، رغم وجوده بعيداً عن الحكم ، تصريحاً فى شأن مصر . فأجابه جلادستون بخطاب وردت فيه العبارة المأثورة : « وافى زمن الجلاء فيما أعلم منذ سنين » . وعاد بعد ذلك الى مصر حيث أقام بها حتى أغسطس اذ شد رحاله الى أوربا من جديد . وأثناء مقامه بمصر ألقى خطابه الاول

بالاسكندرية كما كثر المتصلون به من المصريين . وفى هذه الفترة أيضاً نشرت له جريدة الاكلير الفرنسية التى تصدر بباريس حديثاً عن الحملة المصرية الانكليزية الى السودان معتبراً اياها وسيلة الى اطالة أمد الاحتلال الانكليزى اطالة لانهاية لها . وفى هذه الفترة أيضاً اتصل علنا بالخديو اتصالا زاد العلاقات بين لورد كروس وعباس توتراً . ثم سافر فى أول أغسطس الى باريس حيث استمر هناك فى نشر الدعوة لمصر على أمل أن يحمل فرنسا وغيرها من دول أوربا على التدخل لمصلحتها . وفى هذه المرة كان يذكر الخديو عباس وميوله نحو مصر وان « خطته هى انتظار الظروف ليستمد أحسن استعداد للوثوب والنزال لاسترداد حقوق البلاد المهضومة» . ولم يغفل ذكر المسلمين والخليفة ، وبعد أن قام بنشر الدعوة فى باريس سافر الى برلين ومنها الى فينا فالاستانة حيث وصلها فى أواخر أكتوبر وقابل فيها جلالة السلطان . قال فى كتاب له الى أخيه على فهمى كامل «وكان جلالته، كما أبلغنى الباشكاتب، يود الانعام على برتبة أو نيشان ولكنى أظهرت عدم رغبتى فى شىء من ذلك حتى لا أروج بضاعة الاعداء ضدى ويتهمنى أبناء الوطن العزيز بالعمل حبا فى الظهور وفى مثل هذه الالقاب الكاذبة »

وكذلك جعل من أوربا ميدان نشاطه السياسى فكان يقضى فيها معظم شهور السنة متنقلا بين عواصمها متحدثا الى رجال الصحافة والسياسة فيها داعياً إياهم ليستوفوا انكلترا وعودها بالجلاء عن مصر متحدثاً عن المصريين تارة وعن المسلمين طوراً، كل ذلك فى لهجة أدنى الى الاعتدال وإن وصفها الانكليز بالتطرف . وقد

بقيت من أساليبه فى الدعاية السياسية اذ ذاك تلغرافات الاحتجاج على ضرب الاسكندرية وغير ضرب الاسكندرية من الحوادث التى أدت الى الاحتلال البريطانى لمصر . لكن السياسة الانكليزية من جانبها كانت جادة فى السعى لتحقيق ما أفضى به الكولونيل بارنج الى مصطفى كامل مما نشره فى يناير سنة ١٨٩٥ . فكانت الحملة لاسترداد السودان واسترداده بالفعل وعقد اتفاقية ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ وفتور الدول وفى مقدمتها فرنسا عن القيام بأى سعى جدى لمناوأة انكلترا فى مصر . ولكن ذلك لم يفت فى عضد مصطفى كامل ولم يضعف من نشاطه واقدامه وإن يكن قد دعاه أو دعا الذين يعمل معهم للتفكير فى وسائل أخرى . وكان الالتجاء الى الباب العالى بعض هذه الوسائل .

ولعل التفكير فى هذا الالتجاء كان من أثر انتصار الدولة العلية فى الحرب البلقانية . وفى هذه الاثناء كثر تردد مصطفى كامل على الاستانة وازداد اعجاب السلطان عبد الحميد به فانعم عليه فى سنة ١٨٩٩ برتبة المتمايز ثم بالرتبة الاولى ، وذلك فى ظرف شهرين اثنين كما أنعم عليه برتبة الباشوية بعد ذلك بسنين قلائل

ولم يكن فى مقدور تركيا أن تقاوم انكلترا فى مصر أكثر مما تقاومها أية دولة من الدول الاوربية . وهذه الظروف مجتمعة دعت مصطفى كامل والذين يعمل معهم ليروا عقم سياسة الاقتصار على نشر الدعوة فى أوربا وحدها والاعتماد على الدول لاجلاء انكلترا عن مصر ، وليفكروا فى استنهاض الشعب المصرى نفسه بالتعليم وبدعوته لتقدير عزته القومية وكرامته الوطنية . وبهذه الفكرة

تأسست مدرسة مصطفى كامل فى سنة ١٨٩٩ وصدرت جريدة اللواء فى ٢ يناير سنة ١٩٠٠ . ومن ذلك الحين قامت سياسة مصطفى على أساس من توثيق عرى روابط مصر بتركيا باعتبارها الدولة المتبوعة من جهة والدولة الاسلامية القوية التى يمكن أن تتجه الشعوب الاسلامية لها بالرجاء من جهة أخرى. أما فيما يتعلق بسائر الدول الاوربية فقد ضعف رجاؤه فيها وان ظل مستمسكا منه بخيوط لعلها كانت بقية ذلك الامل القوى القديم الذى جعله يرفع صوته عالياً خمس سنوات تباعاً فى عواصم أوربا ، أو لعلها الحرص الطبيعى فى الانسان على ألا ينكر شيئاً من ماضيه . أما سياسته فى استنهاض الشعب المصرى فكانت تقوم على غرس الكراهية فى نفوس المصريين للانكليز وحكمهم مصر وملء النفس المصرية بالايمان بحق الوطن وبالتفانى فى محبته والاخلاص له وبالأمل دائماً فى ثمرة السعى الصالح لفائدته .

وعجيب مع ذلك كله، ومع أن مصطفى كامل كان ذكياً جريئا ، ومع أنه أمضى ما أمضى من السنين فى أوربا ، ومع إعجابه بالمدنية الأوربية اعجابا تكرر ذكره فى كتبه ورسائله — عجيب مع ذلك أنه كان رجعيا فى دعوته الاجتماعية . فلقد ظهر كتاب المرحوم قاسم أمين عن تحرير المرأة فى سنة ١٨٩٩ . وكان منطقيا أن يلقى التأييد الحار من جريدة الزعيم الشاب أول ظهورها فى يناير سنة ١٩٠٠. لكن الأمر كان على نقيض ذلك . فقد كان اللواء خصما لدوداً لقاسم أمين ولأفكاره وكان ميدانا لأشد المطاعن عليه . وظل اللواء كذلك فى شأن الاصلاحات الاجتماعية كلها محافظا بل رجعيا

مستمسكا بالقديم أشد الاستمساك . ولئن جاز لنا أن نعلل خصومته لقاسم أمين بما لقيه قاسم من تجهم الخديو له تجهماً حرم عليه وهو مستشار بمحكمة الاستئناف أن يدخل القصر فأن تعليل رجعية اللواء فى الشؤون الاجتماعية قد يبدوا عسيراً إلا اذا كانت العلة هى بعينها التى دفعت الأمير ورجاله للوقوف فى وجه قاسم وأفكاره. هذه العلة فى رأينا هى تمليق الشعب فيما هو عزيز عليه من عادات وأوهام لاستغلاله فى الغايات السياسية التى يريد الأمراء والملوك استغلاله فيها . وتلك هى علة تمليق الأمراء والملوك والدعاة السياسيين لرجال الدين لأنهم حفظة هذه العادات والاوهام. فلو أن عباسا أو لو ان مصطفى كامل عضد قاسما فى رأيه فى تحرير المرأة لأدى ذلك لفتور الشعب عنهم وتردده فى اتباعهم .ولو أن عباسا أو لو أن مصطفى كامل أراد أن يهز أوهام السواد فى الناحية التى تعرض الشيخ محمد عبده لهزها لفتر الشعب كذلك وتردد. والداعية السياسى تاجر يزن الامور والحقائق بنتائجها لا بقيمتها الصحيحة ولا بما تحتويه . وما دام غرس كراهية الاحتلال البريطانى فى نفوس المصريين وملء قلوبهم بالايمان الوطنى يعوق سبيل الدعوة للاصلاح الاجتماعى فليكن الداعية السياسى وليكن الامير محافظا بل رجعيا بل عدواً ظاهراً محاربا لكل فكرة حرة .

ونجحت دعوة مصطفى كامل أعظم نجاح . ذلك بأن نفوس الشباب فى مصر كانت متعطشة الى نغمة جديدة تحيي فيها الامل بحياة عزيزة . وكانت هذه النغمة قد اختفت منذ الحوادث العرابية الى ان جاء مصطفى كامل . وبرغم وجود كثيرين ذوى مقدرة

لا تقل عن مقدرته وذوى تفكير انضج من تفكيره ، فلم يكن أحد منهم فى اقدامه ولم تكن حمية الشباب ملتهبة فى نفس التهابها فى نفسه . وعاون على نجاحه أسلوب جديد فى الخطابة لم يكن مألوفاً من قبل ، هو الاسلوب الوجدانى الذى امتازت به خطابات الثورة الفرنساوية . هذا الاسلوب المعتمد على الجمل الضخمة التى تندفع بها الجماهير من غير روية عادة الى الغاية التى يريدها الزعماء .

« لا معنى للحياة مع اليأس ، ولا معنى لليأس مع الحياة »

« بلادى بلادى ، لك حبى وفؤادى ، لك حياتى ووجودى ، لك دمى ونفسى ، لك عقلى ولسانى ، لك لبى وجنانى ، فأنت أنت الحياة ، ولا حياة إلا بك يا مصر » « لو انتقل قلبى من الشمال الى اليمين .. الخ » بهذا الاسلوب الوجدانى وبقوته الخطابية النادرة المثال وبمخاطبته شعور الشبيبة وباستنهاضه هممها وبأناشيده عن الوطن ومحبته وارتقائه ، بذلك كله استطاع الزعيم الشاب ان ينهض باعباء دعوته مؤيداً من الخديو عباس وأصدقائه بادىء الامر ، شاعراً بقوته بعد ذلك ، ممليا ارادته على الذين كانوا يملون من قبل عليه ارادتهم ، مستأثراً بكل أمر وبكل رأى ، مطاعا من كل أنصاره واتباعه الذين لم يتسام واحد منهم ليتطلع الى مثل مكانته ، متقدما دائماً الى الامام يتبعه شباب الامة كلها ، رافعا بذلك علم النهضة مردداً نشيد الامل فى المجد والعظمة بصوت تهتز له الافئدة وتخفق له الجوانح فلا تعرف الخطر ولا تأبه له ولا تشعر باقترابه بل بوقوعه

بازاء هذه الحركة الوطنية المتدفقة حرارة وايمانا لم يكن لانجلترا إلا ان تضاعف المجهود لبلوغ غاياتها السياسية فى مصر .

ولم يكن لورد كرومر ممثلها فى مصر يومئذ بالرجل الذى يستهان به . فحارب هـذه الحركة وطعنهـا من جانبين . إتهمها بالتعصب الاسلامى ليستثير أوربا المسيحية. واتهمها بالعداوة للاجانب ليؤلب الدول فى صف انجلترا . وما أيسر ما تصدق الاذن الاوروبية كلمة التعصب الاسـلامى وعداوة المصريين المسلمين للاجانب المسيحيين . لذلك انفق مصطفى كامل كثيراً من جهوده فى مصر وفى أوربا لنفى التهمتين ، وكان من ذلك ان أنشأ جريدتين فى مصر احداهما فرنسية والاخرى انكليزية . على ان انكلترا لم تقف من مجهوداتهـا عنـد هـذا الحد . بل واصلت المسعى السياسى حتى اعقدت الاتفاق الودى مع فرنسا فى ٨ يناير سنة ١٩٠٤ وبه حصلت على اطـلاق يدها فى مصر على ألا تغير نظام مصر السياسى . وأقرت ألمانيا والنمسا هذا الاتفاق ، فأقرت الدول الثلاث بذلك معاهدة السودان التى عقدت فى سنة ١٨٩٩ . وبهذا الاتفاق الودى أنهار ركن من أهم أركان سياسة مصطفى كامل . بل أنهار مجهوده منـذ سنة ١٨٩٥ الى سنة ١٩٠٠ حين كان كل عمله التجوال فى عواصم أوربا لاستفزاز دولها كى يقتضوا انكلترا تنفيذ وعودها بالجلاء عن وادى النيل .

والواقع أن هذا الحادث صدم المصريين يومئذ صدمـة قوية . فرنسا هذه التى طالما علقت مصر عليها الآمال ، فرنسا التى رفعت البلايا عن شعوب تهزها ذكراها ، فرنسا محررة الامم ومعلنـة حقوق الانسان والمنادية بالحرية والاخاء والمساواة ، هى التى تمضى الاتفاق الودى تؤيد به سياسة الاستعمار فتترك انكلترا

تطلق يدها فى مصر مقابل ترك انكلترا اياها تطلق يدها فى مراكش!! ياخيبة الأمل ! وأين إذن عمل الرجاء؟

لـكن «لامعنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة» ! فلنجاهد . واستمر مصطفى كامل فى جهاده، وما يزال له فى دولة الخلافة بعض الرجاء وما تزال دعوة الشعوب الاسلامية للالتفاف حول دولة الخـلافة كوسيلة لتحررها محور دعوته . فلما كانت أوائل سنة ١٩٠٦ حدث ما زعزع من رجاء مصر فى الدولة العلية هى الاخرى. ذلك أن أعادت تركيا الخلاف الذى أحدثته حين تبوأ عباس عرش أبيه فى سنة ١٨٩٢ بأن أرادت أن تخرج شبه جزيرة سينا من الاراضى المصرية، فوقفت انكلترا وأصرت على أن تكون حدود مصر هى المبينة فى الفرمان الذى أصدره السلطان لاسماعيل باشا فى سنة ١٨٧٣. وقد قبلت تركيا ذلك فى تلغراف أرسله الباب العالى فى ٨ يناير سنة ١٨٩٥ . لكنها أرادت أن تفسر هذا التلغراف فى سنة ١٩٠٦ تفسيراً خاصاً فتجعل حدود مصر تنحدر من رفح الى السويس فالى العقبة . فوقفت انكلترا مرة أخرى . ولما احتلت القوة التركية طابة ، وهى قرية على مقربة من العقبة داخلة ضمن الحدود المصرية ، خاطب السير ادوارد جراى وزير الخارجية البريطانية اذ ذاك سفير تركيا فى لندرة بما معناه: إن قوات الامبراطورية على استعداد لتاييد مركز انكلترا فى مصر . وقد استمرت المشادة فى هذا الموضوع بين تركية وانكلترا زمناً وقف أثناءه مصطفى كامل بجانب تركيا يدافع عن مطالب دولة الخلافة جهد طاقته. على ان تركيا انتهت آخر الامر بالتسليم بمطالب

انكلترا ، فكانت هزيمة مسقطة لكل امل فى معونة تركيا . وكذلك تداعى الركن الثانى من أركان الدعوة التى كان مصطفى كامل قائماً بها.

ولقد كان من شأن تداعى هذه الاركان واحداً بعد واحد أن يكشف عما تستره هذه السياسة من الخيال. على أن حادثاً جديداً وقف فيه مصطفى كامل موقف المدافع عن العدالة والانسانية بمعناها الصحيح ستر ما انكشف من فساد الاعتماد على أوربا وعلى الباب العالى . ذلك هو حادث دنشواى . فقد خرج جماعة من الضباط والعساكر الانكليز من القاهرة قاصدين الاسكندرية فروا فى طريقهم بقرية دنشواى فنزلوا لصيد الحمام بأجرانها . واعترضهم الاهالى وحدث تصادم انتهى بجرح أربعة من المصريين بينهم امرأة وباصابة بعض الضباط الانكليز اصابة فر من جرائها أحدهم الكابتن بول فأصابته ضربة شمس مات متأثراً بها . وعلى أثر هذا الحادث عقدت المحكمة المخصوصة التى شكلت بديكريتو سنة ١٨٩٥ لتنظر فى هذه القضية وحكمت على أربعة من الاهالى بالاعدام وثمانية بالجلد وآخرين بالاشغال الشاقة ، ونفذ هذا الحكم بطريقة همجية لا عهد للانسانية بها منذ عصورها المظلمة . فقد نصبت المشانق التى أرسلت الى قرية دنشواى قبل صدور حكم المحكمة أمام منازل الاهالى مباشرة ونصبت الى جانبها آلات الجلد . وغداة صدور الحكم نفذ على صورة يقشعر من هولها البدن . فكان كل محكوم عليه بالاعدام يعلق فى المشنقة ويبقى معلقا أمام أنظار أهله وأبنائه الى أن يجلدوا اثنين من المحكوم عليهم بالجلد . وكان هؤلاء يجلدون بكرابيج ذات ثمانية ألسن معقود طرف كل لسان منها بقطعة من الرصاص . ومن حول المشانق والمجالد

وفوق أسطح المنازل وقف الناس من أهل هؤلاء التعساء وذويهم يشهدون جلودهم تشوى بالكرابيج وجثثهم فارقتها أرواحها معلقة فى المشانق، ومستشار الداخلية الانكليزى واقف يحافظ على النظام لهذا المشهد الذى ابدعته انكلترا فى مطلع القرن العشرين . ما أشدها وحشية وما اتعسها حضارة ! هنا يجب أن يرتفع الصوت عاليا دفاعا عن الرحمة وعن الانسانية وعن العدالة وعن كل المعانى التى جاهدت الانسانية أجيالا وقرونا لتثبيتها فى النفوس . وأى صوت أرفع من صوت مصطفى كامل ، وأى أسلوب وجدانى كاسلوبه ! وهذه الدعاية السياسية التى فشلت بأزاء قوة انكلترا فى أوربا وفى مصر لابد أن تنجح اذا استغلت لكشف هذا الظلم وللاستفادة منه لتحريك النفوس . وقد نجح مصطفى كامل فى هذا اكبر نجاح . والحق انه لم يرتكب فى التاريخ الحديث فظاعة تعدل فظاعة تنفيذ حكم دنشواى، ولم تثر حادثة من الحوادث الشعور القومى فى مصر ما أثارته هذه الحادثة. ولقد صدق مصطفى كامل اذ قال : إن عشرات السنين كانت أقصر من أن تحيي شعور الشعب كاأحياه هذا الحادث . لذلك ظل يكتب ويخطب فى مصر وفى انكلترا بيانا لبشاعة هذا الظلم الذى بلغ من بشاعته ان اضطر لورد كرومر الى اعتزال منصبه فى مصر مع أعتراف الكل له بأنه من أقدر الساسة البريطانيين وأعظمهم أثرا فى حياة الامبراطورية .

على أن المصريين كانوا قد رأوا فشل السياسة الاولى التى جروا عليها : سياسة الاعتماد على فرنسا ثم على أوربا ثم على الباب العالى ، وقدر جماعة منهم أن لابد من الاخذ بسياسة أخرى هى اعداد

الامة بأدوات الاستقلال من علم وخلق وغرس الايمان بنفسها فى نفسها لامجرد كراهية الانكليز ولاحباً فى تباب العالى ومقام الخلافة السامى ، ولـكن حباً فى الاستقلال والحرية لذاتهما . وكان لطفى بك السيد وزير المعارف السابق لسان الذين فـكروا هـذا التفكير والذين اعتزموا لبث دعوتهم أصدار جريدة «الجريدة» . على أن نفس مصطفى كامل لم تطاوعه ليرى فى ميدان الخدمة السياسية العامة من يرى غير رأيه . لذلك هاجم « الجريدة » قبـل صدورها وهو من أعرف الناس بصديقه لطفى السيد وبالذين كانوا على رأيه . ولعـل هـذا الخلق فى الزعيم الشاب هو الذى دعاه أن يبعث من أوربا على أثر اعلان المرحومين سعد زغلول باشا وقاسم بك أمين تشكيل لجنة لتأسيس جامعة مصرية أهلية محتجا على عملهم بأنه سبقهم الى الفكرة فيجب أن يكون تنفيذها تحت رعايته .

وخلف سـير الدون جورست لورد كرومر كمتمد لانكلترا فى مصر ، جرى مع الخديو على سياسة غير سياسة المشادة والنزاع التى كانت سائدة بين عابدين وقصر الدبارة الى ذلك التاريخ، وطمع الخديو فى أن ينال من وراء هذا الاتفاق مع معتمد بريطانيا سلطة لعل السعي لها هو الذى دفع به لاصطفائه من اصطفى من الشـبان ليعملوا باسم مصر كى يخليها الانكليز فتبقى السلطه فيها محصورة فى يد حفيد اسماعيل . وغير ذلك من الخديو على مصطفى كامل. وذلك شأن الملوك . يصطفون من يصطفونه مادام لهم فى ذلك مأرب خاص. فاذا انقضى المأرب انصرفوا عنه وانكروه . ثم أن مصـطفى رأى دعوة لطفى السيد الى الاسـتقلال التام أبعد مدى من الدعوة الى

جلاء انكلترا وبقاء مصر تابعة لتركيا . لذلك قال فى الخطبة البديعة التى ألف بها الحزب الوطنى والقاها فى تياترو زيزينيا بالاسكندرية مانصه : « فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال ونطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى أصواتنا وعلى مسمع من أمم الارض كلها . وأننا اذا خطبنا الود لامة أو لدولة فانما نعمل كثيرنا ونتبع ناموس الطبيعة القاضى بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون » . ومع هذه الكلمة الصريحة فى المطالبة بالاستقلال والحرص عليه كانت الفقرة الاولى من برنامج الحزب الوطنى هى استقلال مصر الداخلى وفاقا لمعاهدة لندره فى سنة ١٨٤٠ . ولعل ذلك انما نص عليه تفاديا من معارضة القانون والتعرض لتهمة التآمر لقلب النظام الذى كان موجوداً .

ولم يوهن فتور العلاقات بين مصطفى كامل والخديو ولا الخلاف بينه وبين الاحزاب المصرية الأخرى من همته العالية فى الدفاع عن منكوبى دنشواى . وقد كلل مسعاه بالنجاح فصدر الامر العالى بالعفو عنهم فى عيد جلوس الخديو الذى تلا هذه الحوادث أى فى ٨ يناير سنة ١٩٠٨

* * *

بعد ذلك بشهر واحد كان مصطفى كامل على سرير المرض ينتظر الموت فى ثبات وصبر ، والامة من حوله تخفق قلبها فرقاً على هذا الابن البار الذى اذكى ضرام الوطنية فى شبيبتها . فلما كان يوم ١٠ فبراير اطبق الموت جفنى الزعيم الشاب ومايزال فى مقتبل عمره ، ولما يبلغ الخامسة

والثلاثين . لكن هذه السنوات الثلاث عشرة التى جاهد فيها مصطفى (من ١٨٩٥ ـ الى ١٩٠٨) هى فى الواقع حياة طويلة، لانها حياة جليلة بنشاطها وبأعمالها جليلة بإيمانها وسعيها وفى عصر ذلك اليوم بينا أنا جالس مع زميل لى من طلبة الحقوق مر بنا من نعى الزعيم لنا • وفى اليوم التالى خفق قلب مصر من أقصاها الى أقصاها حزنا عليه وحزنا ألا تخلفه من يكون مثله ذكاء ومقدرة وقوة ايمان .

وودع مصطفى هذا العالم وقد عمل لوطنه فى عشر سنوات مالم يعمله غيره فى عشرات السنين، بل مالم تعمله اجيال بأسرها . لذلك بقيت ذكراه تحييها مصر كل عام • ومن حيث ذكراهم فأولئك لهم الخلد على ضمير الدهر وكفى بذلك جزاء موفوراً •

قاسم بك أمين

كلما ذكر اسم قاسم أمين ذكر معه تحرير المرأة فى مصر . فأول صيحة ارتفعت لهـذا التحرير هى صيحة قاسم فى كتابيه : « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » . وعلى أثر هـذه الصيحة قام جدل عظيم فى الموضـوع ما تزال حواشيه باقية الى يومنا هـذا . مع ذلك ، ومع أن قاسما لم يمت الا من عشرين سنة ، فلو انه بعث اليوم ورأى من آثار دعوته هذا التعليم الاجبارى للبنين والبنات ، وهذه النهضة النسوية العظيمة فى مختلف جوانب الحياة ، وهـذه الحرية النسبية التى تتمتع بها المرأة ، وهذا الاصلاح فى التشريع للاحوال الشخصية ما تم منه وما يوشك أن يتم ، اذن لأخـذته الدهشة ، ثم لانقلبت دهشته اغتباطا أى اغتباط بهـذه الآثار ، ثم لعقب سروره أسف على ما اضطر اليه فى كتبه من محافظة ألزمه اياها روح عصره الجامد . ثم لترك ميدان المرأة وتحريرها يسـير فى طريقـه الطبيعى ، ولفـكر فى ميدان آخر من ميادين الاصـلاح الاجتماعى الخطير الذى يحتاج مصر اليوم اليه أشد الحاجة . ولعـل الادب القومى وخلقه وتوطيده والارتفاع به الى سموات الانتاج الذاتى الخصيب يكون بعض الميادين التى يصرفه اليها بطل الجامعة المصرية منذ تأسيسها وأحد واضعى أسس هـذا الادب القومى فى كتبه الثلاثة كل ما يكون لديه بعد بعثه من نشاط وجهد .

(اقرأ عن قاسم امين ايضاً فى « اوقات الفراغ » من ص ٩٦—١٤٨)

ذلك بأن روح قاسم كانت روح أديب، كانت الروح العصبية الحساسة الثائرة التى لا تعرف الطمأنينة ولا تستريح الى السكون ، وكانت الروح المشوقة التى لا تعرف الا نزواءً فى كن للبحث والتنقيب حيث تلبى نفسها وتستبدل بكنها ما فى حياة الكون وحركته من نشاط وجمال . بل كانت عيونه الواسعة تريد أن ترى جدة الوجود الدائمة تتكرر مناظرها فتطبع على صفحات نفسه وحياً وإلهاما أكثر مما تؤدى اليها المباحث الجافة منطقا وجدلا . وكانت هذه المناظر تذكى شعوره الحساس بجمال الحياة ، وتدعوه الى الحرص على متاعه بها وعلى دعوته غيره لهذا المتاع . وذلك لا يؤتاه الا رجل فن جميل لا يقف عند التلذذ لنفسه بنعم الحياة، بل يعبر لغيره عن معانى هذه النعم ! وكما يعبر الموسيقى بالنغم والمصور بالنقش والمثال بالنحت والشاعر بالوزن ،كذلك الكاتب الاديب يجد فى وصف ما فى الحياة من مختلف ألوان الجمال ما يعبر عن شعوره به وما يدعو غيره اليه . وحياة قاسم كانت كلها متجهة الى هذه الدعوة .وكانت متجهة اليها بقوة آخذة بنفسه متغلبة عليه حالة منه محل الايمان بها ايمانا صادقا

ولد قاسم مصريا يجرى فى عروقه دم كردى ، أورثه اياه جده الامير الكردى . وولد فى أسرة متوسطة اليسار لم يفسدها ترف الا كبار ولم تجن عليها آثار الحاجة . وتربى منذ نشأته تربية أمثاله، ثم سافر الى فرنسا حيث درس الحقوق وعاد فى سنة ١٨٨٥ . وليس فى ظروف صباه شىء غير عادى الا أنه كان جم الحظ من الحياء مما ألزمه العكوف على نفسه وعلى درسه . وليس فى حياته بعد ذلك شىء من المجازفات التى تجذب لاصحابها أنظار الجماهير ، بل ظل منذ

أتم دراسته الى أن عاجلته منيته سنة ١٩٠٨ وهو فى ريعان قوته قاضياً ثم مستشاراً بمحكمة الاستئناف . لكنه كان مع حيائه الجم عيوفا يحترم نفسه وكرامته كما يحترم الغير وحريته ، فلم يجرب عليه أحد ضعة ولا ضعفا . ولعل أقدس ما كان يجله من مظاهر الحرية حرية الرأى . وتلك ظاهرة كثيراً ما تلقاها فى ذوى الحياء . فهم مع احترامهم لغيرهم ولحريته ومع مبالغتهم فى هذا الاحترام الى حد يهون معه عليهم أحيانا أن يتحملوا سوء استعمال الغير لهذه الحرية الى حد يضايقهم ، تراهم اذا أراد مريد حبس رأيهم أو محاربته توترت كل أعصابهم وانتفضوا انتفاضة الليث تبدو أنيابه ومخالبه ووقفوا مستميتين يذودون عن رأيهم ويستهينون فى سبيل ذلك بالمال والجاه وبالحرية والحياة . وذلك سر نجاحهم دائما . على أنهم لذلك لا يصدرون عن الرأى إلا بعد تمحيصه وتقليبه على مختلف وجوهه والاقتناع به اقتناعا يحل منهم مكان الايمان . وهذا ما عبر عنه قاسم فى مقدمة كتابه « تحرير المرأة » حين قال : « هذه الحقيقة التى أنشرها اليوم شغلت فكرى مدة طويلة كنت فى خلالها أقلبها وأمتحنها وأحللها حتى اذا تجردت من كل ما كان يختلط بها من الخطأ استولت على مكان عظيم من موضع الفكر منى ، وصارت تشغلنى بورودها وتنبهنى الى مزاياها وتنبهنى بالحاجة اليها ، فرأيت أن لا مناص من ابرازها من مكان الفكر الى فضاء الدعوة والذكر » .

وهذا الخلق فيه هو الذى جعله منذ عودته من دراسة الحقوق بفرنسا الى خاتمة حياته قاضياً ممتازاً . فهو لم يقض يوما لينال حظوة عند أحد أو ليصفق الجمهور له . ولم يكن من بين القضاة الذين قال عنهم:

« أعرف قضاة حكموا بالظلم ليشتهروا بين الناس بالعدل . » ولم يتقيد في قضائه بآراء الفقهاء أو أحكام المحاكم مما يعتبره أكثر القضاة حجة لا محيد عنها . بل لم يتقيد بنص القانون اذا لم يصادف هذا النص مكان الاقتناع منه . وهذا هو ما جعله ميالاً للرأفة في قضائه نافراً أشد النفور من حكم الاعدام . فقد كان يرى « أن العفو هو الوسيلة الوحيدة التي ربما تنفع لاصلاح المذنب » وأن « معاقبة الشر بالشر اضافة شر الى شر » وأن « التسامح والعفو عن كل شيء وعن كل شخص هما أحسن ما يعالج به السوء ويفيد في اصلاح فاعله » و « أن الخطيئة هي الشيء المعتاد الذي لا محل للاستغراب منه والحال الطبيعية الملازمة لغريزة الانسان » . فاذا كانت الجماعة لم توفق بعد لادراك هذه الأفكار وكانت قوانينها التي وكل اليه تطبيقها كقاض ما تزال تجري على سنة القصاص والانتقام وما تزال دموية متوحشة ، فلا أقل من أن يتحاشى الاعدام وهو أشد ما فيها وحشية ، وهو العقوبة الوحيدة التي لا سبيل لاصلاحها اذا ظهر خطأ القاضي أو ثابت الجماعة الى رشدها ورأت تعديل أساس عقوباتها بجعل العقوبة للاصلاح لا للقصاص أو أخذت بمذهب العفو والتسامح.

وكذلك كان رأيه في قضائه المدني : لم يكن يتقيد بالاجراءات اذا رأى العدالة توشك أن تهدر لأن واحداً من هذه الاجراءات لم يراع المراعاة الواجبة . ثم كان أشد القضاة ميلا لمصالحة المتخاصمين ولاحلال التسامح محل النضال والحسنى مكان الشر والسوء . وهو في هذا ككثير من القضاة والمفكرين الذين أحدثوا بأحكامهم جديداً في العدالة وفي التشريع والذين خطوا بنصوص القوانين الى معان تتفق

مع الرق الانساني الذي يصمدون اليه ويودون لو يتحقق . وأنت اذ تقرأ أحكامه تشعر فيها بهذه المعاني التي ربما خيل الى رجال القضاء بالمهنة أنها الى الادب والخيال أقرب منها الى النصوص المقدسة ، والتي كانت مع ذلك وسيلة التطور التشريعي في سبيل بلوغ العدالة منازل الكمال .

وهذه الآراء المتقدمة التي اعتنقها قاسم في نظره الى الانسان وفي تحليله نفسيته ، وهذه الاعصاب الثائرة التي تهتز لكل ما في الحياة من جمال وترجو لو يستمتع الناس به ، وتربية قاسم في وسط فرنسا الحر الذي كان متأثراً بالثورة الكبرى وبثورات سنة ١٨٣٠ وسنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٧٠ ، ذلك كله هو الذي دفعه ليعلن رأيه في تحرير المرأة مع علمه بما يثيره اعلان هذا الرأي عليه من حملات شعواء . فقد شعر قاسم بما شعر به كثيرون من الشبان الذين درسوا في أوربا من ألم لما يرونه حين مقارنة الوسط الذي كانوا فيه بالوسط الذي عادوا اليه . بل لعل هذه الحال على حد تعبير الاستاذ لطفي بك السيد « اعترته على نوع أشد مناسب لمقدار اطلاعه الواسعة ومداركه القوية ومشاعره الرقيقة . وربما استحالت هذه الحال بمساعدة ما به من الوقار الجنسي الى ملكة ينم عليها سكونه وإطراقه ويفسرها كثير من كلماته الى حد يجعل المرء يراه متطيرا أكثر منه متفائلا » . وكثيرون ممن تعتريهم هذه الحال يثورون ثم ما يلبثون أن يهدأوا اذ يرون أنفسهم عاجزين عن ان يهزوا الوسط الذي هم فيه أو يبدعوا فيه جديداً . ولعل قاسما حدثته نفسه غير مرة بالسكوت والاكتفاء بجاهه العريض وبمنصبه العظيم . ولعله كان يصف نفسه

أيضاً حين كان يقول عن الشيخ محمد عبده : « كم من مرة سمعته يؤكد أنه صمم على ألا يتداخل فى شىء من هذا القبيل ، ثم رأيته فى القلم منغمسا فيه اكثر مما كان ، ذلك لأنه ، بعكس ما يراه عموم المصريين فى أنفسهم ، كان عنده أمل لا يزعزعه شىء فى اصلاح أمته ، كان عنده اعتقاد متين بأن البذرة الطيبة متى ألقيت فى أرض بلادنا الخصبة نبتت وأزهرت وأثمرت كما نبتت وأزهرت وأثمرت بذور الفساد فيها . لهذا كان يلقى على يديه كل ما جمعه فى حياته من الافكار الصالحة والعواطف الشريفة والتعاليم المفيدة ، كأنه كان يشعر ان حياته ليست طويلة فكان يعجل ببذل جميع ما كان عنده(١) » وكذلك لم يستطع هو أن يسمع لداعى الطمأنينة الى منصبه وجاهه بعد ما رأى أن لا مناص من ابراز دعوته من مكان الفكر الى فضاء الدعوة والذكر .

وفى ظننا ان الدعوة الى تحرير المرأة من رق الجهل ورق الحجاب لم تكن كل برنامج قاسم الاجتماعى ، وانما كانت حلقة منه هى أعسر حلقاته وأعقدها . ذلك بأنه لم يقصر عليها كل جهد حياته ، بل اشتغل منذ سنة ١٩٠٦ بالدعوة لانشاء الجامعة مع صديقه سعد زغلول وشغل بهذه الجامعة وبتوطيد أركانها الى أن وافته منيته بعد ما أعد كل العدة لافتتاحها وقبيل هذا الافتتاح بأشهر معدودة . وتدل كلماته على أن برنامجه كان أوسع من مجرد تأسيس الجامعة وتركها تسير حسب ما توجهها الرياح ، وعلى أنه كان يريد أن يجعل من الجامعة خطوة لبرنامج أوسع نطاقا يتناول ثورة فى

(١) تأبين الشيخ محمد عبده

اللغة والأدب كالثورة التي أحدثها كتاباه في تعليم المرأة وفي رفع الحجاب .

ومن نافلة القول تكرار الكلام عن برنامجه في تحرير المرأة . فقد تناول الكتاب هذا البرنامج بالشرح والتحليل منذ أكثر من عشرين سنة . وكل ما يمكن لقارئ كتابيه « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » أن يقف عنده اليوم في شأن برنامجه ما اضطر اليه من تحفظ يجعل أهل هذا الجيل يرون صيحة قاسم التي كانت يوم ظهرت قوية مرعبة أن هزت أركان عادات أهل عصره لا تزيد اليوم على أنها صورة للآراء والعادات المتداولة، ونسخة من آلاف ما يكتب من نوعها وما يزيد أكثر الاحيان في تقدمها وسبقها .

ومعنى هذا ان دعوة قاسم آتت كل ثمرها فصارت بعض عقائد الناس وآرائهم . واذا كان شيء مما دعا اليه كتنظيم تعدد الأزواج وكجعل الطلاق بإذن القاضي مازال موضع النظر، فان الرجاء منعقد بتمامه عما قريب، كما أنه لم يبق من يعترضه إلا الجامدون والذين في قلوبهم مرض . على أن كتابي تحرير المرأة والمرأة الجديدة ليسا مقصورين على الدعوة " ' يم ..ر.ه وازالة الحجاب ، بل فيهما مذهب جديد في التفكير والكتابة لم يكن معروفاً من قبل قاسم ولم يسبقه اليه أحد، فيهما شيء من «الرومانتسم» التربي ومن تحليل الطبيعة الانسانية في أرق عواطفها وأدق وجداناتها . فقد كان قاسم ينظر الى عاطفة الحب نظرة عبادة وتقديس ، وكان يقول « ان العارف يعتبر العثور على الحب الشريف أكبر السعادات في هذه الدنيا . واذا كان المال زينة الحياة فالحب هو الحياة

بعينها» (١) وكان يراء غذاء روحيا لاغنى لنفس عنه فى جميع أدوار حياته . وعنده أن « كل عشق شريف . فان كان بين شريفين زاد فى قيمتهما ورفع من قدرهما . وان كان بين وضيعين أكسبهما شرفا وقتيا حتى اذا زال العشق سقطت قيمتهما وانحطت مرتبتهما ورجعا الى أصلهما» . ورجل ذلك نظره للحياة أدنى الى تغليب حكم العاطفة والى اعتبارها الهادى والمرشد الاول فى الحياة . وانك لذ تقرأ فى كتابيه ما كان صادراً عنه هو غير متأثر بجدله مع غيره أو ببحوثه الفقهية التى التجأ اليها لتبرير مذهبه بازاء الشريعة الاسلامية ، إذذاك ترى العاطفة الحية الحساسة ، عاطفة المحبة والرحمة والتسامح والسلام هى السائدة فى كل نواحى الكتاب ، وهى مقدمة كل أسبابه ونتائجه . وهل الحياة الا محبة ورحمة وتسامح وسلام ؟ وهل فى الحياة أجل من المحبة والرحمة والتسامح والسلام ؛ وقاسم يريد بالناس أن يستمتعوا بجمال الحياه وبالحياة كلها استمتاعا كاملا . وهو لا يريد هذا على أنه مجرد دعوة لمثل اسمى قد تصل الانسانية اليه وقد لا تصل ، ولكنه يريده حقيقة تتم . وهو يريده لنفسه بمقدار ما يريده للناس ، وأكثر مما يريده للناس . وأنت ترى هذا فى كلماته التى لم تنشر للناس الا بعد موته والتى كان يرصد فيها أفكاره الخاصة لنفسه . ترى فى هذه الكلمات مبلغ ايمانه بالجمال وبالحب وبالفن الجميل . وترى مبلغ ألمه لعدم تقدير بنى وطنه بدائع الطبيعة وتصوير رجال الفن لهذه البدائع . قال : « وصلنا قصر اللوفر وكنا أربعة من المصريين لنمتع النظر بأبدع ما جادت به قرائح أعاظم الرجال فى العالم . فبعد أن تجولنا فى

---

(١) تحرير المرأة

غرفتين جلس أحدنا على أحد الكراسي قائلا : أنا اكتفيت بما رأيت وها أنا منتظر كم هنا . وقال الثاني : أتبعكما لأني أحب المشي وأعتبر هذه الزيارة رياضة لجسمي ، وسار معنا شاخصاً أمامه لا يلتفت الى اليمين ولا الى اليسار ومازال كذلك حتى وصلنا قاعة المصاغ والحلى ، وحينئذ تنبهت حواسه وصار ينظر الى الذهب ثم صاح « هذا ألطف مافى هذه الدار » ووصلنا الى تمثال إلهة الجمال الفريدة فى العالم أجمع فسألت دليلنا ماذا تساوى هذه الصورة اذا بيعت ؟ فقال انها تساوى ثروة أغنى رجل فى العالم ، تساوى كل مايملكه الانسان ، تساوى مايقدره لها حائزها ويطلبه ثمناً لها اذ لا حد لقيمتها »

ومثال الجمال عند قاسم مجسم فى المرأة . واذا كانت الموسيقى وكان التصوير وكان التمثيل وكان كل مظهر من مظاهر الفنون الجميلة محبباً اليه فان مصدر الوحى الذى تصدر عنه هذه الآثار جميعاً هو المرأة هى التى تجمل للطبيعة وما فيها جمالا لأن عيونها تقع عليها ، وهى تلهم الرجل هذا الجمال لانها تحب الزهر وعطره والنسيم وأرجه والقمرى وشدوه ولانها تحب كل جميل . وقد لاترى ذلك واضحا صريحا فى كتب قاسم ، ولكنك تراه واضحا فى عباراته الملتهبة عن العشق والحب . وفيما قدمنا من عباراته فى تحرير المرأة وفى الكلمات ماينهض دليلا على رأينا . وأكثر منه فى الدلالة قوله : « كلما أردت أن أتخيل السعادة تمثلت أمامى فى صورة امرأة حائزة لجمال المرأة وعقل الرجل » وقوله : « الحب احساس عميق يستولى على النفس كلها ويجعلها محتاجة الى الاختلاط بنفس أخرى احتياجا ضروريا كاحتياج العليل الى الشمس والغريق الى الهواء ، نار تلهب القلب

لايطفئها البعد ولا يبردها القرب بل يزيدها اشتعالا ... نظرة فى عيون محبوبته تملأ قلبه فرحا وتجعله يتخيل انه ماش فى طريق مفروش بالورد أو راكب سحابة وطائر فى المرتفعات العالية،فوق فوق قريب السماء » وهو ، وذلك ايمانه الصحيح ، قد رأى ان المرأة التى تستطيع أن تلهم الرجل كل هذه المعانى السامية وأن تفيض على الفنان بالوحى وعلى غير الفنان بأسباب السعادة التى تحبب اليه الحياة والعمل فيها ليست هى المرأة الجاهلة المحجوبة . لذلك دعا دعوته لتحرير المرأة من رق الجهل ورق الحجاب لتكون مبعث السعادة للناس جميعا

***

لكن هذا الوحى والالهام لايكون الا اذا استعد الرجال لتلقيه . واذا كان لدعوة قاسم ان تنجح فى ميدان تحرير المرأة وأن تجعل من المصرية مثلما كانت أخت رينان أو زوجة جون ستوارت ميل أو شبيهاتها من النساء اللواتى أوحين الى النوابغ ما غير وجه التاريخ ،فلابد من اعداد الرجال لتلقى هذا الالهام السامى ولابرازه فيما يجب أن يبرز فيه من قوة . وذلك لم يكن ممكناً والتعليم العالى، كما كان يومئذ، مقصور على أن يعد موظفين للحكومة وللاعمال الحرة ممن لايرون العلم الا وسيلة للكسب « ويعملون على مبدأ — إكسب كثيراً واتعب قليلا — وليس فيهم العامل المحب لعلمه أو فنه والعاشق الذى تحتل شهوة العمل كل قلبه وتستمد فيه وتملؤه برمته » . أمثال هؤلاء لايوحى اليهم جمال العالم فكرة جديدة ولا يرتجون من الحياة الا اعتزازاً بمنصب أو بمال طائل يحصلونه .

وهؤلاء لايمكن أن تنهض أمة بهم لترقى الى سبيل الكمال . فاما الفئة التي : « تطلب العلم حباً للحقيقة وشوقا الى اكتشاف المجهول ، الفئة التي يكون مبدؤها التعلم للتعلم » والتي تحس جمال الحياة فى مختلف مظاهره ، الفئة التي ترى فى المرأة الجميلة المهذبه معوانا على النهوض بالجماعة — هذه الفئة لاتكون الا حين توجد الجامعة وحين يوجد التعليم الجامعى . وهذه الفكرة هى الاساس الذى دعا قاسماً للتعاون مع صديقه سعد زغلول ومع أركان نهضة مصر ليؤسسوا الجامعة المصريه التي استظلت لجنتها برئاسة سعد باشا زغلول حتى ترك منصبه كمستشار فى الاستئناف وعين وزيراً للمعارف فحل محله قاسم أمين فى رياسة اللجنه الى أن عاجلته المنية .

وقد ظل قاسم عاملا مع أصحابه مجداً يستنهض الهمم ويجمع الاموال ويهيء كل أسباب نجاح الجامعة . وقد بين فكرته عنها فى خطاب القاه بمنزل المغفور له حسن باشا زايد بالمنوفية لمناسبة وقفه خمسين فداناً للجامعة قال فيه : « ان الوطنية الصحيحة لاتتكلم كثيرا ولا تعلن عن نفسها . عاش آباؤنا وعملوا على قدر طاقتهم وخدموا بلادهم وحاربوا الامم وفتحوا البلاد ولم نسمع أنهم كانوا يفتخرون بحب وطنهم ، فيحسن بنا ان نقتدى بهم فنهجر القول ونعتمد على العمل . .

« نحن لايمكننا أن نكتفى الان بان يكون طلب العلم فى مصر وسيلة لمزاولة صناعة أو الالتحاق بوظيفة ، بل نطمع فى أن نرى بين أبناء وطننا طائفة تطلب العلم حباً للحقيقة وشوقا الى اكتشاف المجهول ، فئة يكون مبدؤها التعلم للتعلم . نود أن نرى من أبناء مصر ،

كما نرى فى البلاد الاخرى، عالماً يحيط بكل العلم الانسانى واختصاصياً أتقن فرعاً مخصوصاً من العلم ووقف نفسه على الالمام بجميع مايتعلق به ، وفيلسوفاً اكتسب شهرة عامة ، وكاتباً ذاع صيته فى العالم ، وعالماً يرجع اليه فى حل المشكلات ويحتج برأيه . أمثال هؤلاء هم قادة الرأى العام عند الامم الاخرى والمرشدون الى طرق نجاحها، والمدبرون لحركة تقدمها . فاذا عدمتهم أمة حل محلهم الناصحون الجاهلون والمرشدون الدجالون

«ان عدم استعداد طلبة العلم لحب العلم ذاته هو عيب عظيم فينا يجب ان نفكر فى ازالته. وهو نتيجة من نتائج التربية المنزلية التى غفلت عن تربية احساسنا وأهملت تربية قلوبنا فأصبحنا ماديين لانهتم الا بالنتائج فى جميع أمورنا ، حتى فى الاشياء التى بطبيعتها يجب أن تكون بعيدة عن الموائد كعلاقات الادب والاصحاب

« إن الارتقاء فى الانسان تابع على الخصوص لاحساسه، وإن أكثر الناس استعداداً للكمال هم أصحاب الاحساس الذين تهتز أعصابهم المتوترة بملامسة الحوادث وتبلغ منهم الانفعالات النفسيه مبلغاً عظيما فيظهر أثرها فيهم بكثرة وشدة . أولئك هم السعداء الاشقياء الذين يتمتعون ويتألمون . أولئك هم السابقون فى ميدان الحياة، تراهم فى الصف الاول مخاطرين بأنفسهم يتنافسون فى مصادمة كل صعوبة . من بينهم تنتخب القدرة الحكيمه خيرهم وتوحى اليه أسرارها فيصير شاعراً بليغاً أو عالماً حكيماً أو ولياً طاهراً أو نبياً كريماً.

« ولى أمل عظيم أن انشاء الجامعة المصرية يكون سبباً فى ظهور شبيبة هذا الجيل ومايليه على أحسن مثال »

كان أول أمل لقاسم من انشاء الجامعة اذن هو الامل العلمي البحث . هو تكوين فئة للبحث وراء الحقيقة شوقا اليها وحرصاً على كشف ما يحيط بهذا العالم من الاسرار . وهذه الحقيقة لا يصل اليها أولئك المشغولون بأسباب الرزق العاكفون على السعي لها والدأب في سبيلها . وانما تصل اليها بيئة علمية يتصل الطالب فيها بالاستاذ اتصال دراسة واتصال بحث . اتصال تعليم واتصال تضامن في زيادة ثروة الانسانية العلمية . هذه الثروة النورانية التي تضيء ما حولها لتهتك حجب الجهل وما يجره وراءه من جمود وتعصب ونفاق ، والتي تهدي الانسانية سبيل السعادة بما تكشف لها من جمال الوجود . ولعل أكبر رجاء قاسم كان أن يتناول هذا البحث آداب عصر بغية الوصول الى تركيز أدب قوي صالح يجدد الادب العربي الذي كان متداولا الى عصره . وقد كانت لقاسم في تجديد اللغة والادب آراء لا تقل تقدما عن ارائه في مسألة المرأة وتحريرها. وكان يرى « أن اللغة العربية مرت عليها القرون الطويلة وهي واقفة في مكانها لا تتقدم خطوة الى الامام بينما أخذت اللغات الاوربية تتحول وترتقي كلما تقدم أهلها في الاداب والعلوم حتى أصبحت النموذج المطلوب في السهولة والايضاح والدقة والحركة والرشاقة ، وصارت أثمن جوهرة في تاج التمدن الحديث » . وفي كلماته كثير مما كان يراه من أوجه النقص في اللغة ووسائل علاج هذا النقص قال : « لم أرين جميع من عرفتهم شخصاً يقرأ كل ما يقع تحت نظره من غير لحن . أليس هذا برهاناً كافياً على وجوب إصلاح اللغة العربية . . . لي رأي في الاعراب أذكره هنا بوجه الاجمال وهو

أن تبقى أواخر الكلمات ساكنة لاتتحرك بأى عامل من العوامل. بهذه الطريقة ، وهى طريقة جميع اللغات الافرنكية واللغة التركية أيضاً ، يمكن حذف قواعد النواصب والجوازم والحال والاشتغال الخ . بدون أن يترتب عليه اخلال باللغة إذ تبقى مفرداتها كما هيه »

ولم يكن جزعه على الادب بأقل من نفوره من جمود اللغة . فكم نعى على الكتاب والشعراء اقتصارهم على « تكرار أفكار الغير التى حفظوها كما يحفظ الاطفال القرآن ». وكم أسف على الفتور العقلى الذى يجعلك : « اذا اجتمعت فى اليوم بعشرين رجلا من معارفك تسمع من التسعة عشر الاخرين ما سمعته من الاول ولا تجد فى الجريدة التى تقرؤها أو تسمع من الصاحب الذى تقابله فكرة غريبة أو تعبيراً جديداً أو أسلوبا مبتدعا ،لا تجد النابغة الذى يدهشك ويجذبك بعجائب جنونه » وكم استهجن الاساليب التى تقتصر على المحسنات اللفظية ودعا الى جدة تخرج بالكاتبين من ذلك النوع البالى الذى لايعرف البحث والتحليل والتسمع على النفس والمشاعر ووصف بدائع الطبيعة مكتفياً بالعبارات المحفوظة التى توارثوها عن كتاب العرب أيام مجدهم . وإنك لتجد فيما خلف قاسم صورة من هذا الأدب الجديد الذى يدعو هو اليه والذى غزا ميدان التحرير والكتابة فأصبح أدب هذا العصر الحاضر . ولئن كنا ما نزال نرجو للاساليب الجديدة ثروة وقوة فان فضلا كبيراً يرجع لقاسم فى هذه الجدة التى دعا اليها والتى كان يرجو أن تبدع فيها الجامعة التى جاهد فى انشائها والتى قامت بعد موته قوة تقربها من المثل الأعلى الذى يرجوه

واختطف الموت فجأة قاسماً وما يزال فى ربيع قوته . مات بالسكتة القلبية بعد أمسية قسم فيها طالبات رومانيات فى نادى المدارس العليا . مات وهو فى ميدان هذا الجهاد الشاق الذى خاض غماره وحمل أعباءه بقوة وعزيمة لم يتطرق اليهما كلال . فقد وقف الرأى العام فى وجهه على أثر نشر كتاب تحرير المرأة . ولم يكن هذا الرأى العام مقصوراً على السواد ولا على الجامدين . بل سايرهؤلاء كثيرون ممن يزعمون أنهم يفهمون الرأى واحترامه والحرية وقداستها، بل ممن كانوا مقتنعين بصواب رأى قاسم . وبلغ الامر أن حرم قصر عابدين عليه . ولم يثبطه شىء من هذا ولم يبال بذم الناس « بل وجد فيه نوعا من حماسة الغضب منبها لأعصابه منشطاًلقواه مغرياًاياه بالاستمرار والثبات » . ورد على خصومه بكتاب« المرأة الجديدة » ثم قام بالمجهود العظيم الذى قام به فى انشاء الجامعة . وكان فى إبان ذلك كله ساكن النفس مطمئن الضمير محباً للحياة وجمالها غير بخيل على نفسه بحظ من ذلك يناله فى رفق ما كان بعيداً عن مصر، فاذا عاد اليها اقتصر على أصدقائه القليلين الذين كانوا «يخففون عليه حمل الحياة ويرغبونه فى بقائها »

مات فجأة فى ليل ٢٣ ابريل سنة ١٩٠٨ فأثار خبر وفاته فى نفوس الناس جميعاً، أصدقائه وخصومه، رنة حزن وأسى ، واجتمع لتشييع رفاته كل ذوى الرأى فى مصر . وكانت جنازته مظهراً صامتا لاجلال الوطن وتقديره العاملين من رجاله . وغادر هذا العالم تاركا وراءه ذكراً باقياً هو ذكر الصدق والاخلاص لبلاده لم يبتغ عليهما فى حياته أجراً من جاه أو نشب ، فكان أجره عليهما الخلود بعده

موته فى ضمير الاجيال المتعاقبة. ذلك بأنه رفع لواء الحرية الصحيحة والعدل فى أسمى معانيه ، وبعث الى الروح المصرية حياة جديدة تكفل لها بلوغ ماترجوه بين جماعة الأمم المتحضرة

وفى يقيننا أن مجهود هذا من أبقى المجهودات على الحيـاة ، وأن الصحائف المعـدودة التى كتبها ستظل أبداً موضع اجـلال العصور واحـترامها .

اسماعيل باشا صبرى

لم تمض على وفاة المغفور له اسماعيل صبرى باشا غير سنوات قليلة ومع ذلك فقد بدأ الناس لا يذكرون عنه لا انه كان شاعراً مجيداً . فأما انه كان وكيلا للحقانية فى آخر أيامه ، وانه درج قبل ذلك فى وظائف الحكومة المختلفة حتى بلغ هذا المنصب ، فهذا مايسحب النسيان عليه ذيله رويداً رويداً ، وهذا مايعتبر الجانب القليل الخطر من حياته . ولا عجب فى ذلك . فلقد كان الشعر هو الجانب المنير من روح اسماعيل صبرى والذى يجعله أحد رجال التاريخ الحديث . والناس لا يذكرون من الكبراء الا ، واضع عظمتهم الحقة ، المواضع التى تتصل فيها نفوسهم بنفس الانسانية كلها اتصالا تتأثر به النفس الانسانية تأثرا باقياً على الاجيال فى تعاقبها . فأما هذا العمل اليومى الذى يقوم به كل منا ويستطيع غيره أن يحل محله فيه ، فأما هذا الجانب من الحياة الذى يتكرر فيه الفرد من غير أن تظهر له شخصية خاصة ممتازة ، فأما النيابة والقضاء ووكالة محكمة الاستئناف ومنصب النائب العمومى ووكالة الحقانية مما تقلب فيه اسماعيل صبرى ، فتلك المراكز على خطرها وجلالها وما تخلعه على صاحبها فى حياته من جاه ومقام عظيم ، انما يتصل صاحبها بالجيل الذى يعيش فيه الا أن يمتاز فى أعمال هذه المناصب امتيازا يترك أثراً تتناقله الاجيال . ولم يترك اسماعيل صبرى فى هذه الناحية من حياته ذلك الاثر . لذلك كان له من جاهها مدى حياته مايكون

لغيره . فأما مابقى له فذلك الضياء النفسانى الذى يتجلى فى شعره القليل ، والذى يعتبر على قلته آية فى الجمال تهتز لها نفوس كل الاجيال، والذى يبقى من أجله اسم اسماعيل صبرى على الزمان، لانه — على حد قول الاستاذ على الجارم فى مرثيته اياه — :

لم يمت من يزول من عالم الحس * وتأبى آثاره أن يزولا

* * *

ولد المرحوم اسماعيل صبرى فى ١٦ فبراير سنة ١٨٥٤ ودخل مدرسة المبتديان التجهيزية فمدرسة الادارة . وفى سنة ١٨٧٣ التحق بالارسالية المصرية لفرنسا فنال اجازة الحقوق فى سنة ١٨٧٨ . وهذه الاجازة هى التى فتحت أمامه أبواب السلك القضائى من مساعد نيابة لدى المحاكم المختلطة الى وكيل وزارة الحقانية . على أن الجانب النفسى الاقوى منه لم يكن الجانب التشريعى أو الجانب القضائى ، بل كان جانب تجاوب الاوزان والانغام والشعر . وكثيراً ما رأيت رجالا يكونون دون غيرهم من أهل حرفهم فى الكفاية والمقدرة، ولكنهم يمتازون بجانب آخر لهم فيه نبوغ. هؤلاء يحجب فيهم جانب النبوغ الجانب الآخر ويجعله يبدو ضعيفاً . بل كثيراً ما يجنى جانب النبوغ على الجانب العملى للحياة ، لما يكره النبوغ عليه من وهبته الطبيعية إياه من مجهود مستمر وحياة خاصة ، فاذا الجانب العملى يكاد ينسى الا ما تمليه عليه الملكات الممتازة من قوة واقتدار .

ولم يكن لجانب النبوغ الشعرى فى اسماعيل صبرى تاريخ قديم معروف . وقد عبر شوقى فى رثائه إياه عن ذلك بقوله :

إن فاته نسب الرضى فوعيا
جريا لغاية سؤدد وطراف
شرف العصاميين صنع نفوسهم
من ذا يقيس بهم بني الاشراف
قل للمغير الى أبيه وجده
أعلمت للقمرين من أسلاف

وكثيراً ما كانت المواهب الممتازة لاترجع الى تاريخ قديم معروف ، بل كثيراً ما رأيت هذه المواهب الممتازة تتجلى في أشخاص لاتلمح في تاريخهم أية مقدمة لها . وهي قد تجلت في نفس اسماعيل صبري منذ كان في السادسة عشرة من عمره ، وقبل أن يختط طريقه الى السلك القضائي. فقد نشرت له مجلة روضة المدارس ومايزال في هذه السن مقاطيع شعرية تلمح خلالها روح الشاعر، وان كانت في ذلك الحين قد كانت متأثرة أشد التأثر بأغراض الشعر في عصر اسماعيل من مدح الامراء وذوي السلطان . وروضة المدارس كانت يومئذ مجلة أدبية تعمل لاحياء اللغة العربية والشعر العربي .

ولما سافر في الارسالية وأقام بمدينة اكس أتيح له الاطلاع على الادب والشعر الفرنسي . ويدل شعره في السنوات الاخيرة على انه تأثر بهذا الشعر كبيرا وانه انطبع منه في نفسه حظ غير قليل. على انه لم يستطع في أول أمره ان ينقل الى الشعر العربي روحا غربية مثلما فعل شوقي مثلا . فأنت ترى في شعر صبا شوقي الشيء الكثير المتأثر تأثراً باديا بحياة شوقي في أوربا . أما اسماعيل صبري فكان منذ أول حياته

شاعراً مقلا . وكان، على مايظهر من شعره ، لايتأثر تأثرا سريعا، ولكن ما يؤثر فيه يبقى عالقا بنفسه حتى يكون له مظهره ولو بعد حين

والظاهر أن التقاء الحياتين الشرقية والغربية والشعرين الشرقي والغربي في نفس اسماعيل صبري ، أحدث أثرا عميقا امتزج مع غريزة حياته . فقد كان رجلا رقيقا كل الرقة دمث الاخلاق حاضر البديهة، اجتمع له كل ما يعرف من صفات « ابن البلد » وظرفه . وانك لتسمع ما يرويه عنه اصحابه من ذلك الشيء الكثير : فكان اذا سئم انسانا من الناس ولم تطاوعه نفسه الرقيقة على الاغلاظ له في القول، طلب الى صديقه حافظ ابراهيم ان يوقع بينه وبين هذا الثقيل حتى لا يضطر لمقابلته أو التحدث اليه. وكان كثير التندر ، حتى لقد تحكم عليه النكتة فلا يرى بأساً من ان يقول: انه لو نزل كتاب مقدس في القطب الشمالى لوعدالله عباده النار أعدها للمتقين . وكان ظرفه وخفة روحه وسرعة بديهته يلهمانه في كثير من المواقف ما لا يلهم المنطق . اعترف أمامه متهم بجريمة القتل. فلما خلا مع زملائه للمداولة ورأى ان العقوبة هي الاعدام ، ذكر لهم انه يشك في اعتراف هذا الرجل لأنه لا يرى في سيماه معنى شجاعة يمتاز به على سواه من أمثاله. وجيء بالرجل الى غرفة المداولة وقال هو له . أتدرى ان اعترافك هذا يجعلنا نحكم عليك بالاعدام. فكان جواب الرجل : لكن العمدة لم يقل لى هذا ، بل قال لى حين دفع لى الجنيهين انى سيعفى عنى لانى كنت في السجن حين ارتكاب الحادثة . وتبين فعلا ان الرجل كان في السجن فلم يكن له في الحادثة يد . وقضى ببراءته

الى جانب هذه الصفات التى يمتاز بها « ابن البلد » المصرى مما

تأثرت به نفس اسماعيل صبرى الشاعرة بمخالطتها الوسط المصرى، كان رجل اجتماع بالمعنى الافرنجى الصرف، أى رجل دنيا اذا أردت ترجمة العبارة الفرنسية homme du monde ترجمة حرفية. وكان له أصدقاء كثيرون جدا من الجاليات الاوربية المقيمة بالقاهرة. وكان يغشى اجتماعات من يختارهم من أهل هذه الجاليات بمقدار ما يغشى اجتماعات الظرفاء وأولاد البلد

على انه مع كل هذه الوداعة والظرف ومع ما كان يسيل بمخلقه من رقة، كان أبيا لا يقيم على ضيم. ذكر لى بعض أصدقائه الذين عرفوه طوال حياته انه برغم ما تقلب فيه من كبرى مناصب الحكومة كان المصرى الوحيد الذى لم يقابل لورد كرومر ولم يدخل الوكالة البريطانية فى مصر. وانه حدث بينه وبين رياض باشا، وكان رئيس النظار، جفاء لحكم أصدره ماسا ببعض المحسوبين على رياض باشا. فلما جاء فى أحد المواسم الى عابدين ومثل بين يدى الخديو توفيق ثم خرج من لدنه الى رياض باشا مهنئا اياه كرئيس حكومة أوقفه رياض باشا ولم يأذن له بالجلوس. وكان ابن رياض باشا واقفاً عند باب الحجرة التى يجلس فيها أبوه، فقال اسماعيل صبرى مخاطبا الابن بسمع من الأب: قل لأبيك يحترم الناس كى يحترموه. وروى عثمان باشا مرتضى فى حفلة تأبين اسماعيل صبرى أن أحد قناصل الدول الاجنبية طلب اليه، وكان محافظاً للاسكندريه، أن يشيع جنازة غنى من أهل جاليته ترك ثروة طائلة كسبها فى مصر وأوصى بها كلها لبلاده. فكان جواب المحافظ أن اعتذر، لأن المحتفل بجنازته لم يفكر فى مصر التى أثرى فيها، فليس يطلب الى مصرى أن يفكر فى مجاملته حياً أوميتاً.

دعة وظرف ورقة وحسن معاشرة وإباء، اجتمعت كلها فى نفس شاعر التقت فيه الحياتان الشرقية والغربية وألهمتها الطبيعة ذوق الجمال، وبخاصة ما كان منه متعلقاً بالنغم الشعرى — فماذا ترى يكون أثر ذلك كله فى شعره؟ فأما الرقة فقد تنفست فى شعر صبرى غزلا بالمرأة وهياما بجمالها أيا كانت هذه المرأة. وأنت ترى من ذلك شيئاً غير قليل حين تذهب الى مراجعة شعر صبرى الغنائى. لكنك تراه ماثلا بصورة حلوة جميلة آخذة باللب فى قصيدته البديعة (تمثال جمال) وبخاصة فى هذه الابيات منها يخاطب المرأة الجميلة أو كما سماها «لواء الحسن»:

ان هذا الحسن كالماء الذى فيه للأنفس رى وشفاء
لا تذدى بعضنا عن ورده دون بعض، واعدلى بين الظماء
ساعفى آمال أنضاء الهوى بقبول من سجاياك رخاء
وتجلى واجعلى قوم الهوى تحت عرش الشمس بالحكم سواء
أقبلى ستقبل الدنيا وما ضمنته من معدات الهناء
واسفرى، تلك حلى ما خلقت لتوارى بلثام أو خباء
واخطرى بين الندامى يحلموا أن روضا راح فى النادى وجاء
وانطقى ينثر اذا حدثتنا ناثر الدر علينا ما نشاء
وابسمى، من كان هذا ثغره يملأ الدنيا ابتساما وازدهاء
أنت روحانية لا تدعى أن هذا الحسن من طين وماء
وانزعى عن جسمك الثوب يبن للملا تكوين سكان السماء
وأرى الدنيا جناحى ملك خلف تمثال مصوغ من سناء

وتراه كذلك فى هذه الابيات يخاطب بها امرأة لا ندرى أية

واحدة هى من ألوية الحسن التى تزدحم عادة فى نفس ذوى الظرف والرقة ممن لا تحتمل نفوسهم طغيان الحب المستبد ينحنى له الفؤاد والقلب والنفس والجوارح جميعا إذعان خضوع وإيمان واستسلام، وهو مع ذلك بإذعانه راض وبذله سعيد :

زينى الندى وسيلى فى جوانبه لطفا يعم رعايا اللطف رياه
ريحانة أنت فى صحراء مجدبة من الرياحين حيانا بها الله
ان غاب ساقى الطلا أو صد لا حرج هذا جمالك يغنينا محياه

لعلك تلمح فيما نقلنا من هاتين القصيدتين — أو المقطوعتين ان شئت — شيئا غير الغزل بجمال المرأة من غير تقيد بامرأة معينة. ولعلك تلمح فيها من الموسيقى أكثر مما اعتدت ان تلمح فيما تستمع اليه من شعر غير اسماعيل صبرى . وانك لواجد هذه النغمة الموسيقية الحلوة الرقيقة فى أكثر شعره ان لم يكن فى شعره جميعا . بل انك لواجدها حتى فى القصائد التى يتكلف الشاعر نفسه أن يكون حماسيا فيها كقصيدة فرعون وقومه . بل أنك لواجدها حتى فيما يتكلف فيه الحكمة كقصيدة الساعة وما نظمه عن نجم هالى. وذلك طبيعى وقد كان اسماعيل صبرى مشغوفا بالغناء طول حياته الى غير حد حتى كانت الحياة عنده قطعة من الموسيقى ، أو قل كان خير ما فى الحياة عنده قطعة من الموسيقى. وكان سمعه أكرم حواسه عليه . أليس فى رثائه يقول حافظ ابراهيم :

لقد كنت أغشاه فى داره وناديه فيها زها وازدهر
واعرض شعرى على مسمع لطيف يحس نبو الوتر

والحق أن اسماعيل صبرى لم يولع فى حياته بشىء ولعه بالغناء،

ولم يجاهد وهو فى مناصب القضاء لترقية شىء فى مصر أكثر من جهاده لترقية الغناء . كان ذلك شأنه منذ عهد المغفور له الخديو اسماعيل باشا ، أى منذ أن نشأ يقول الشعر الى أن مات. وكان لا يقف من شعره الغنائى عند الشعر العربى بل كان يختلط بالمغنين ورجال الموسيقى وكان يضع لهم أدواراً باللغة المصرية . وكان لذلك موضع محبة رجال الفن الموسيقيين والمغنين واحترامهم .

ولقد كان له فى هذا الباب فضل كبير : رفع الأدوار الغنائية من درك كانت فيه فجعلها ذات معان رقيقة تمثل عواطف طاهرة وميولا سامية . وادواره (قدك أمير الاغصان) و(الهجر لاح قوموا يأنجار النوم) وغيرها لا تزال من أفضل الادوار المصرية التى تغنى الى وقتنا الحاضر . وقد عرفه الناس جميعا بذلك حتى كان حجة يرجع اليه. روى لى احمد شوقى بك حادثة غاية فى اللطف. تلك انه كان عنده وهو يشغل منصب النائب العمومى يوما وكانت مصر تموج أفكار أهلها بحادث سياسى وقع فيها . وفيما هما جالسان يتحدثان دخل حاجب ومعه مظروف حكومى كبير فقطع ذلك حديثهما وانتظرا أن يجدا فيه إشارة الى الحادث السياسى وما يجب اتخاذه من الاجراءات بإزائه. فلما فض اسماعيل باشا المظروف وقرأ ما بداخله هز رأسه مبتسما . ذلك أن على باشا شريف رئيس مجلس الشورى يومئذ قد بعث فى هذا الظرف بدور غنائى وهو يطلب الى النائب العمومى اصلاحه. ولهذه المناسبة قص اسماعيل باشا صبرى حادثا وقع فى قرطبة حين كانت الدولة الاسلامية على وشك الزوال منها ، وكانت طرقها تجرى دما لاقتتال الناس فيها . ذلك أن فتاة أطلت من نافذتها منادية صديقة

لها فى نافذة مقابلة تطلب اليها وترا تصلح به عودها . وكذلك يطلب رئيس مجلس الشورى الى النائب العام أن يصلح له دورا غنائياً بينما تموج البلاد بحادث سياسى لاتعرف نتائجه .

ولهذا الولع بالنغمة وبالغناء ترى الكثير من شعر اسماعيل صبرى صالحا لأن يكون صوتا يغنى فيه . اسمع الى قوله يخاطب سيدة تدعى الكسندرا

اشرى الدر ياسمية أسكنـ ـدر لافض عقده من فيك
وأميطى عن الحقيقة مايحـ ـجب عنا جمالها من شكوك

وقوله :

أقصر فؤادى فما الذكرى بنافعة ولا بشافعة فى رد ما كانا
سلا الفؤاد الذى شاطرته زمنا حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا
هلا أخذت لهذا اليوم أهبته من قبل أن تصبح الاشواق أشجانا
لهفى عليك قضيت العمر مقتحما فى الوصل ناراً وفى الهجران نيرانا

وغير ذلك مما يغنى فيه من شعر اسماعيل صبرى كثير

أنت لاتستطيع أن تطلب الى شاعر بلغ من الرقة مابلغ اسماعيل صبرى وشغف بالغناء شغفه أن يكون ممن يجاهدون الحياة يحاولون اخضاعها لرأيهم أو أن يكون قوى الايمان بما فى الحياة بشيء . فالمرأة وجمالها والغناء والحانه والموسيقى وأنغامها صور يطرب لها الحس وينطبع طربه فى النفس فيدعوها الى الطمأنينة للحياة والاستهتار بما يشغل الناس أنفسهم فيها من شؤون ، والتوفر على المتاع بهذا الطرب والحرص على استدامته والفزع لذلك من الموت. ويذكر الذين عرفوا اسماعيل صبرى معرفة صحيحة أنه كان كذلك .

لـكنك مع ذلك ترى فى شعره نزعات تـكاد تكون صوفية . وترى الى جانب ذلك شيئاً من التبرم بالحياة ومن إيثار الموت واستعجاله. أليس يذكر بتغزل عمر بن الفارض شيخ الصوفية فى الذات الالهية قول اسماعيل صبرى

يارب أهلنى بفضلك واكفنى شطط العقول وفتنة الافكار
ومر الوجود يشف عنك لكى أرى غضب اللطيف ورحمة الجبار
ياعالم الاسرار حسبى محنة علمى بأنك عالم الاسرار
أخلق برحمتك التى تسع الورى ألا تضيق بأعظم الاوزار

أو ليست الحـكمة كل الحـكمة فى قوله :

أواه لو عقل الشباب * وآه لو قدر المشيب

أو لم يقل الفلـكيون أن نجم هالى المذنب الذى مر بالارض فى سنة ١٩١٠ كان سيحرق الارض ويقيم القيامة فابتهج اسماعيل لذلك وقال.

أنت نعم النذير يانجم هالى زلزل السهل والرواسى ذعراً
ان يكن فى يمينك الموت فاقذفـ ـه شواظاً على الخلائق طراً
أغداً تستوى الانوف فلاينظر قوم قوما على الارض شزراً
أغداً يصبح الصراع عناقا و الهيولى وإصبح العبد حراً
إن يكن كل مايقولون فاصدع بالذى قد أمرت حييت عشراً

بل ألم يدع صبرى الموت كما دعاه فوست مستعجلا اياه كى ينقذه من عذاب الدنيا حين قال :

ياموت خذ ماأبقت الا * يام والساعات منى
بينى وبينك خطوة * ان تخطها فرجت عنى

فكيف مع هذا كله يكون بشا للحياة طروبا بما فيها فزعا من

الموت ومن العدم، وكيف مع هذه الحكم التى نراها فى شعره يكون كل شغله بجمال المحسوسات من منظور ومسموع ؟ هذا اعتراض يرد للذهن لاول وهلة . لكن الشاعر لايكون شاعر حكمة ولا شاعراً نفسانياً لمجرد ذكره خواطر فلسفية وعتها ذاكرته أكثر مما اهتزت لها نفسه . ثم هو لايكون برما بالحياة مؤثراً الموت لبعض أبيات قد تدفعه الى قولها شؤون خاصة . فالبيتان الاخيران اللذان رويناهما انما قالها اسماعيل صبرى — فى رواية بعض من عرفوه — لما كان يلقى فى حياته العائلية من أسباب الشكوى . وأما ذلك التصوف الذى نراه فى الابيات الاولى فليس الا مظهرا لماوعت الذاكرة راجع نفس الشاعر فى ساعات تغص فيها النفس بنعيم الحياة حين يفيض عنها فيضاً يجعلها تستغفر وتتوب برهة لتعود الى نعيم الحياة وفيضه بعد ذلك مباشرة. فأما الشاعر النفسانى فهو الذى يحس فى أعماق نفسه بمعان قوية تظهر فى شعره ولو تحدث عن ظواهر تعدها أنت وأعدها أمراً تافهة فى الحياة .من ذلك كثير من شعر أبى العلاء المعرى . ومنه كثير من شعر الافرنج . كنت أعيد منذ بضعة أيام قراءة قصيدة (موت الذئب) لالفرد دفينى وأستعيد منها المعانى القوية التى تجيش فى نفس الشاعر الفرنسى وتتجلى فى كل قصائده. مثل هذا الشاعر النفسانى ان كان دينيا يرى فى جمال المرأة وفى تجاوب الموسيقى وفى ألحان الغناء معان دينية . وهو يرى هذه المعانى الدينية فى موت طفل وفى موت ذئب كما يراها فى الحب وفى كل صورة من صور الحياة ولون من ألوانها . وان كان شاعر عاطفة أو شاعر فلسفة تجلت العاطفة والفلسفة فى شعره كله . فاذا رأيت له شعراً

لا يعمره الجانب النفسي القوي من جوانب حسه أو شعوره أو تفكيره كان لك أن تحكم بأن ما اختزنته الذاكرة مما لم يؤثر في النفس أثراً عميقاً هو مبعث هذا الشعر. وما تختزنه الذاكرة مما ينظمه الشاعر ليس هو المعبر عن نظرته للحياة وتقديره لما فيها.

كان اسماعيل صبري إذن متأثراً عما تتأثر به العين والاذن من صور الحياة وألوانها. وكان هذا هو الذي يوقع على وتر عاطفته أنغام شعره. وكان شعره لذلك جميل اللفظ غاية الجمال. وكان تأثره هذا يجعله معنياً بالجمال اللفظي اكثر من كل شاعر سواه. ولعلك لتجد أمامك فيما نقدنا لك هنا من شعره مظهر ذلك واضحاً جلياً. فرب فكرة عادية أو صورة تمر أمامك كل يوم تجدها في هذا الشعر فاذا بها قد اكتست رونقاً وبهاء ما كان لها أن تكتسيها لو أن شاعراً آخر هو الذي صاغها. والظاهر أن هذه النزعة القوية عند اسماعيل صبري كانت ذات أثر كبير في الشعر العربي في هذا العصر. فحافظ ابراهيم لا يأبى أن يدعو اسماعيل صبري استاذه واستاذ شوقي. وشوقي لا يأبى أن يعترف بأن هذه النظرة التي كان ينظر بها اسماعيل الى الشعر أثرت فيه هو تأثيرا غير قليل. ولم ينشأ من الشعراء في العهد الاخير من كانت له في الشعر نفسية خاصة تخالف نفسية اسماعيل صبري لتطبع الجيل الجديد كما طبع هو بطابعه جيله.

ولا أستطيع أن أختم هذا البحث العجل عن اسماعيل صبري من غير أن أضع أمام القارىء ابياتاً ارتجلها تسيل رقة وتعبر أرق تعبير عن هذه النفسية التي كانت ترى العاطفة كما كانت ترى كل ما في

الحيـاة حسـا منظوراً أو مسموعا . ارتجلها يوم دفن ابن صغير للمرحوم الشيخ على يوسف فقال :

يامالىء العين نوراً والفؤاد هوى
والبيت أنسا تمهل أيها القمر
لاتخل افقك يخلفك الظلام به
والزم مكانك لايحلل به الـكدر
فى الحى قلبان باتا ياانعيمهما
وفيهما اذ قضيت النار تستعر
وأعين أربع تبكى عليك أسى
ومن بكاءالثكالى السيل والمطر
قد كنت ريحانة فى البيت واحدة
يروح فيه ويغـدو نفحها العطر
ما كان عيشك فى الاحياء مختصرا
الا كما عاش فى اكمامه الزهر
فارحل تشيعك الارواح جازعة
فى ذمة الله بعـد القبر ياعمر

***

لعلك وقد رأيت من اسماعيل صـبرى وشعره هـذه النفسية المشغوفة بالالوان تشعر الى جانب هـذا بما يشعر به كل من يقرأ شعر اسماعيل صبرى من انه كان شاعراً مصريا حقا ، ومن أن النزعة البدوية كانت لاتعرف سبيلا الى نفسه ، وان الرقة التى تسيل بها جوانب وادى النيل والصفو الذى يظل سماءه والخضرة النضرة

التى تزين جنباته وأغاريد الطير فى هوائه الرقيق ، كل ذلك كان ينعكس فى نفس اسماعيل صبرى بقوة لاتراها فى كثيرين غيره من الشعراء . ولعلك لذلك تقر له باللقب الذى لقبه به معاصروه : لقب شيخ الشعراء .

وقضى حياته مغتبطا بالحياة ، حتى اذا كان فى أخريات أيامه أصابته ذبحة صدرية قعدت به عن أن ينعم بشىء فى الحياة خمس سنوات تباعا ، ولعل بيته يخاطب الموت :

بينى وبينك خطوة * ان تخطها فرجت عنى

كان يصدق عليه خلال هـذه السنوات الخمس الصدق كله . وقد خطى اليه الموت هذه الخطوة فى منتصف ليل ٢٠ مارس سنة ١٩٢٣ . وقضى يومئذ متحملا معه مدرسة حافلة من مدارس الشعر ومذهبا جليلا من مذاهب تقدير الجمال . قضى وخلف بعده من أثره مجموعة أشعار لم تطبع بعد لانه كان يقول انه وهب شعره للنسيان . وتلك هبة لن تتم . فالنسيان لايتطرق الى الكمال ولا يعـدو على الجمال. لذلك نشر من شعره الشىء الكثير وحفظ أصحابه مالم ينشر . ولعلنا نسعد برؤية مجموعة شعره مطبوعة عما قريب .

ـــ ١٩٢٩ ـــ

محمود باشا سليمان

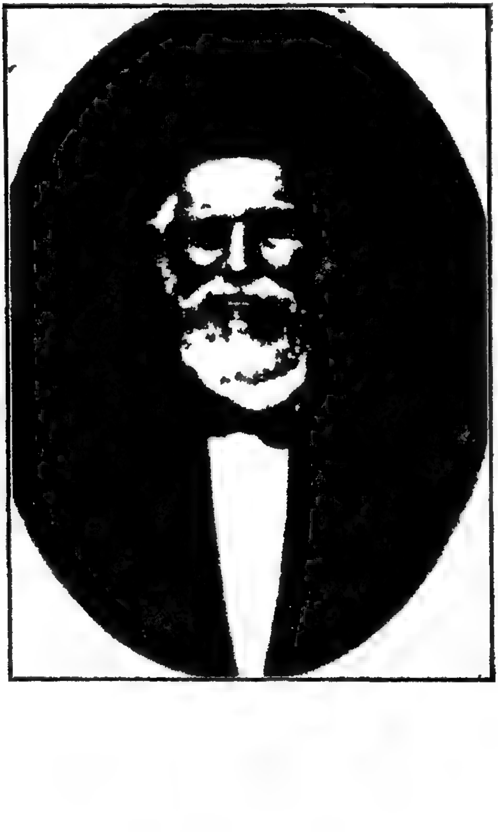

... وهذا أيضاً محمود سليمان باشا قد مات ، فأضاف حلقة الى سلسلة عظماء مصر الذين ودعوا عالمنا هذا فى السنتين الماضيتين(١). لكنه ودعه على صورة غير تلك التى ودعوه عليها . ثم كانوا بين مجاهد تحفزه قوى الشباب للجهاد ، وآخر بعض طمعه الكفاح ، وثالث اضطر لاعتزال الناس اضطراراً . أما هو فجاهد لخير وطنه فى شبابه ، ثم جاهد له فى كهولته ، ثم جاهد له وقد نيف على التسعين ، وبعد اعتزامه الانقطاع الى الله وعبادته . فلما دب الخلاف بين المصريين واندلع لهيب الفتنة فى البلاد نأى عن الفتنة مختاراً وعكف على ما اعتاد من عبادة وتقوى ، وظل فى تقواه وفى عبادته ينتظر بقلب مطمئن ونفس هادئة اليوم الذى يختاره الله فيه الى جواره . فلما كان عصر يوم الثلاثاء الماضى أغمض عينه عن عالمنا هذا ليفتحها هنالك فى العالم الذى قضى سنيه الطويلة يرجوه ، عالم أجر وسعادة لا يعرفان الزمان ولا المكان لأنهما يسموان على كل زمان ومكان .

وليس كثيرون من أبناء هذا الجيل من يذكرون شخص محمود باشا سليمان ، وإن كانت أجيال مصر المتعاقبة ، وكان تاريخ مصر يذكره أطيب الذكر . ليس كثيرون من يذكرون هذا الرجل المهيب فى وقاره النحيف فى جسمه الطويل القامة فى اعتدال ، الحاد النظرات الأسمر اللون الجليل المشيب . ولئن كانت قد مضت سنوات

(١) كتبت هذه الرسالة لمناسبة وفاته فى ٢٢ يناير سنة ١٩٢٩

لم أره فيها، فانى ما أزال أذكر أول مرة رأيته ، وكنت ما أزال طالباً بالحقوق ، وكنت أتردد على دار « الجريدة » عند استاذنا لطفى بك السيد . فبينا أنا هناك فى أحد أيام ربيع سنة ١٩٠٨ دخل محمود باشا سليمان فحياه الحاضرون فى اجلال واحترام وقدمنى له لطفى بك . وأشهد لقد جلست يومئذ وفى نفسى شىء من الرهبة أمام هذا الشيخ الذى يحمل على تجاعيد وجهه صحفاً مجيدة من تاريخ مصر . جلست وجعلت أحاول أن اختلس ، فى نظرات يداخلها الحياء والخوف ، صورة رئيس حزب الامة آتيا يتحدث الى كاتب حزب الامــة . وانتظرت أن يتكلم ، فمضت لحظات خلتها طويلة طويلة وخلت معها أن وجودى قد يحول دون الشيخ والكلام ، فاستأذنت وانصرفت . ولم أره بعــد ذلك غير مرات قليلة كانت الاخيرة منها حين كان رئيساً للجنة الوفد المركزية وحين كانت تتعلق باسمه آمال الوفد المصرى فى أوربا ، وآمال المصريين فى مصر .

هذا الرجل قد غادرنا بعد أن طوى رحلة الحياة فى أناة وتؤدة ووقار، وانتقل منها فى مثل هذه التؤدة والاناة والوقار الى جوار ربه وما يرجو من حسن ثوابه . غادرنا بعد إذ خلف وراءه تاريخا حافلا جليــلا وذكراً لاتشوب سواطع نوره شارة من ظلام . فلقد وهب هــذا الرجل حياته كلها لله ولوطنه ولأبنائه . كان فى عهد المغفور له اسماعيل باشا الخديو رجلا كاملا مسموع الرأى نافذ الـكلمة ، ترك عمدية بلده ساحل سليم ونظارة القسم التى تتبعه الى وظائف وكيل مديرية فى جرجا وفى أسيوط . فلما صدر القانون النظامى بعقد مجلس النواب فى عهد توفيق باشا تقدم للنيابة عن الأمة وانتخب عضواً بمجلس

النواب وأبى عليه أن يلقى خطاب العرش ، وكان له فى هذا المجلس مواقف يذكرها له التاريخ . فلما شبت نار الثورة العرابية كان من بعيدى النظر الذين قدروا ما يمكن أن يصيب البلاد من جرائها ، فتنحى عن الاشتراك فيها كما تنحى بعد ذلك عن الاشتراك فى النظام الذى أعقبها . فمع هـذه المكانة الكبيرة التى كانت له ، ومع ما أظهر من مقدرة فى مجلس النواب الذى سبق الثورة ، ومع أنه لم يكن من أنصار الثورة وأعوانها ، فانه لم ير بعد فشل الثورة واحتلال الانكليز مصر أن يتقدم للعمل العام تحت النظام الجديد الذى سنه الانكليز لمصر حين استصدروا من الخديو قانون مجلس الشورى والجمعية العمومية ، بل تنحى عن العمل العام وترك القاهرة الى الصعيد ، وعكف على عمله الخاص وعلى البر بالفقراء . وظل كذلك من سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٨٩٥ حين أخرجه طرف محلى خاص من هذه العزلة وجعله يتقدم لعضوية مجلس الشورى ، وما لبث أن عاد الى القاهرة والى العمل العام حتى انتخب وكيلا للمجلس وحتى كانت له فيه مواقف مشهودة . وإذا كان للتاريخ أن يذكر السابقين الى مطالبة الانجليز بأن يجلوا عن مصر ووضع نظام الحكم فيها ، فلقد كان المغفور له محمود باشا فى مقدمة هؤلاء . كان و مقدمتهم منذ كان عضواً فى مجلس الشورى وحين ترأس بعد ذلك حزب الامة . وإذا كان للتاريخ أن يذكر السابقين الى الاحزاب المنظمة ، فان محمود سليمان باشا هو أول من ترأس حزبا ذا برنامج ونظام فى مصر . فلقد كانت الأحزاب المصرية الى يوم تشكيل حزب الأمة تقوم على فكرة الدعوة لعمل واحد معين . فالحزب الوطنى أيام عرابى باشا

كانت مطالبه محصورة فى الدستور وفى التسوية بين المصريين والاتراك من رجال الجيش . والأحزاب والهيئات التى جاءت بعد ذلك كانت تطلب مطلباً واحداً كجلاء انكلترا عن مصر أو ماهو من ذلك بسبيل . أما حزب الأمة فكان أول الأحزاب التى وضعت لها برنامجاً مفصلا يتناول مرافق البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية جميعاً . وعلى نهجه سلكت الأحزاب الأخرى بعد ذلك

ولقد تألف حزب الأمة على هذه الصورة فى أخريات سنة ١٩٠٧ وسبقته الجريدة، التى كانت بعد ذلك لسان حاله، بشهور . وكان رئيس شركة الجريدة ورئيس حزب الأمة هو المغفور له محمود باشا سليمان . فلما حدثت بعد ذلك بسنوات أسباب الخلاف بين المسلمين والأقباط وكان من أثرها أن عقد الأخيرون مؤتمر أسيوط يتهمون فيه حكومات ذلك العصر بأنها تنحى الأقباط عن مناصب الحكم ولا تعطيهم حظهم الكامل منها، وكانت هذه الحركة خطيرة النتائج ، كان محمود سليمان باشا من الذين تقدموا للقضاء عليها ولاعادة الألفة بين المصريين . ولذلك تألف المؤتمر المصرى بهليوبوليس واختار المغفور له رياض باشا رئيسا له ومحمود سليمان باشا وكيلا له ، وقد مزاعم الأقباط يومئذ وأظهر الناس على أن لهم من مناصب الحكم أكثر من نسبتهم العددية بكثير ، ودعاهم الى أن يكونوا فى وحدة الأمة صفا .

وجاءت الحرب الكبرى وكان محمود باشا قد جاوز الثمانين وحق له أن يستريح من عناء العمل وأن يخلص كل نفسه لله فى انتظار لقائه إياه . والحق ان صفحات الجهاد التى كانت له فى ماضيه وما قام به كأب

من حسن العناية وجميل البر بأبنائه كان كافيا وفوق الكفاية ليكتب لهذا الرجل صحيفة مجد باقية . وصحت عزيمته على الاعتزال والانقطاع لله حتى لقد خرج من ماله لأبنائه فى سنة ١٩١٦ واعتزم عيش الزهادة والنسك وتمام الانقطاع لله . وما أجمل هـذه الشيخوخة الطاهرة المنزهة عن شوائب الهوى والتى قامت فيما سبق لها من سنى الحياة بما يطالب الى الرجل من جد وبر وتقوى ، تقضى فى حساب النفس والقربى الى الله ورجاء مغفرته وثوابه . ما أجمل الشيخ يصل الى قمة الحكمة بعد أن يطوف من الحياة بشهواتها وأهوائها ومطامعها ومالها ومجدها فتدعوه الحـكمة إلى أن ينظر إلى الاهواء والمطامع والشهوات جميعاً نظرة اصغار أن كانت لا بقاء لها ولا متاع للنفس بها ، وانما المتاع بامعان النظر فى الـكون واستكناه مافيه من خير وحق وجمال .

على أن الأقدار كانت قد احتفظت لمصر بصفحـة أخرى من صفحات المجد يخطها محمود سليمان باشـا . ليكن لشيخوخته عليـه حق ، ولتكن خير خاتمة المرء أياما تقضى فى العبادة والتقوى ، وليكن محمود سـليمان قد خرج من دنيـاه تاركا إياها الى أولاده وانقطع لنفسه ولربه — ليـكن ذلك كله فان للوطن مع ذلك عليه حقاً . وهو لم ينس يوماً حق الوطن عليه . لذلك ما كادت الحرب العامة تضع أوزارها ، ثم ما كادت الحركة الوطنية المصرية تبدأ ، حتى اذا هذا الشيخ خرج مرة أخرى من عزلته وجاء ينضم الى صفوف المجاهدين لاعلاء شأن الوطن ورفع مناره وتقديس كلمته . ولئن كان قد نيف على الثمانين فلن تزيده سنه ولن يزيده مجده ومقامه

وعظمته إلا حرصاً على الوقوف فى الصف الأول من صفوف المجاهدين وأن يكون فى مقدمة من يتعرض لما يصاب به من يتعرض للدفاع عن عظمة هذا الوطن واستقلاله . وكان منظراً يبهر النفس مافيه من مهابة واجلال . فلقد جلس محمود باشا فى رياسة لجنة الوفد المركزية يوم كانت البلاد تضطرب احشاؤها من أقصاها الى أقصاها ويوم كانت الاحكام العرفية بالغة قسوتها أعظم مبلغ ، جلس فى رئاسة لجنة الوفد المركزية وجعل من داره كعبة قصاد خدمة الوطن وأقسم لا يتزحزح الا أن تزحزحه القوة . وأرادت القوة يوماً ان تبتلى ثباته وعزمه فأصدرت اليه الأمر أن يبرح القاهرة ، فاذا به لا يبرحها حتى ذهبوا الى ذهبيته وأبعدوها عن ميدان العمل السياسى على كره منه . ولقد كان فى ذلك ، كما كان فى غيره ، سباقاً الى مثل التضحية والمكانة العلية . وكان فى هذا مثلا عالياً من النزاهة والتضحية لخير الوطن .

ولما آن للبلاد أن تنقسم بعضها على بعض وأن تقوم بين أهلها الفتنة ، اعتزل الميدان نهائياً وان لم ينس قديم صلاته بأصدقائه سواء منهم من كان فى فريقه السياسى ومن كان فى فريق مخاصم له . وعلى اشتداد الخصومة فى وقت من الأوقات بين الاحرار الدستوريين والمغفور له سعد زغلول باشا فان محمود باشا سليمان كان أسبق من أرسل الى سعد باشا على أثر عودته من جبل طارق يهنئه بسلامة مقدمه . وكذلك كان فى هذه كما كان فى غيرها عظيما سامياً فوق شهوات الساعة ، كبيراً عن أن يتأثر بالأهواء الطارئة .

ومن يوم اختلفت الأحزاب فى مصر عكف هو على ما كان قد اعتزم منذ سنوات من الانقطاع لله ولعبادته . وظل كذلك حتى

ارتضاه الله الى جواره يوم الثلاثاء ٢٢ مايو سنة ١٩٢٩ . ارتضاه الى جواره خلف هذه الدنيا فى أناة وتؤدة وحكمة كما عاش فيها فى أناة وتؤدة وحكمة .

عبد الخالق ثروت باشا

ما أحسب جيعة من الفجائع التى ميت بها الامم كانت أشد وقعاً على النفوس من جيعة مصر فى المغفور له عبد الخالق ثروت باشا . وما أحسب رجلا وجل خصومه كما وجل أصدقاؤه لفقده، كما اشترك أصدقاء هذا الفقيد العظيم وخصومه فى وجلهم لرحلته رحلة الابد . ثم ما أحسب العقل والعاطفه والحواس جيعاً اهتزت بالحسرة وبالاسى اهتزازها لهذا الحادث الذى رج نفوس الناس رجا بل دكها دكا . ولن أنسى ما حييت تلك اللحظة الاسيفة الى عرفت فيها الخبر إثر الوفاة بسويعات حين دخلت الى صالون السيدة المحترمه هدى هانم شعراوى بباريس فألفيتها وألفيت الاستاذ الكبير هلباوى بك وألفيت زائريهما وكلهم باكو العين والفؤاد وكلهم فى شبه ذهول لما أصاب مصر فى مصرع هذا الرجل الذى كانت تعتبره مصر كلها ملاذها اذا حزب الخطب وضلت بساسة مصر وساسة انكلترا السبل . ثم لن أنسى ما حييت اسراع المصريين وأصدقاء مصر الاجانب الى سكنته فى باريس بشارع أناتل دلافرج Anatole de la Forge وليس منهم من يقف فزعه لوفاة رجل كان له بعد فى الحياة سعة ، بل كلهم أشد فزعاً لمصر وما أصابها بفقد هذا الربان الذى اختاره القدر ليسير بدفة سفينتها حين الزعازع الهوجاء فينقذها من أدق المواقف . لن أنسى هذا، ولن أنسى صاحب الدولة عدلى باشا يكن فى منزل الفقيد وفى مشهد جنازته بباريس وهو

يتساءل عن الوفاة وكيف كانت فى جزع دونه جزع الاخ لفقد أعز أخ له عليه، وهو يحاول حبس عبرته فتخونه كما تخون جميع الذين شهدوا صندوق جثمان الفقيد ينقل من عربة الجنازة الى عربة السكة الحديدية . وكيف ينسى انسان هذا وما أحاط بالفاجعة ولكل انسان من هذه الفاجعة الاليمة نصيب لانها فاجعة مصر وفاجعة السلام ؟

ويأبى القدر الا أن يحيط هذه الفاجعة بما يزيدها هولا ، إذ يختطف الرجل فى بلاد نائية عن وطنه ويختطفه على عجل، كأن القدر عند مصر ثأراً لا تهدأ ثائرته إلا اذا أشعرها ألماً موجعاً ينقض الضلوع بعضها على بعض . فلقد كان ثروت فى صحته حين جاء الى باريس من سان مورتز يوم الاثنين السابع عشر من شهر سبتمبر سنة ١٩٢٨ — أى قبل وفاته بخمسة أيام . فلما كان يوم الجمعة الحادى والعشرين من سبتمبر خرج فى الصباح كعادته وعاد بعد الظهر بقليل يشكو ألماً فى الكتف وفى الظهر . واستدعى طبيب الحى ففحص الحالة ورأى أنها بسيطة لا تزيد على روماتزم يزول فى زمن قصير . لكن الآلام تزايدت أثناء الليل . فلما جاء محمد على دلاور بك فى الصباح ليعود صديقه رأى معه ضرورة استدعاء استاذ اخصائى أجابهم أنه سيكون هناك فى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر، لأنه لا يستطيع ترك المستشفى الذى يعمل فيه قبل هذا الموعد . وحضر الاستاذ الطبيب فى الموعد، فلما فحص المريض فى سريره وخرج الى قاعة الاستقبال خرج دلاور بك فى أثره يسأله رأيه . وكان رأياً مروعاً . فالباشا اعترته ذبحة صدرية إن استطاع احتمالها ساعتين كان فى نجاة حياته شىء من الأمل .

لكن الطبيب في شك من استطاعة احتماله إياها، وهو ما كاد يغادر غرفة الاستقبال الى سلم الدار حتى اذا ثروت باشا قد شعر بالتنفس يضيق ثم يضيق ثم يضيق، فيؤلمه ذلك ويوجعه. ولكي تخفف من هذا الألم رفعت السيدة المحترمة زوجته إياه الى صدرها. ثم لم تك إلا لحظة حتى شعر الباشا بشيء أنتقه في دهشة وعجب بلفظ «الله» وكانت هي آخر كلمة قالها. فان شرياناً متصلاً بالقلب انفجر في هذه اللحظة أشعره الخطر حين لم يك الى دفع الخطر سبيل ولا الى اتقاء الكارثة التي تفجع لها فؤاد مصر وسيلة. ونودي بالطبيب فعاد فاذا به أمام جلال الموت وكان من برهة أمام رجل ألبسته الحياة وألبسها كل حلل الجلال.

وكأنما أراد القدر إذ كتب لوح أجل ثروت في باريس بعيداً عن بلاده وكتب على زوجه ان تكون في هذه الساعة العصيبة الى جانبه، أن يحيط الفجيعة المفزعة بما يخفف من هول وقعها، فجمع بباريس في هذه الفترة جماعة من اخصاء ثروت وأصدقائه ومحبيه وعارفي فضله في خدمة بلاده. جمعهم ليكونوا الى جانب جثمانه وليحاولوا عزاء زوجته وولده مصطفى المقيمين معه. وقام المصريون المقيمون في باريس وطائفة كبيرة من الفرنسيين وغير الفرنسيين في اليومين اللذين انقضيا بين الوفاة وتشييع الرفات في سفرها لتستقر في ثرى الوطن بكل ما يجب لثروت من اكرام واجلال.

وفي هذين اليومين اللذين انقضيا بين الوفاة والتشييع الى ثرى الوطن كنت تسمع من المصريين جميعاً عبارة ملكت عليهم ألبابهم: من ذا يحل عقد المشاكل اذا تعقدت بعد ثروت!. كنت تسمع هذه

العبارة تصدر منهم جميعاً على اختلاف نحلهم وأحزابهم . أو لم يكن هو دائماً الموئل الذى يلجأ اليه المصريون مهما علت أقدارهم والذى يلجأ اليه الانكليز حين يحزب الامر ولا يكاد انسان من الناس يرى له من طريق السلام فرجاً ولا حلا ؛ لذلك كان الكل ينظرون اليه كأنه الربان الذى ينقذ السفينة كلما ارتطمت على الصخر وخيف عليها ان تتحطم . فطبيعى أن يتساءل الكل عمن يحل عقد المشاكل اذا تعقدت بعد موته .

ولعل احداً لم يذكر فى وفاة ثروت مصاب زوجه وأبنائه فيه ، لان الناس نسوا فى هذه الوفاة كل مصاب غير مصاب الوطن . مع هذا فمصاب بنى ثروت ومصاب أصدقائه فيه كأب وكصديق فادح فاجع كمصاب الوطن سواء بسواء . فلقد كان أبر أب بأبنائه وأوفى صديق لأصدقائه . بل ان الذين عرفوه أباً ليذكرون كم كان بره عظيما وكم كان حنانه أعظم من بره . وكم كان صديقاً لابنائه بمقدار ما كان أباً لهم . وكم كان يجد فى صداقتهم له ما يزيد فى عواطف الأبوة والبنوة سمواً ورقة . وان الذين عرفوه صديقاً ليعرفون له من الوفاء لهم ما قل ان يكون له فى صديق مثال . ثم هو الى جانب ذلك كان حصافة الرأى ونبل الشمائل والشهامة والذكاء صورت كلها رجلا .

***

ولد محمد عبد الخالق ثروت سنة ١٨٧٣ فى بيت جاه ونعمة . كان أبوه المغفور له اسماعيل عبد الخالق باشا ابن المرحوم عبد الخالق

افندى من أصل أناضولى ، وكان من كبار الحكام فى عهد محمد على الكبير . وكانت أمه من بيت تركى هى الأخرى . وقد أرسل به ابوه الى مدرسة عابدين وهو فى الثامنة من عمره، ثم تابع دراسته فى مدرسة النورمال حتى اذا نال شهادة الدراسة الثانوية التحق بمدرسة الحقوق ثم كان أول الناجحين فى إجازة الليسانس سنة ١٨٩٣ .

وكان ثروت الطالب ، على ماذكر الاستاذ لطفى بك السيد زميله فى مدرسة الحقوق ، « شابا حسن الطلعة ، تعلوه سيما الجد فى غير عبوس ، مترفعا فى غير كبر ، سهل الاخلاق دون فناء فى الاغيار . وكان فى ألمه وفرحه معتدلا محتفظا فى كل حال بكرامته ، نافذ الرأى فى بيئته ، ودوداً من غير الحاح ، ومتحفظا من غير انقباض ، محبب العشرة فى رقته . وكان فى جاذبيته وحلاوة حديثه متفوقا كما كان فى ذكائه واجتهاده . نعم فقد كان ذكيا حاد الذكاء مواتى البديهة كثير الاشتغال ، فوق درس الحقوق، بمناحى الثقافة يلتمسها فى الآداب الفرنسية والعربية . وأكثر ميله فى هذا الباب الى التاريخ على العموم والتراجم على الخصوص ، ميل كبر معه حتى صار فى السنين الاخيرة — من حياته — نوعا من الشغف» وكان لشغفه هذا مظهر عرفه عنه كل أصحابه وعرفه عنه باعة الكتب فى مصر وفى باريس بنوع خاص. فقد كان كثير التردد عليهم والبحث فى مخازنهم عن كتب قديمة نفدت طبعاتها، وكان لا يأبى أن ينفق فى هذا البحث أياما متتالية حتى يقع على طلبته . فاذا وقع عليها أمعن فيها بحثا وتقليبا حتى يقف منها على غاية البحث الذى يدور بخاطره .

ولما نال إجازة الحقوق التحق موظفاً بوزارة الحقانية سكرتيراً

والمستشار القضائي بها . وكان المستشار القضائي يومئذ السير جون سكوت من أحسن من عرفت الحكومة المصرية مقدرة ونزاهة . وسرعان ماقدر مواهب ثروت حتى اختصه بكل ثقته وحتى وضع فى يده كل نفوذه . ونفوذ المستشار الانكليزى يومئذ كان أقوى من نفوذ الوزير المصرى ، بل كان نفوذ أى موظف إنكليزى أقوى من نفوذ أكبر كبير من ولاة الحكم فى مصر . لذلك كان ما استولى عليه ثروت من نفوذ ومن ثقة بحيث طوع له أن يقوم فى وزارة الحقانية مقام صاحب الأمر والنهى فيها وما يزال شابا لم يبلغ الخامسة والعشرين من سنه . وعاونت هذه الحرية فى السلطة ماوهب من مقدرة وذكاء ، فلم يلبث الا قليلا حتى تقدم فى وظائف القضاء وحتى عين مستشاراً بمحكمة الاستئناف ثم نقل مديراً لأسيوط ثم عاد الى الحقانية نائباً عاما واختير وزيراً لها فى سنة ١٩١٤ .

على انه لم يقصر نشاطه فى هذه الفترة من حياته على المناصب التى تولاها والتى أسرع به الزمن فيها الى حد لم يعرفه غيره ، ثم كان بثقافته وذكائه واقتداره مثلا عالياً للموظف الكفء القدير . بل لقد أسلس من نشاطه الى أعمال عامة لا اتصال لها بالحكومة ، بل كانت الحكومة تنظر اليها فى كثير من الاحيان بشيء من الريبة والحذر . انتخب عضواً فى ادارة الجمعية الخيرية الاسلامية ، وعضوا فى ادارة الجامعة المصرية ، وكان يومئذ مايزال يشغل منصب النائب العام . وكانت له فى الجامعة وفى الجمعية سلطة نافذة وارادة قوية ، ثم كان لنفوذه بعد أن علا فى العالم السياسى نجمه

مازاد الهيئتين قوة واقتدارا على القيام بالاعمال الجليلة فى البر وفى الثقافة مما أنشئتا من أجله.

وقد ظل اقتداره وظل نفوذه معروفا فى الدوائر الخاصة بالقضاء وعند المسئولين عن شؤون مصر العامة، حتى عين فى منصب النائب العام. وكان المسئولون وكانت دائرة القضاء تقدر فيه الى جانب فضله حرصه على تنشئة من يتوسم فيهم الكفاية والمقدرة من الشبان وممن يطمع فى أن يقوموا لبلادهم بمثل الدور الذى قام به هو لبلاده. فلما كان صاحب الدعوى العمومية أتاح له حادث خطير أن اتصل بالجمهور اتصالا مباشراً، فقد اعتدى ابراهيم ناصف الوردانى على حياة المرحوم بطرس باشا غالى فى سنة ١٩١٠ بأن أطلق عليه الرصاص ساعة خروجه مع ثروت باشا النائب العام من وزارة الحقانية وتولى ثروت بنفسه تحقيق هذا الاعتداء والمرافعة فى الدعوى. هنالك اطلع الجمهور منه على اقتدار خاص. وهنالك بدأ الجانب السياسى من حياة الرجل تظهر نواته وتكاد تتحدد سياسته. فالعبارة التى تنقلها من تلك المرافعة تلخص الى حد كبير ماجرى عليه ثروت كوزير وكرجل سياسى بقية حياته، قال:

« نحن أول من يجل الاشتغال بالمسائل العامة ويرى أن السعى بالطرق المشروعة فيما ترقى به البلاد وأهلها من فروض العين على المصرى، وان كل مصرى مطالب بتضحية شىء من وقته وماله وهمته فى خدمة بلاده. نحن أول من يرحب بتنمية الوطنية ورياضة النفوس على احتمال أشق المشقات فى اعلاء اسم مصر وزيادة شرفها ورفعتها. كذلك نرى أن من مرقيات الامم الدارجة فى رقيها

النظر فى اعمال القابضين على أزمة الامور فيها وتقدها . ولكنا لانسلم بحال من الاحوال أن يتطلع الى مقام ناقد الحكام الا رجل جمع الى العلم الغزير والحكمة البالغة الا تزان فى القول والعمل حتى يقدر الاعمال قدرها وينظر فى الامور بفكر صحيح، فلا يتعدى حد المشروعية والا انقلبت الخدمة وبالا وارادة الخير شراً »

هذه العبارة من مرافعة ثروت تنم من حياته السياسية المستقبلة عن جانبين : الاول تقديره السعى لتقدم البلاد واستقلالها على انه فرض من فروض العين على كل مصرى . والثانى أن يكون ذلك السعى بالطرق المشروعة لا بالثورة ولا بالفوضى ولا بالاعتداء . ولئن كان هذا التعبير - بالطرق المشروعة - هو الذى اتخذته مصر من بعد شعاراً لها فى المطالبة بحقوق كان ثروت بطل تحقيق النصيب الأوفى منها، فان هذا التعبير بالذات قد جعل ثروت كنائب عام يقف من كثرة شباب مصر يومئذ موقف الريبة . فالشباب ، وان قدر بعقله ما للحق فى ذاته من قوة تتغلب على كل قوة سواها ، متعجل يريد أن يرى الحق فى قبضة يده أو هو يصفق وان فى أطواء قلبه لمن يعتدى على من يحسبه الحائل دون هذا الحق . لذلك كان الوردانى موضع عطف الكثيرين من الشباب وان لم يكن موضع عطف الذين يقدرون الاشياء بنتائجها من المسئولين، ولذلك كان ثروت بمرافعته موضع اعجاب المسئولين وتقديرهم وموضع حنق الشباب عليه مع اعجابهم بمقدرته كالمسئولين سواء بسواء .

ولم يحرك حنق الجمهور ولا متابعته الشباب فى غضبه أى عصب

من أعصاب ثروت. ذلك بأن جانباً ثالثاً من جوانب حياته السياسية كان الاعتداد برأيه هو وبعقيدته لا برأى الجمهور وعقيدته فيه. فهو ما اطمأن ضميره ورضيت نفسه مقدم على عمله غير عابئ برأى الناس فى إقدامه. وهو مقدم فى جرأة عجيبة لا يسهل تصديقها الا على الذين عرفوا قدر دماثة الخلق ووداعة الطبع وحب الخير والميل العظيم الى البر والرحمة.

وحرك الحكم بالاعدام على قاتل بطرس غالى النفوس بشىء من مثل ما تحركت له على أثر الحكم فى قضية دنشواى، وكان بطرس رئيساً لمحكمتها المخصوصة. تحركت النفوس ذاكرة دنشواى واتفاقية السودان، ملتهبة غيرة بما سمعت فى الدعوى من مرافعات الدفاع عن الوردانى، مرافعات حارة تفيض تقديراً لوطنيته التى دفعته الى جريمة ارتكبها مدفوعا بعوامل لا قبل له بمقاومتها. والحق ان هذا الحادث الذى عقب حكم دنشواى فى سنة ١٩٠٦ ثم صدور العفو عن المحكوم عليهم من الدنشوائيين فى سنة ١٩٠٨ ثم وفاة مصطفى كامل، الذى جاهد حتى استصدر العفو، بعد صدوره بشهر واحد. نقول ان هذا الحادث حرك النفوس فى مصر الى المزيد من السعى فى المطالبة بحرية كان الشعور ما يفتأ متزايداً بأن الاحتلال الانكليزى القابض على أزمة الأمور فى مصر يحاول القضاء عليها قضاء أخيراً. وكان من أثر هذا الشعور، الذى ازداد التهابا حين أحس بتخلى اوربا عنه بالاتفاق الودى الذى عقد بين فرنسا وانكلترا فى سنة ١٩٠٤ وبعجز الباب العالى الذى انهزم أمام انكلترا فى حادث طابه فى سنة ١٩٠٦، أن بدأت فى البلاد حركة اعتماد على النفس وتقدير لما يجب من جهود

المصريين لوطنهم بما جعل الحكومة المصرية التى تقوم لتستر الحكومة الفعلية، حكومة المستشارين الانكليز، تحس بغضاضة على نفسها وحرج فى مركزها . وكان ذلك شأن حكومة محمد سعيد باشا التى تولت مناصبها بعد وفاة بطرس . على أنها حرصت على أن تظهر فى مظهر الحكومة الوطنية فيما كان يقع من مناقشات فى مجلس الشورى ، ثم ظهرت كذلك فى مظهر الحكومة الوطنية حين استصدرت، بموافقة انكلترا وعميدها فى مصر لورد كتشنر الذى خلف سير الدون جورست بعد وفاته ، قانوناً جديداً لنظام الحكومة المصرية ، هو قانون الجمعية التشريعية .

وتمت الانتخابات لهذه الجمعية فى أواخر سنة ١٩١٣، وبدأت عقد جلساتها منذ أوائل سنة ١٩١٤ بعدما انتخب فيها من أقوياء الحجة فى مصر وذوى المكانة منها ما جعل الحكومة لا تستطيع طول مناقشة الجمعية إياها . فاستقالت وإن لم يكن ثم نص فى القانون النظامى بمسئوليتها أمام هذه الهيئة النيابية . وشكل حسين رشدى باشا الوزارة الجديدة واختار ثروت باشا وزيراً للحقانية فيها .

على أن الحرب العظمى لم تلبث أن أعلنت فى أغسطس سنة ١٩١٤ فلم يكن بد من إرجاء عقد جلسات الجمعية التشريعية حتى انتهائها . ويذكر الذين عاشوا هذا الظرف الدقيق من حياة مصر والحكومة المصرية كم كان مركز مصر حرجا ، وكم كان مركز الحكومة المصرية أشد حرجا . فمصر كانت ولاية عثمانية ممتازة تدين بالولاء لتركيا . وخديو مصر عباس حلمى الثانى كان غائباً عن مصر مقيما بالآستانة متهما فى نظر الانكليز بالتآمر مع تركيا ومع ألمانيا على انكلترا وعلى

الحلفاء . ورشدى باشا رئيس الحكومة والقائم مقام الخديو مدين هو وحكومته لتركيا والخديوى بالاخلاص والولاء . وانكلترا صاحبة اليد العليا فى مصر والجيوش الجرارة على أرضها تملك بكلمة أن تضمها الى أملاكها من غير أن يستطيع الخديو أو تستطيع تركيا دفاعا عنها . وهيهات إذا ضمت مصر الى أملاك انكلترا أول الحرب أن يكون أمل فى أن تخرج من هذا المركز بعد الحرب اذا انتهت هذه الحرب بانتصار انكلترا وحلفائها ، أو أن يكون أمل حتى فى مركزها كولاية عثمانيـة ممتازة اذا انتهت الحرب بانكسار انكلترا وانتصار الالمان عليها . فما عسى تصنع حكومة حسين رشدى فى هذا المركز الدقيق ؟

وزاد مركز تلك الحكومة دقة وحرجا أن الشعور العام فى مصر كان ميالا الى جانب ألمانيا آملا فى فوزها طامعاً فى أن تحرر من نير انكلترا . وكأنما تجددت يومئذ فى نفس المصريين الذين كانوا يستمدون من قبـل على فرنسا لتجلى لهم جنود انـكلترا عن أرضهم آمال فى الاعتماد على ألمانيا لتحقق لهم هـذه الغاية . وكان هؤلاء المصريون الموالون ألمانيا بعواطفهم يدورون فى الاندية والأماكن العامة وفى قطر السكة الحـديد وبيدهم خرائط الحرب مؤشراً عليها بمواقع القتال وبما كسب الالمان واندحر الحلفاء. ودعاية كهذه من شأنها ان تعد البلاد للثورة اذا لم تكن حكومتها مستعدة لقمع كل حركة من الحركات الطائشة فيها . لـكن هذا الاستعداد من جانب حكومة رشـدى باشا لم يكن له تأويل إلا الدفع بمصر الى أحضان انـكلترا والخروج بذلك على ما كان معروفا يومئـذ

من ميول تركيا ميولا انتهت بخوضها غمار الحرب الى جانب ألمانيا، فوقفت تلك الحكومة محاولة أن تصل الى خير الوعود من انكلترا بالنسبة لمصر يوم تنتهى الحرب بمصلحة الحلفاء، عاملة على أن يصيب مصر أقل ضير ممكن من جراء الحرب، نافضة يدها بعد ذلك من شؤون الدفاع عن مصر بعد ما أعلنت انكلترا الاحكام العرفية فيها وأخذت هذه المهمة على عاتقها، منتظرة تطور الحوادث وما يمكن أن يجيء القدر به.

وأعلنت تركيا الحرب منضمة الى ألمانيا، فألفت انكلترا الفرصة لتغيير موقف مصر السياسى . وقد دار بخاطر أولى الامر فى لندن — على ماذكر لورد جراى وزير الخارجية الانكليزية فى ذلك الحين — أن يعلنوا ضم مصر الى أملاك التاج . لكن اعتراضات قامت فى هذا الصدد : أولها وأقواها أن الحلفاء الذين تحارب انكلترا وإياهم كتفاً لكتف يؤولون هذا التصرف من جانبها بأنها أرادت أن تقرر لنفسها غنائم الحرب قبل أن تضع الحرب أوزارها وقبل أن تتفق وإياهم على شيء فى هذا الصدد . ثم ان اعلان الضم ربما كان من شأنه أن يهيج الشعور فى مصر الى حد ربما كانت عواقبه غير مأمونة . على ذلك فكرت حكومة لندن فى اعلان الحماية على مصر، وانتهت ، بعد شيء من التردد ، الى اختيار السلطان حسين كامل سلطانا فى القاهرة بدل ابن أخيه عباس الذى قررت انكلترا أنه انضم انضماما ظاهراً الى أعدائها، فلا يمكن أن يعتلى عرشاً تحت حمايتها . ودارت محادثات طويلة فى هذا الشأن بين الوكالة البريطانية والحكومة المصرية انتهت الى قبول رشدى باشا وزملائه الأمر

الواقع والبقاء في مناصبهم كوزراء تحت نظام الحماية، آملين متى انتهت الحرب أن تجد انكلترا في تصرفهم ما يجعلهم منها بمكان يستطيعون معه الوصول الى خير نظام سياسي لبلاد ألقت المقادير على عواتقهم أعباء مصيرها في ظرف دقيق لم يكونوا يتوقعونه. وظلت حكومة رشدي باشا، وفيها ثروت باشا وزير الحقانية، حتى وضعت الحرب أوزارها وأعلنت الهدنة في ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ مقائمة بكل ما أخذت به نفسها من ولاء الحلفاء وحرص على مصالح مصر ورجاء في أن لا يسوء مركزها بسبب ظروف احتملوها ولم تكن لهم يد فيها .

ولما كانت الشروط الاربعة عشر التي وضعها الرئيس ولسن رئيس جمهورية الولايات المتحدة معتبراً إياها أسساً للهدنة والصلح قد أعلنت قبل الهدنة بأشهر مشتملة على شرط يجعل للشعوب حق تقرير مصيرها، فقد انتهز جماعة من أعضاء حزب الامة — نذكر من بينهم على باشا شعراوي، ولطفي بك السيد، ومحمد باشا محمود، وعبد العزيز باشا فهمي — هذه الفرصة ففكروا في تكوين هيئة تطالب لمصر بحقها في تقرير مصيرها . وأفضى هؤلاء بفكرتهم الى حكومة رشدي باشا فوجدوا منها ارتياحاً لها . ففاتحوا سعد زغلول باشا على أن يكون رئيساً لهيئتهم باعتباره وكيل الجمعية التشريعية المنتخب كما فاتحوا عبد اللطيف المكباتي بك ومحمد على باشا من أعضاء الحزب الوطني . وعلى ذلك تألفت هيئة أطلقت على نفسها اسم الوفد المصري ووضعت صيغة توكيل من الامة لها بالسعي لاستقلال مصر أينما وجدت اليه سبيلا . ووزعت هذه التوكيلات في طول

مصر وعرضها بعلم حكومة رشدى باشا . وكان من رأى السير رنجالد ونجت مندوب انكلترا السامى فى مصر يومئذ أن يترك لهذا الوفد حرية السفر الى انكلترا أو الى حيث شاء من ممالك أوربا وأن يسافر حسين رشدى باشا وعدلى يكن باشا ليعبرا فى لندن عن مطالب المصريين . ولو أن نصيحة السير ونجت نجحت يومئذ لتغير ،على الأغلب، وجه المسألة المصرية ولسارت فى طريق غير التى سارت فيها بسبب رفض انكلترا الاذن للوفد وللوزيرين المصريين بالسفر .

ورفضت حكومة لندن سفر أحد من الوزراء المصريين وسفر رجال الوفد الى انكلترا أو الى مؤتمر السلام . ولم تنجح محاولات الحكومة المصرية والمندوب السامى البريطانى فى تحويل الحكومة الانكليزية عن رأيها . هنالك استقال رشدى باشا وعدلى باشا واستقالت وزارتهما فى ٦ فبراير سنة ١٩١٩ . ولقد خيل الى المراجع العليا يومئذ أنهم واجدون فى ثروت باشا ،وله من الكفاية والمقدرة ما له،الرجل الذى يستطيع التغلب على الموقف باقناع رجال الوفد كى يعدلوا عن خطتهم ،كما خيل اليهم أن ثروت باشا لن يرفض رياسة الوزارة حين تعرض عليه وما يزال يومئذ فى الخامسة والاربعين من عمره . لكن تقديرهم أخطأ ، فقد كان ثروت باشا مشتركا بقلبه وبعقله مع الحركة الوطنية ومع زميليه عدلى ورشدى . ثم هو كان يقدر التبعة الكبرى التى احتملها مع زميليه بقبول البقاء فى الوزارة بعد اعلان انكلترا حمايتها على مصر. فاذا كانت المقادير قد أتاحت النصر لانكلترا ، وكانت مصر ،

والحكومة المصرية بنوع خاص ، عاملا من عوامل هـذا النصر اعترف به الفيكونت مارشال اللنبي قائد جيوش الحلفاء في الشرق، فان من خطل الرأي وسوء التدبير الذي لايليق بسياسي حنكته تجارب الحرب ماحنكت ثروت باشا أن يرضى الساحة من رياسة الوزارة بديلالما كان يرى حقالأمته أن تبلغه من نظام يتفق مع مكانتها ويعادل بعض الجهود التي بذلتها أثناء الحرب الكبرى . واذا كانت بعض دول أوربا التي خاضت غمار الحرب الى جانب الحلفاء قد حصلت على وعود بالتوسع وضمان الاستقلال ، واذا كانت بلاد العرب قد اعتبر لها استقلالها ، فلن يكون ثروت هو الذي يقبل وزارة يعتبر قبولها حيلولة دون مصر وما تطمع فيه من استقلال وعزة مكان بين دول العالم.

ورفض أن يشكل الوزارة في هذا الظرف الدقيق ،مقدراً أن سيحسب عليه رفضه عند ذوي الكلمة والمراجع العليا في مصر. بل لقد أبلغ يومئذ أن رفضه هذا يحول بينه وبين الوزارة بقية حياته، فلم يعبأ بما أبلغ اليه وأصر على الوقوف الى جانب أمته اصراراً دعا الوفد،وعلى رأسه سعد زغلول باشا، كي يسعى بكامل هيئته الى دار ثروت باشا مقدما اليه التهنئة على إبائه الوطني وآيات الشكر على تضامنه مع الوفد في حركته القومية . وكانت كلمات سعد باشا له أن تضامنه مع الحركة القومية العامة يكسب الوفد قوة والبلاد أملا في النجاح . وترتب على هذه الزيارة لبيت ثروت باشا أن أنذرت السلطة العسكرية الوفد بأنهم بحركاتهم يعرقلون سير الحكومة . على أن هذا الانذار لم يزد على أن ثبت ثروت باشا في اصراره على

رفض تشكيل الوزارة وعلى وضع حجر الأساس برفضه هذا لنجاح القضية القومية .

من ذلك التاريخ بدأ ثروت باشا نشاطه السياسى فى السعى لاستقلال بلاده بالطرق المشروعة التى أشار اليها فى مرافعته فى قضية قاتل بطرس باشا غالى . ومن ذلك التاريخ أخلص لغايته كل نفسه وكل جهده وازدرى الى جانبها كل ما يطمع فيه غيره . على أن ثقته المطلقة بنفسه كانت تدعوه الى أن يتبع فى سياسته خطة غير التى يتبعها كثيرون من الساسة غيره . فهو لم يكن يبدأ بأن يعلن للناس مطالبه مستعيناً فى تحقيقها بالقوة أو بالوقيعة أو بالمساومة . بل كان يحدد فى نفسه غاياته ويعتمد قبل كل شىء على البحث المقترن بالحكمة والمنطق وحكم العقل . وقوته ومهارته وصبره كانت تكفل له النجاح دائما فى بلوغ ما يريده . وكان يكفل لهذا النجاح كذلك ما تعوده من الاضطلاع بالتبعات وحمل المسئوليات منذ أول شبابه وحين كان سكرتيراً لمستشار الحقانية الذى ألقى بين يديه بواسع سلطته . بهذه القوى عنده استعان حين جاءت لجنة ملنر سنة ١٩٢٠ لتنظر فى وضع نظام لمصر تحت الحماية البريطانية فاشترك مع أصدقائه السياسيين، رشدى باشا وعدلى باشا واسماعيل صدقى باشا، فى اقناع اللجنة بضرورة التفاهم مع هيئة الوفد المصرى فى أمر القضية المصرية . وكان ثروت باشا من بين زملائه هو الذى ينقل آراء اللجنة ووجهات نظرها الى رجال الوفد بباريس كى يمهد لهم الوقوف على آرائها وخططها ، حتى اذا اتصلوا بها كان اتصالهم مثمراً . فلما انتهت اللجنة من محادثاتها مع الوفد وأعلن مشروع ملنر فى صيف سنة ١٩٢٠

ثم قدمت اللجنة تقريرها وأعلنت الحكومة البريطانية اعترافها بأن الحماية علاقة غير مرضية بين مصر وانكلترا وطلبت الى عظمة سلطان مصر ايفاد هيئة تتفاوض مع الحكومة البريطانيـة فى استبدالها بعلاقة أوجب للرضا ، شكل عدلى باشـا وزارته الاولى فى مارس سنة ١٩٢٠ وكان ثروت باشا وزير الداخلية فيها .

وعاد سعد زغلول باشا من باريس فى أوائل ابريل ودارت محـادثات بينه وبين الوزارة انتهت الى اختلافه وإياها فى طريقة تشكيل الوفد الذى يقوم بالمفاوضة واعلانه الحرب عليها فى خطبة ألقاها فى ٢٨ ابريل بحى شبرا . ثم سافر عدلى باشا على رأس الوفد الرسمى الذى تألف بأمر عظمة السلطان ليقوم بالمفاوضة، واستصحب معه من أعضاء وزارته حسين رشدى باشا واسماعيل صدقى باشا ومحمد شفيق باشا ، كما استصحب غيرهم مفاوضين ومستشارين. وقام ثروت باشا فى مصر رئيساً للوزارة بالنيابة. وكوزير للداخلية مسئول عن حفظ الامن والنظام اللذين كانا مهددين بحركات أنصار سعد باشا زغلول لم يتردد فى احتمال التبعات التى رآها واجبة فى هذا الظرف ، دالا بذلك على جرأة وحزم لا يعرفان ترددا ولا هوادة. وبرغم الجهود التى بذلها عدلى باشا والوفد الذى كان معه فى سبيل إقناع الانكليز بوجهة نظر مصر ، وبرغم تناولهم كل مسألة من المسـائل الخلافية بين الدولتين ابتغاء الوصول الى حلها حلا يقنعهما ، فقد جنى الخلاف بين سعد باشـا والحكومة على هذه المفاوضات فلم تؤت الثمرة التى كانت مرجوة منها ، ولذلك قطع عدلى باشا المفاوضة بعد أن أعلن اليه لورد كرزون وزير الخارجية البريطانية مشروع حكومته . واستقال عدلى باشا

على أثر وصوله. ونشرت السلطات البريطانية المشروع المذكور مرفقاً بمذكرة مهينة لمصر أشد الاهانة .

تحرج الموقف السياسي بين مصر وانكلترا على أثر هذه الاستقالة . ثم زاده حرجا أن قبضت السلطة العسكرية البريطانية على سعد زغلول باشا وخمسة من أنصاره وقررت نفيهم عن مصر. هنالك مادت البلاد كلها كلمة واحدة تنادى بعدم التعاون مع انكلترا وتدعو كل مصرى أن لا يقبل تأليف وزارة تضطلع بمسئولية الامر فى مصر ، حتى تظل انكلترا وأحكامها العرفية مسؤلة مباشرة عن كل ما يقع فيها .

فى هذا الظرف ظهرت مهارة ثروت باشا السياسية وظهر اقتداره. ان المشروع الذى أعلنته انكلترا ولم تقبله مصر يقضى باعتراف انكلترا باستقلال مصر استقلالا مقيدا فى مسائل معينة . وهذه القيود هى التى لا ترضاها مصر . فاذا أرجأنا النظر فى هذه القيود الى ظرف مقبل اكثر ملاءمة من ظرف المفاوضات وما كان يشوبه من خلاف بين سعد باشا زغلول والحكومة المصرية وأعلنت انكلترا من جانبها التخلى لمصر عما ارتضت أن تتخلى عنه أثناء مفاوضات عدلى باشا ووفده ، كانت هذه خطوة جديدة من جانب انكلترا تدل بها على حسن نيتها بازاء مصر وتزيل الحرج الذى أدى اليه كتابها المرفق به المشروع ، ثم لا تكون قد خسرت شيئاً لأنها انما تتنزل عما كانت معتزمة من قبل التنزل عنه . على أنه حين بدأ محادثاته مع معتمد انكلترا للوصول الى هذه الغاية لم يبدأها بطلب الغاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر ، لما كان يعلمه من أن هذا الطلب يلاق

من جانب حكومة لندن بالرفض ، بل تقدم بطلبات لا يبدو أول الامر أن لها بوجود الحماية البريطانية لمصر او برفعها اتصال . ولم يكن بد أمام العقل من قبول انكلترا هذه الطلبات . وبعد قبولها وتحديد المسائل التى تعلق لمفاوضات حرة مستقبلة بين مصر وانكلترا، وصل ثروت باشا من بحثه الى نقطة تبين معها لممثل انكلترا نفسه أن بقاء الحماية الانكليزية مفروضة على مصر لم يبق له أية فائدة لانكلترا نفسها . وحكم العقل يقضى بأن التشبث بأمر لا فائدة من ورائه سخف لا يليق بذوى الفطنة السياسية . وقد بلغ من اقتناع اللورد اللنبي معتمد انكلترا واقتناع المستشارين الانكليز فى الوزارات المصرية برأى ثروت باشا ، أن هددوا جميعاً بالاستقالة اذا وقفت لندن فلم تجب مطالبهم . وعجبت حكومة لندن لهذا الموقف فاستدعت معتمدها ومستشاريه فذهبوا اليها ، ولم يكن الا أيام حتى أقنعت حجج ثروت الحكومة الانكليزية أيضا . وعاد لورد اللنبي فى يوم ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ فاعلن فى مصر تصريحا من جانب انكلترا بأنها تعترف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة وتنهى لذلك حمايتها عليها محتفظة لمفاوضات مستقبلة بمسائل اربع : الدفاع عن مصر ، وحماية مواصلات الامبراطورية ، وحماية الاجانب والاقليات ، ومسألة السودان . وعلى أثر ذلك أجاب ثروت باشا دعوة جلالة الملك فشكل وزارته الأولى فى أول مارس سنة ١٩٢٢ .

على أن هذا العمل العظيم الذى قام به ثروت باشا من حمل انكلترا على الاعتراف باستقلال مصر كان سبباً لأن تدبر ضده فى الخفاء مؤامرة لاغتيال حياته . وقد دبر هذا الاغتيال قبل

اعلان التصريح بيومين . على أن ادارة الأمن العام علمت بالمؤامرة وأحبطتها ، بأن أبلغت ثروت باشا الخبر وتفاصيله ، وأن المؤتمرين يكمنون له عند كوبرى الأعمى ، حتى اذا مر فى أوتوموبيله ذاهباً الى نادى محمد على فتكوا به . وقد طلب ذلك اليوم الى مقابلة عظمة السلطان فى عابدين فى الوقت الذى كانت المؤامرة فيه تريد إتمام جريمتها . فدعا اليه صديقه وزميله فى محادثات الانكليز بشأن الاعتراف باستقلال مصر حضرة صاحب المعالى اسماعيل صدقى باشا وطلب اليه أن ينوب عنه فى مقابلة جلالة الملك على أن يركب سيارة بالاجرة . وكذلك نجا ثروت وقبض على المتآمرين . ومن يدرى ماذا كان يصيب مصر لو أن الجناية تمت على ما يشتهى المدبرون ؟

واعلان انكلترا اعترافها بمصر دولة ذات سيادة بفضل مجهودات ثروت باشا السلمية ومقدرته على الاستفادة من الظروف بتقديره قوة بلاده ومطالب انكلترا — هذا الاعلان رفع مقامه كرجل سياسيا فذ فى نظر العالم بأسره ، وجعل ابناء أمته يتطلعون اليه معجبين به وبمهارته . على انهم انقسموا مرة أخرى ، لا فى قدرهم المجهود لذاته ، ولكن فى الخطة السياسية ، أو بالأحرى فى الخطة الحزبية التى يسلكونها بازاء التصريح بالاستقلال وبازاء الرجل الذى فاز به . فأما الطوائف الحكيمة التى تقدر الاشياء بقيمتها الحقيقية فاعتبرت التصريح خطوة جدية فى سبيل استكمال الاستقلال وعاهدت ثروت باشا على مؤازرته فى خطته . ووقفت طوائف أخرى حريصة من ناحية على ألا يمس التصريح اذى ، عاملة فى نفس الوقت على

مناوأة ثروت باشا وحكومته مناوأة دفعتهم الطعن على التصريح والانتقاص من قيمته . وقد كان من مظاهر هذا الموقف ان أمسك هؤلاء عن إبداء رأيهم فى التصريح حين أعلن البرلمان الانكليزى أنه يريد بحثه فى جلسة حدد لها يوم ١٤ مارس سنة ١٩٢٢ ، وظلوا فى وجل أى وجل أن لا تنال حكومة لويد جورج ثقة البرلمان بسبب اعلانها إياه. فلما فازت هذه الحكومة البريطانية بالثقة وأعلن جلالة ملك مصر استقلالها فى ١٥ مارس واطمأن هؤلاء المتحفزون الى أنه أصبح حقاً لمصر لا ينازعها فيه أحد بدأوا حملتهم عليه حملة منظمة غايتها الحملة على حكومة ثروت باشا . على أن ثروت لم يتردد فى هذا الظرف لحظة ، بل ظهر بكل ما يجب من قوة وحزم وبدأ ينفذ ما ينطوى عليه التصريح من حقوق مصر بانشاء وزارة الخارجية التى كانت ألغيت منذ أعلنت الحماية البريطانية على مصر فى ١٨ دسمبر سنة ١٩١٤ ، وبالغاء المستشارين البريطانيين من مختلف الوزارات عدا وزارتى الحقانية والمالية ، وبتشكيل لجنة من خيرة رجال مصر لتضع للبلاد نظاما دستوريا على أحدث المبادىء العصرية ، وبالضرب على يد الفوضى فى كل صورها ومظاهرها ، واظهار الحكومة المصرية الأهلية بمظهر الاحترام الواجب لها .

وليوطد فى النفوس الايمان بحق مصر دعا فى ٢٦ مارس سنة ١٩٢٢ ، لمناسبة عيد ميلاد جلالة الملك ، الى حفلة كبيرة بفندق الكونتننتال حيث ألقى خطابا يبين فيه مزايا العمل الجليل الذى قام به ويرسم فيه الخطة الواجب اتباعها لاستكمال الاستقلال . وقد

يبدو عجيباً أن تكون الفكرة السائدة فى هذا الخطاب هى بعينها الفكرة التى وردت فى مرافعة عبد الخالق ثروت النائب العام فى قضية الوردانى ، والتى أوردت نصها من قبل . فقد جاء فى هذا الخطاب السياسى ما نصه :

« لم يبق علينا إلا أن تقنع انكلترا أن ليس بها من حاجة الى التمسك بالضمانات التى تريد الاحتفاظ بها فتخطو بريطانيا العظمى خطوة أخرى بالاكتفاء بما لا يتنافى منها مع استقلالنا الشرعى . وليس لدينا وسيلة لتأييد ما نذهب اليه أكثر من تعلقنا بأهداب السكينة والتزامنا الهدوء وأخذنا بأسباب النظام . فان حجتهم الكبرى فيما يبدونه من رغبة في الضمانات هى شدة حذرهم على مصالحهم وخوفهم عليها وعدم اطمئنانهم الى تركها لعهدتنا . فاذا قضينا على عوامل الفتنة والاضطراب وجعلنا التزام السكينة رائدنا فاننا ننزع هذا السلاح بأيديهم وندفع حججهم علينا . ولا مشاحة فى أن كل من يعمل على تعكير السلام أو إثارة الاضطراب مجرم فى حق وطنه عامل على هدم كيانه »

ثم جاء فيه أيضاً :

« انى لا أكره المعارضة ، بل اذا انعدمت هذه المعارضة فانى أعمل على خلقها لما لها من نفع وفائدة فى الوصول الى الحقيقة وتمحيص كل أمر على أكمل وجه . ولكنى أريد المعارضة الشريفة التى ترتفع عن الاعتبارات الشخصية ولا تنزل الى اختلاق الاكاذيب . انى أريد الخصومة الشريفة التى لا تنظر الا لمصلحة الوطن وخير البلد وتدرس كل أمر لذاته مجرداً عن كل اعتبار شخصى » .

وهذه الخطة التى رسمها ثروت فى خطاب يوم عيد ميلاد جلالة الملك، هى التى كررها من بعد فى خطب ألقاها فى افتتاح لجنة الدستور ولوفود ذهبت اليه فى شؤون سياسية مختلفة . ولقد كان لهذه الخطة الحكيمة أن تؤتى ثمرها كاملا بفضل مهارة ثروت وحنكته وقوة منطقه لو أن مناوأته لم تنتقل من الميدان الوطنى الصحيح الى ميادين أخرى . فبينما هو يعمل جاداً فى تطبيق مزايا الاستقلال الذى حصلت عليه مصر مقيداً بالتحفظات التى أشرنا اليها، وقعت على جماعة من البريطانيين، ضباطاً وجنوداً ومدنيين ،سلسلة اعتداءات شنيعة أودت بحيات ثمانية عشر منهم على التعاقب . على أن هذه الاعتداءات وحدها ما كانت لتجنى على خطته لو لم يقترن بها ما جعل مركز وزارته حرجاً غاية الحرج بعد زمن وجيز من مدء لجنة الدستور عملها . فقد عمدت هذه اللجنة الى وضع مبادىء تتفق مع المبادىء العصرية التى كلفت بوضع الدستور المصرى على أساسها، وشاركها ثروت باشا الرأى فى مبادئها. ورأى البعض أن مصر بلاد شرقية يجب أن تسود فيها وسائل السياسة الشرقية وخططها . لذلك ألفى ثروت باشا نفسه فى موقف لا يستطيع معه القيام بأعباء الحكم على الوجه الذى يرضاه ضميره . ورغم المحاولات الكثيرة التى بذلها لتهدئة العواصف الكمينة فى تورتها حوله، فانه شعر بدقة المركز فجعل يستمحل لجنة الدستور حتى وضعت مشروعه وتعجلت بعد ذلك فى وضع مشروع لقانون الانتخاب. ورفعت اللجنة مشروعها اليه فى جلسة تاريخية ألقى فيها كلمة ذكر أثناءها أنه سيعمل على صدور الدستور كما وضع مشروعه ، وكان ذلك فى ١٨ أكتوبر سنة ١٩٢٢ . ولما

كان جماعة أصدقائه السياسيين يؤلفون فى هذا الوقت حزب الاحرار الدستوريين، انتظر من معونتهم مايكفل اقتداره على السير بسياسته خطوة أو خطوات أخرى . لكن الحزب ما كاد يتألف فى ٣٠ أكتوبر ثم ما كاد يمضى أسبوعان على تأليفه حتى أطلق جماعة من الشبان الرصاص على باب داره دار جريدة «السياسة» فأصابوا حسن باشا عبد الرازق واسماعيل بك زهدى من أعضاء مجلس ادارته . وأبدت الصحف المناوأة لهذا الحزب أن الرجلين ذهبا ضحية خطأ يؤسف عليه لأنهما لم يكونا مقصودين بالذات .

وكثرت الأقاويل حول المصادر الحقيقية التى تشجع هذه الجرائم ، ورأت وزارة ثروت باشا بعد أن رفعت الدستور الى جلالة الملك أنها تخطت بالبلاد خطوات يمكن الوقوف عندها فترة ريثما تطمئن النفوس وتهدأ أسباب الجريمة . وعلى ذلك رفع ثروت باشا استقالته فى يوم ٣٠ نوفمبر منوهاً فيها بما أتمت وزارته وبما مهدت له من صدور الدستور وغير الدستور مما نص فى تصريح ٢٨ فبراير على وجوب صدوره .

واعتكف ثروت منتظراً ظرفاً خيراً من الظرف الذى كان فيه فى الحكم ليعود الى الميدان فيعمل لاتمام ما بدأه بتصريح الاستقلال. على أنه فى اعتكافه لم يتوان يوما عن بذل كل ما لديه من نفوذ كى يصدر الدستور . فلما صدر فى ١٩ ابريل سنة ١٩٢٣ أيام قيام وزارة يحيى باشا ابراهيم وانتظرت البلاد الانتخابات ، أخذ يتوقع فى ظروفها ما يطوع له العود لتنفيذ سياسته. وسياسته، كما رأيته، تقوم على الاخلاص الصحيح والعزم الوطيد على إتمام اتفاق بين

انكلترا ومصر تحل به المسائل المعلقة فى التصريح. وعسير الوصول الى هذا وفى البلد من آثار الانقسام ما يخشى أن يجنى على أية مفاوضات جديدة جناية الانقسام على المفاوضات التى تولاها عدلى باشا يكن سنة ١٩٢١ . فلما عاد سعد زغلول باشا من منفاه فكر ثروت فى إمكان التفاهم معه اجتنابا لكل انقسام مستقبل . لكن علاقات الرجلين كانت متوترة منذ سنة ١٩٢١ أشد التوتر . وقد ألقى المحيطون بسعد فى روعه أن ثروت هو الذى نصح بنفيه . ثم إن سعداً كان قد طعن على ثروت أشد المطاعن وأقساها . بل لقد ذهب فى الطعن عليه الى اتهامه فى إخلاصه لوطنه . فكيف يستطيع ثروت أن ينسى هذا كله وأن يتقدم الى ناحية سعد خطوة من الخطى ؟ على انه رأى كرامة الوطن فوق كرامة أى فرد من أبنائه، فبعث الى سعد بخطاب يذكر له فيه أنه فى حرصه على مصلحة الوطن يريد أن يحتكم وإياه فى أسباب الخلاف بينهما الى الامراء وذوى الرأى والمكانة فى البلاد . وكان يرجو من احتكامه أن تزول أسباب الانقسام وأن تعود وحدة الأمة ليعود هو معتمداً على هذه الوحدة، الى استكمال استقلال بلاده بإتمام الاتفاق بين مصر وانكلترا . لكن مسعاه هذه المرة لم ينجح أن رفض سعد باشا التحكيم . وبقى ثروت باشا بعد ذلك بين كتبه ومكتبته وفى عمله المتصل بالجمعية الخيرية الاسلامية والجامعة المصرية وبغيرها من الهيئات التى كانت أبداً فى حاجة الى ثاقب رأيه . فلما كانت سنة ١٩٢٥ أدت الظروف السياسية الى التفاهم والائتلاف بين سعد زغلول باشا وخصومه السياسيين . ذلك أن سعد باشا حصل حزبه على الاغلبية

الكبرى فى انتخابات سنة ١٩٢٤ فتولى الوزارة وظل فيها حتى اعتدت جماعة ينسب بعضهم الى حزبه على حياة السير لى ستاك باشا حاكم السودان العام . فأبلغت إنكلترا حكومته انذاراً قاسياً اضطرت بعده الى التخلى عن المناصب . وخلفه أحمد زيور باشا فى رياسة الحكومة، فاستعان بالاحرار الدستوريين بعد أن حل مجلس النواب وأجرى انتخابات أسفرت عن أغلبية لحزب سعد باشا كذلك . فحل المجلس الجديد أيضاً وأجلت الانتخابات الى أجل غير مسمى. على أن الحل الأول وهذا التأجيل الثانى خلق فى البلاد حزباً جديداً كان أعضاؤه كثيرى التردد على القصر الملكى وكانت رغبتهم عن الدستور والحياة النيابية أكثر من رغبتهم فيهما. وخيل لأعضاء هذا الحزب يوماً أنهم يستطيعون القيام وحدهم فأقيل رئيس حزب الأحرار الدستوريين من الوزارة واستقال زميلاه الوزيران اللذان كانا من أعضاء حزبه تضامنا وإياه، وسنحت بذلك فرصة التفاهم والائتلاف مع حزب سعد زغلول باشا ضد الخصم المشترك والعمل معاً لعود الحياة النيابية . وكذلك قربت الظروف بين ثروت باشا وسعد باشا ،وكان يخيل للكثيرين أنهما لن يلتقيا . وجرت الانتخابات وألف عدلى باشا يكن الوزارة الائتلافية الاولى وجلس سعد باشا فى رياسة مجلس النواب. وفى أوائل ابريل سنة ١٩٢٧ استقال عدلى باشا: فألف ثروت باشا وزارته الثانية وبقى سعد باشا فى منصبه رئيساً للنواب . وكانت انكلترا يومئذ قد أرادت، متأثرة بآراء مندوبها السامى اللورد جورج لويد ، التحرش بالحكومة المصرية، فخلقت ما سمى أزمة الجيش وبعثت بأساطيلها الى الاسكندرية

ولم يعرف أحد قط مطالبها على وجه التحديد. فاستطاع ثروت باشا بمهارته وكياسته، أن يقضى على هذه الأزمة من غير أن تصل انكلترا من مطالبها الى أكثر من منح أحد الموظفين الانكليز بوزارة الحربية المصرية رتبة الباشوية.

حدث بعد ذلك أن سافر جلالة الملك فؤاد الى أوربا مدعواً الى زيارات رسمية بانكلترا وايطاليا وفرنسا وبلجيكا. وبعد شيء من التردد استصحب جلالته رئيس وزارته ثروت باشا فى رحلته. فانتهز ثروت فرصة وجوده بانكلترا وفاتح وزير خارجيتها السير اوستن تشمبرلن فى أمر أزمة الجيش وتحدث اليه فيما اذا كان مستطاعا الوصول الى حل المسائل المعلقة بين الدولتين اتقاء أزمات أخرى. وقد انتهت هذه المحادثات الى مشروع لم يقبل فى مصر ولكنه مهد السبيل الصحيح الى الاتفاق النهائى. وربما كان ممكناً تعديله بما يمهد لقبوله، لو أن سعد باشا زغلول بقى حيا الى حين انتهاء ثروت من محادثاته. لكنه توفى أثناءها، فى ٢٣ اغسطس سنة ١٩٢٧، ولم يخلفه من حنكته التجاريب السياسية ما حنكت هذا الزعيم. وطلب الى ثروت باشا أن يحل مجلس النواب وأن يجرى انتخابات يعرض فيها المشروع الذى وصل اليه على البلاد، فأبى. لأنه رأى أحزاب مصر كلها لا تقبل المشروع، ولأنه من ناحية أخرى خشى إذا حل المجلس أن لا يعود. واستقال من الوزارة ونشر يوم استقالته كتابا أخضر عن مفاوضاته. ويدل هذا الكتاب والمذكرات التى اشتمل عليها على ضخامة المجهود الذى بذله ثروت أثناء قيامه بالمفاوضات منفرداً ضخامة لم يعرف لها حتى اليوم فى

حياة سياسى مصرى نظير . ويدل كذلك على مقدرة وذكاء وكفاية وتضلع بالسياسة العالمية قل أن يكون لها مثيل . ثم يدل على صحة ما رواه عنه السير أوستن تشمبرلن لأحد أصدقائه إذ قال :

«أتاح لى اتصالى فى جمعية الامم بأكثر وزراء الخارجية فى الدول المختلفة أن أقدرهم جميعاً . وما أحسب واحداً منهم يفوق ثروت مهارة وقوة حجة وحسن بيان» . وفى الكتاب الاخضر المذكور ، الى جانب هذا كله ، اتجاه جديد فى سياسة ثروت يرمى الى ربط الاتفاق بين مصر وانكلترا بقضية السلام فى العالم ، ويجعل لذلك من الرجل سياسيا عالميا لا سياسيا قوميا وكفى . فقد أبدى وزير الخارجية البريطانية من التشدد فى بعض الأمور ما رأى ثروت باشا معه أن المناقشة أصبحت غير مجدية وأن مقامه فى لندره للوصول الى الغاية التى ينشدها لم يبق له محل . وكان أمامه اذ ذاك أن يعلن ذلك الى قومه فى عبارة قوية أخاذة، وأن يعود محاطا بهالة من الجلال والاعجاب . لكن ذلك ليس يتفق مع طريقته فى التفكير ولا هو يقرب الغاية التى ينشدها ولا يؤيد السلام الذى يسعى لتأييده. لذلك لجأ الى الحكمة ينادى داعيها فى نفس الوزير الانكليزى، حتى اذا لم يجب هذا الداعى وأصر على تشدده كان مسئولا أمام العالم كله وكان مخالفا فى خطته مع مصر كمفتاح بلاد الشرق الخطة التى أتبعتها الدول الاوربية فيما بينها لتأييد السلام . فبعث بخطاب فيه من البراعة السياسية ، ومن الحرص على كرامته وكرامة بلاده، ومن تحميل مناظره تبعة عدم النجاح، ما يشهد به نصه اذ قال :

« عزيزى صاحب السعادة

« من أطيب الاشياء الى نفسى أن أعرب لسعادتكم ، قبل مغادرتى لندرة ، عن عظيم شكرى لما لقيته لديكم من حسن الاستقبال . وانى أبى لا أنسى نزعة الود التى ما برحتم تصدرون عنها فى محادثاتنا ولا ما أبديتموه على الدوام من صادق الرغبة فى التماس أسباب التوفيق بين البلدين .

« ولقد كان يسعدنى أن أرى مساعيكم المجيدة فى تثبيت أركان الصداقة بين القطرين تكلل بالنجاح ، كما أنه يؤلمنى أن يخفق كل ما بذل من الجهود فى هذا السبيل ، تلك الجهود التى لم تجعل ، حتى المحطة الاخيرة ، مجالا للشك فى حسن ختام محادثاتنا فى هذا الشأن .

« ولا أزال أرجو ، اذ أنادى منكم داعى الحكمة والتجىء الى صادق شعوركم وصحيح انصافكم ، أن تدركوا الغاية التى تعملون لها ، وأن تضموا الى اكليل « لوكارنو » إكليل الاتفاق بين انكلترا ومصر »

ولم تضعف استقالته من الوزارة من إيمانه بامكان الاتفاق بين مصر وانكلترا . بل كان يرجو فى ظروف سياسية جديدة ما يمكنه من العود لمعالجة المفاوضات من جديد مع عظيم الرجاء فى نجاحها . لكن المجهود العظيم الذى أعنته والمقابلة السيئة المنطوية على انكار الجميل ، التى قوبل بها ، ومحاولته نسيان ذلك بالاكباب على العمل فى مجلس الشيوخ كعضو من أعضائه ، كل ذلك هز أعصابه وأضعف قوته . فسافر مستشفياً فى صيف سنة ١٩٢٨ وذهب الى سان مورتز ثم عاد منها الى باريس فى ١٨ سبتمبر . ولم يكن يدرى أن أجله

يتربص بهفيها ليختم كتاب حياته فى الساعة الثانية من بعد ظهر ٢٢ سبتمبر ، أى بعد وصوله اليها بخمسة أيام .

وبكت مصر ثروت،وتقدمت دول العلم كلها تعزيها فيه،وتناولت الصحافة فى مختلف الامم أعماله فشادت بها ورفعتهـا الى المكان الجديرة به . . بكته مصر مقدرة جميل صنيعه،وعظيم نزاهته،وعلو همته، آسفة على مافرطمنها أيام حياته فى حقه. مؤمنة بأن سيبقى اسم ثروت علماً فى تاريخ مصر على الاقتدار السياسى المنقطع النظير .

الكتاب الثانى

تراجم غربية

بتهـــــوفن

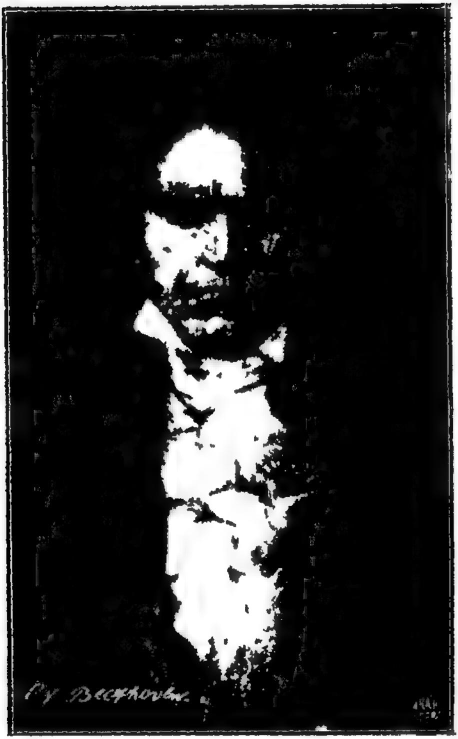

اليوم ، ٢٦ مارس سنة ١٩٢٧ ، يحتفل العالم بمرور مائة عام على وفاة بتهوفن، اجلالا لتلك الالحان القدسية التي أورثها اياه هذا النابغة الشقي ، والتي ما تزال برغم ما أحدث كبار رجال الموسيقى آيات خالدة في عالم النغم . فما يزال لحن الريف وألحان بتهوفن التسعة الاخرى وسائر أناشيده الغنائية تموج في جو الوجود فتزيده بالحياة نعمة، وتشدو في أغوار نفوس عارفيها والمعجبين بها كلما أعوزهم اللحن العذب ليرفع من هممهم وليقوى عزائمهم . وما يزال اسم بتهوفن ولن يزال مقترناً بكل لحن من هذه الالحان ، بل بكل نغمة من نغماتها . وذكر العالم اليوم له لمرور مائة عام على وفاته ليس إلا أداء الدين الشكر الواجب على العالم لكل من زاد حياته جمالا وفضلا وقوة.

يذكر العالم كله اليوم بتهوفن فيذكر ذلك الالماني المولد ، الفلمنكي الأصل ، المتقارب أجزاء الجسم في قصر يكاد يجعله قزما ، الحاد النظرة ، العبوس ، المتجهم للحياة بعد ما تجهمت الحياة له ، فأورثته المرض وانتهت به الى الصمم ، الجاعل مع ذلك من الآلام سبيل المسرة ، المفنى نفسه في سبيل فنه، المؤمن برسالته وبقوته. يذكر العالم هذا الرجل الذي لم يجد في غير العمل سبيلا للسعادة، أو بالاحرى لحسن احتمال الشقاء ، والذي توفر على عمله في الموسيقى توفراً جعله ينتج هذه الثروة الفنية ، والذي لم يعرف غير الموسيقى ولم يؤمن بشيء ايمانه بها أن كانت أعصابه أوتاراً تهتز بالنغم لكل ما في الحياة.

فقد كان كل ما فى الحياة عنده نغما ، كان الجمال نغما والعواطف نغما والافكار نغما والنور والظلمة والحزن والمسرة والزهر والشجر والسحاب والجبل وكل ما فى الطبيعة وما فى الحيـاة أنغاماً تشدو بها أوتار هذه النفس العصبية الحساسة الشديدة التأثر بكل ما يلامسها.

بهذه الانغام وبما تعبر عنه من جليل المعانى وبذكرى واضعها يحتفل العالم اذن اليوم .

وعجيب ان كانت حياة واضع هـذه الانغام السماوية نشازاً كلها . فلم ينشأ بتهوفن نشأة غيره ولم تتسق حياته مع نبوغه ، ولم يذق من الهنـاء ما يذوقه أمثاله . بل كان ، وهو على حد قوله « يا كوس الذى يستصفى للانسانية الرحيق العذب ويجلى على الناس أقدس ما فى الروح من جلال » ، معذباً فى نشأته ، معذبا طول حياته ، معذباً كذلك فى موته . ولعل ما امتعت به ذكراه بعدما استراح من عناء الحياة ونشازها الدائم معه ، قد أفاء على روحه من الطمأنينة ما لم يسترح اليه يوما طوال عيشه .

* * *

ولد لدفج فان بتهوفن بمدينـة بون على مقربة من كولونيا فى ١٦ ديسمبر سنة ١٧٧٠ . وكان ابوه مغنياً سكيراً ، وكانت أمه خادما وابنة طباخ وأرمل فراش . وهذه بداية فى الحيـاة لا تبشر بخير ولا بنعمة . بل هى نذير صراع الوجود قاس قتال . ولم يمهله أبوه الى اكثر من الرابعة من عمره حتى تبين منه ميلا للموسيقى ، فاراد أن يستغله بعرضه على الناس وحبسه ومعه كنجا صغيرة ،

وأرهقه بالعمل حتى كاد يكره اليه فناً خلق له . لكن كسب الأب كان ناقصا ، فكان لابد للطفل أن يجنى من عمله عيشه . فما بلغ الحادية عشرة حتى كان عازفا فى اركسترا أحد المسارح . وفقد أمه وهو فى السابعة عشرة من عمره. فحزن لفقدها أشد الحزن لأن التى ذلك عليه أعباء العناية بأمر أسرته وتربية أخويه بسبب ما انحطمن قوى أبيه .

وفى نوفمبر سنة ١٧٩٢ ارتحل الموسيقى الى فينا عاصمة المانيا الموسيقية على أثر موت أبيه . وكان يومئذ كما كان طوال حياته ميالا للعزلة محباً للعمل حباً جما. وكان لذلك قد جعل من البيانة(١) خير أصدقائه. فانها كان بيت شجنه حين اضطر لهجرة دار أهله وقد جعلتها عريدة أبيه جحيما ، واياها كان يستودع الافكار الطريفة التى يفيض بها قلبه ، وعليها كان يرتجل هذه الافكار ارتجالا ، ومعها كان يتناجى بما يجول فى نفسه من خلجات ومايجيش به صدره من عواطف ، وبها كان يعبر للنساء اللواتى أحب عما يغمر قلبه من هيام ومايحز فيه من غيرة . بل لقد كان يتحدث بها الى أصدقائه . ولم يكن أكثر منها بلاغة للعبارة عما فى نفسه . فقدت سيدة من معارفه ولدها وجزعت لفقده أى جزع ، فلما ذهب بتهوفن يواسيها أمسك بيدها ووضعها على قلبه وقال لها : « ان ماأشعر به هنا لاأسبيل الى بيانه . لكن البيانة ستقوله عنى» ثم جلس الى الآلة الموسيقية وارتجل قطعة يحكى فى صدرها ألمه ، ثم كانت للسيدة نعم العزاء . وكذلك كانت البيانة صديقته كما كانت موضع

---

(١) البيانو على نحت الاستاذ مصطفى صادق الرافعى

بقوته فى الموسيقى وسلطانه فى الارتجال . بلغ من السلطان عليها حتى قال عنه موزار — الذى ملأت الحانه آذان ذلك العصر وما تزال الى اليوم من مفاخر الموسيقى — وقد سمعه وهو فى السابعة عشرة من عمره يرتجل وحده فى غرفة مجاورة للغرفة التى كان فيها موزار وجماعة من أصدقائه : « تنبهوا الى هذا الشاب فسيكون موضع حديث الناس يوما من الايام » .

ذهب الى فينا على أثر وفاة أبيه بدعوة من أعضاده وفى مقدمتهم الكونت دوالشتين . وكان أكبر همه من ذهابه اليها أن يدرس على هايدن أكبر المؤلفين الموسيقيين الالمان يومئذ . لكن هايدن كان مشغولا بتواليفه حد الاشتغال فلم يجد الشاب من وقته ما يفيده . فتركه بل قاطعه وعمد ليدرس على البرختبرجيه . وكانت أخلاق هـذا الاستاذ على علمه يشوبها كثير من الغرور والجفوة بما لا يتفق وأخلاق بتهوفن الحرة الثائرة . وعلى ذلك أكمل دراساته الموسيقية وحـده فظل فيها من أطول الناس عن متعارف القواعد ما لم يعبأ به نبوغه الخالق وقوته الخارقة للعادة وسلطانه الذى حلق فى السماك فخضعت له كل القواعد .

وعضده يومئذ البرنس لخنفسكى وآواه فى داره وفرض له ستمائة فلورينا سنويا . وألفت بينهما صداقة متينة لم تكن تخلو من أسباب لسوء التفاهم قضت دائما عليها الاميرة لخنفسكى التى كانت موسيقية تقدر فضل النابغه الذى يقيم معهم حق قدره .

ويومئذ كانت الثورة الفرنسوية تغزو العالم كله بعبادئها . وكان بتهوفن حصا لها أول أمره . لكن مقاومته قرنائه هوميروس

وأفلاطون وفرجيل وتاسيت وتبينه المبادىء الجمهورية التى قامت عليها الثورة ، جعل منه نصيرا من أكبر أنصارها . ولذلك لم يتردد حين جاء اليه الجنرال الفرنسى برنادوت يطلب اليه أن يصع لحناً symphonie لمجد فيصل الثورة بونابارت. وأتم بتهوفن اللحن وكان على أهبة إرساله الى باريس إذ علم أن نابليون توج نفسه امبراطورا . فما لبث أن عاد الى بيته ساخطا ومزق لحنه وقال : « كلا ! هذا رجل مطامع كثيرة من الرجال » ولم يرد أن يسمع بعد ذلك عنه خبرا . ثم الح عليه أصدقاؤه بعد سنوات من ذلك كى يعيد هذا اللحن الى الحياة فغير فيه القطعة الثانية وكانت نشيد النصر ووضع بدلها نشيد الاسى ، كأنما يشى به ما كان من انهيار آماله . وسمى اللحن لحن البطولة ، وأضاف الى عنوانه هذه العبارة « احياء لذكرى رجل عظيم »

ومن يومئذ بدأت تواليفه ومصنفاته تفيض فيضا . فكتب عدة ألحان من خير ألحانه كما كتب اوبرا فدليو . ويومئذ أحس بسلطانه وآمن بقوته وفاض عنه الرضا بالحياة والسكينة لها . وتدل الصور التى صورته فى ذلك العصر على مبلغ طمأنينته وعظيم أمله فى المستقبل . ففى سنة ١٧٩٦ كتب فى مذكراته الخاصة يقول : « اقداما ! ورغم أسباب ضعف الجسد فالنصر لعبقريتى . ها انا بلغت الخامسة والعشرين . . . فيجب فى هذا العام أن يظهر الرجل كاملا » وذلك على أنه كان مازال فى بداية حياته العلمة . فأول حفلة عامة له كبيانى وقعت فى ٣٠ مارس سنة ١٧٩٥ . لكنه لم يبق لديه ريب فى قوته ولم يخف ذلك على أحد من اصحابه . بل كان يباهى به على

صورة قد لا يرضاها من لم يكن له مثل مولده. كتب الى الدكتور وجلر — صديق صباه فى مسقط رأسه — يخبره بنجاحه العظيم، فكانت الفكرة الأولى عنده ظاهرة فى قوله: « أرى مثلا صديقا محتاجا، فاذا لم يسمح لى جيبى بالاسراع الى معونته لم يكن على الا أن اجلس الى منضدة العمل فاذا بى فى وقت قصير قد سددت حاجته، ألست ترى هذا غاية فى الجمال... ويجب أن أقف فنى على معونة الفقراء »؛

لكن! يالقسوة القدر! فما كاد هذا النابغة القوى يتربع على دست عظمته حتى بدأت مقدمات الهم واليأس تسلك اليه مساربها. بدأت هذه الآفة التى نغصت عليه عيشه بقية أيامه منذ سنة ١٧٩٦. فلما تمض على هذه السكينة للقوة العظيمة شهور حتى بدأ وجه الحياة يتجهم وبدأت نذر الشقاء تتقدم. وبدأت مقدمات الصمم بطنين الآذان ليل نهار طنينا مزعجا. وقد ظل سنوات يخفى مرضه حتى على اعز اصدقائه. وكيف تريد موسيقيا على أن يقول للناس انه أصم! لكن ذلك لم يقعد به عن مداومة العمل. ولئن ظهرت بعض آثار الحزن الناشئة عن آلامه فى عدد من الالحان التى وضعها فى ذلك الحين فقد بقى اكثرها بساما طروبا. غير انه لم يطق كتمان علته بعد أن احتملها خمس سنوات تباعا. فكتب فى سنة ١٨٠١ يشكو هذه العلة الى كثير من اصدقائه ومن بينهم صديقه أمندا إذ كتب يقول له:

« عزيزى الطبيب الرفيق امندا... كم كنت ارجوك بجانبي. فصديقك بيهوفن بائس غاية البؤس. ذلك أن سمعي، وهو اكرم

اجزاء نفسى على ، قد ضعف كثيراً . وكنت أشعر منذ كنا معه باعراض المرض وكنت اخفيه ، لكنه اطرد سوءه من بعد ، فهل اشفى ؟ ارجو ذلك بالطبع ، ولكن رجائى فيه قليل . فمثل هذا المرض اشد مما سواه استعصاء على البرء . وسأضطر لقضاء العيش فى بؤس فأتجنب كل ما أحب وكل ما هو عزيز على ، وذلك بين عالم شقوة وانانية . . . يالشقاء الاستسلام الذى يجب أن الجأ اليه. لا ريب انى فرضت على نفسى السمو فوق كل هذه الآلام فهل ترى أستطيع تحقيق ما فرضت ؟»

هل من سبيل الى عزاء لبتهوفن عن هذا الالم ؟ هل من وسيلة لتخفيف مضضه ومرارته ؟ الوسيلة الممكنة هى المرأة والسبيل هو الحب . فلو ان بتهوفن وجد يومئذ من يتعلق بها قلبه ويؤمن به وبعظمته قلبها، لكان له من ذلك مايهون عليه بعض همه . ولقد كان منذ نشأته طيب القلب عطوفا . لكن حبه كان قاسياً كالفضيلة التى امتلأ بها قلبه . وكان لذلك يرى عاراً أن تتدلى الموسيقى للتعبير عن حب تشوبه الشهوة . ولذلك عاب على موزار قطعته «دون جوان» . على ان فضيلته القاسية هذه هى التى كانت سبب فشل علائقه الغرامية جميعاً . ففى سنة ١٨٠١ تعلق جوليتا جوكشياردى واهداها لحنه المعروف «ضوء القمر» ، وكتب الى صديقه وجلر يقول له « الآن اعيش اكثر سكينة واختلط بالناس اكثر من ذى قبل . ولقد أبدع هذا التطور فى حياتى سحر فتاة عزيزة تحبنى واحبها . وهذه هى اللحظات السعيدة الاولى التى تذوقت منذ عامين » . لكن هذا الحب زاده شعوراً بمرضه كما ان جوليتا كانت

لعوبا شديدة الانانية لاتعبأ بآلام بتهوفن . ولم تمض فى سنة ١٨٠٢، أى بعد سنة واحدة من حبها ، عن أن تتزوج من الكونت جالنبرج . وكان حب بتهوفن إياها طاهراً مخلصاً، فكانت خيانتها طعنة قاسية اصابت بها شغاف قلبه . على أنها لم تكتف بما فعلت بل جعلت تستغله لفائدة زوجها وجعل بتهوفن يذعن باسم الطيبة ويقول « انه عدوى . وذلك هو السبب فى اسدائى اياه كل خير استطيع اسداءه » .

ــــ ــ

وأدى به الصمم والمرض والانقطاع عن الناس وخيانة جوليتا الى اليأس من الحياة والى اليقين باقتراب ختامها . وزاد به اليأس حين ذهب الى « هيليجنستات » احدى ضاحيات فينا مستشفياً ، ومكث بها ستة أشهر لم يفد لسمعه خلالها شيئا . هنالك كتب وصيته التى شبتها هنا، وان كان قد عاش بعدها خمساً وعشرين سنة، لانها تدل على عظيم ألم هذا الرجل العظيم كما تدل على عظيم نبوغه وعظيم ايمانه بفنه وعلى طهارة نفسه وطيبة قلبه وحبه الناس، وتدل على أن هذه العواطف كانت فى نفسه هياجة ثائرة كهذه الموسيقى القويه الثائرة التى نسمعها له فى كثير من الحانه . وحتى فى الحانه الرقيقة الهمة والسدا . قال:

«يأيها الذين ينظرون الى أو يحسبوننى حقودا أو برما بالناس أو متطيرا بالحياة لشد ما تظلمونى . انكم لاتعرفون السبب الخفى الذى يظهرنى بهذا المظهر . فقد كان عقلى وقلبى متجهين منذ طفولتى الى عاطفة رقيقة هى الطيبه ، وكنت دائما مستعداً لاقوم حتى بعظائم الاعمال . لكن صوروا لأنفسكم بؤس حالى منذ ست سنين ، هذه

الحال التى زادها الأطباء الاغرار سوءاً والتى ما أزال أخدع فى امرها عاما بعد عام آملا فى تحسنها ، ثم أضطر آخر الأمر لاحسبها حالا مزمنة يقتضى البرء منها ، ان كان فيه أمل ، سنين عدة ، وقد يكون هذا البرء محالا .

«لقد ولدت ذا مزاج حاد نشيط مستعد لذوق مسرات الاجتماع ثم أضطررت وما أزال فى أول عمرى الى عيش العزلة . وحاولت التغلب على ذلك فصدمتنى التجربة الاليمة القاسية غير مرة وجددت عندى الاحساس بمرضى . ثم انى ما كنت مستطيعاً أن أقول للناس : ارفعوا الصوت وصيحوا فانى أصم . وكيف أستطيع أن اذيع ضعف حاسة كان يجب أن تكون عندى ادنى الى الكمال منها عند الاخرين . حاسة كانت فى الماضى بالغة من الكمال حداً لم يتح لقليل من أبناء فنى أن يبلغوه . كلا ! لا أستطيع ، فاعذرونى اذاً ان رأيتمونى أعيش عيش العزلة بينما أريد أن أكون معكم وفى صحبتكم . وشقائى مضاعف له ألمى أن كان سببا للحكم على حكما قاسيا . ولقد منعت من أن أجد الراحة والطمأنينة فى الاجتماع بالناس وفى المحادثات الظريفة وفى العطف المتبادل . فانا وحيد منقطع . لا أستطيع أن أجازف بنفسى فى الجماعة . وما لم تكرهنى على ذلك حاجة ماسة فيجب أن أعيش منفيا . فاذا اقتربت من جماعة ملك على الاضطراب مجموع حواسى من خشية أن أتعرض لوقوف الناس على بينة أمرى .

« ومن ثم أمضيت هذه الستة الاشهر فى الريف ، وقد طلب الى طبيبى الفاضل أن يعنى بسمعى جهد الطاقة ، وبلغ من ذلك اكثر مما كنت أرجو . ولقد شعرت غير مرة بالميل للاجتماع بالناس وتركت

نفسي تنال مناها . ولكن ! أي مذلة أن أرى رجلا على مقربة مني يسمع قيثارة من بعيد ولا أسمع أنا شيئاً ، أو يسمع غناء الراعي ولا أسمع أنا شيئاً . ولقد قربت هذه التجارب بيني وبين اليأس حتى كدت أقضي بيدي على حياتي . لكنه الفن — نعم هو الفن وحده الذي استبقاني. اواه! لقد بدا لي أن من المحال أن أترك هذا العالم قبل أن أتم كل ما أحسست اني مطالب بأدائه . وكذلك أطلت في هذه الحياة البائسة ، والبائسة حقا ، لجسد سريع التهيج حتى لينقله أقل تغيير من خير الحالات الى أسوئها ... صبرا — كذلك يقولون! وهو الصبر الذي يجب أن أختاره الآن لي مرشدا. وقد اخترته . واني لأرجو أن تظل عزيمتي على المقاومة ثابتة حتى ترضى الآلهة بالقضاء على بقية حياتي . وان يصلح الحال أو يسؤ فاني لصابر . ألا ليس يسيرا أن يكره الانسان ، وما يزال في الثامنة والعشرين من العمر ، على أن يكون فيلسوفا . وذلك أشد قسوة برجل الفن منه بأي رجل آخر .

«اللهم انك لتستشف من سمائك حجب قلبي وتعرفه وتعلم انه عامر بحب الناس والرغبة في عمل الخير . وأنتم أيها الناس اذا قرأتم يوما هذا الذي اكتب فاذكروا كم كنتم ظالمين اياي . وإن الشقي ليتعزى اذا رأى شقياً مثله قام برغم كل ما ألقت الطبيعة في سبيله من عقبات بكل ما في جهده أن يقوم به ، كي يكون في صف رجال الفن والصفوة المختارين .

لدفج فان بتهوفن

هيلجنستات في ٦ أكتوبر سنة ١٨٠٢

«هيلجنستات في ١٠ اكتوبر سنة ١٨٠٢ — والآن وداعا » وداعا أسيفاً — ان الامل العزيز الذي جئت به الى هنا، هذا الامل فى أن أشفى ولو الى حد يجب أن أيأس منه كل اليأس — وكما تتناثر أوراق الخريف وتذوى — كذلك هذا الامل جف فى نفسى وذوى — كما جئت الى هنا أعود وقد فقدت حتى الهمة التى كثيراً ما استندت اليها أيام الصيف الجميلة — أواه أيها القدر ! — هب لى أن أرى مرة واحدة يوم مسرة صفو — فما أطول الزمن الذى حبس عنى فيه رنين المسرة الصادقة العميق — أواه متى يارب؟ متى أستطيع أن أحس بها فى معبد الطبيعة والناس ... أبداً ! — كلا ا فذلك يكون أبلغ القسوة . »

لم تنشر هذه الوصية الا بعد وفاة بتهوفن ، لكنها تدل على مبلغ ما كانت تضطرب به نفسه حين كتبها من الآلام ، وعلى شديد ايمانه مع ذلك بالفن . هذا الايمان الذى جعله يستأخر الموت وان كان فى الموت راحة له من شقوته وأوصابه ، ويستأخره ليتم رسالته وإن عانى فى سبيل إتمامها من الآلام ما لا قبل لغيره باحتماله . وكذلك ترى النوابغ حقاً يستهينون فى سبيل ابراز مواهبهم بكل ما يحرص الناس عليه وبكل ما يجزعون منه ويفرون . فبينا كان بتهوفن يكتم هذه الصيحات الفاجعة مكتفياً بترجيعها فى صدره بينه وبين نفسه ، وباثباتها على القرطاس لتكون سبيلا الى سلامه بمدموته ، كان اخواه يستغلان ألحانه استغلالا ماديا ما كان بتهوفن ليعنى به لولا حبه لأخويه حبا يتفق مع عظمة الفضيلة التى تفيض بها نفسه أناشيد والحانا قدسية سامية.

وكثيراً ما خاطبه أصحابه فيما يجنى عليه أخواه من مساءات ، فكان جوابه وهو يبكي : « لكنهما أخواى » . ومالأخويه وبكائه ؟ انه لهما مزرعة تستغل ومورد رزق فياض . كتب أحد أخويه لناشر طالب بعض قطع أصلية من ألحان بتهوفن وأناشيده :

« ليس لدينا من ذلك الآن إلا لحن وعزيف كبير البيانة وثمن كل ثلاثمائة فلورين . أفتريد ثلاث سونات للبيانة ؟ نحن لا نستطيع أن نقبل فيها أقل من تسعمائة فلورين ، على أن تسلم بعد خمسة أسابيع أو ستة ، لأن أخي أصبح لا يعنى الآن بأمثال هذه التفاهات ولدينا .... » وذكر بقية « البضائع » . وبتهوفن لا يفيد من ذلك المال كله إلا مايقيم حياته المليئة بالآلام . فأما هذه الحياة التي يحتفظ هو بها للفن فليست فى ملكه ، لأنها هبة القدر للوجود كله فى حاضره ومستقبله . هى قيثارة قدسية بعثها يد العناية الى هذا العالم ، لتنشد الناس كل ما أبدعت العناية فى الخلق من نغمات . والى أن تتم هذه الرسالة الواجبة عليها يجب أن يبقى صاحبها معذبا شقيا ، ويجب أن يستريح لعذابه ولشقوته ، أو على الاقل يجب أن ينسيه ايمانه برسالته وانصرافه بكل وجوده لابلاغها هذا الشقاء وهذا العذاب

لكن المرأة هى البلسم والشفاء لعذابه أو لتسكينه . وقد عبثت جوليتا ببتهوفن عبثا قاسياً رغم ما كان من شديد تعلقه بها . فهل جفاه الحب بعد ما جفته هذه العروس الآثرة المحبة لترف الحياة التافه أكثر من حبها للمجد العظيم الخالد ؟ كلا ! فما تزال لبتهوفن ساعات سعادة فى الحياة ينعم بها رغم همه ، وملاك هذه الساعات المخلص الطاهر هى : تريز برنسويك .

وكان بتهوفن قد عرف تريز منــذ أيامه الاولى فى فينا اذ كان يعلمها البيانة . لكنه لم يعلقها يومئذ ولم يسر الى قلبه خاطر الحب منها وان اتصل بأخيها الكونت فرنسوا بصداقة متينة . فلما كانت سنة ١٨٠٦ وكانت جوليتا قد تزوجت منذ ثلاث سنين زار بتهوفن صديقه القديم فى مارتنفاسار بالمجر . قالت تيريز : « وبعد العشاء ذات مساء أحد جلس بتهوفن فى ضوء القمر الى البيانة ومر بيــده على ملامسها . وكنت أعرف أنا وأخى ذلك منه . فكذلك كان يبــدأ دائماً . ولعب بعض تقاسيم على طبقات القرار . ثم انتقل من ذلك الى لعب أغنيــة سباستيان باخ : ان شئت ان تهبنى قلبك فليكن ذلك أول الامر فى خفية حتى لا يستطيع أحــد أن يحس مسارح أفكارنا المشتركة . ولعب هذا اللحن فى وقار وهيبــة ، وكانت أمى وكان القسيس قد ناما ، ونظر أخى الى ما أمامه ذاهــلا . أما أنا فأخذتنى نظرته وأخذنى غناؤه وأحسست بالحياة كاملة . وفى صباح الغد تقابلنا فى الحديقة فقال لى : أكتب الآن أوبرا أرى بطلتها فى دخيلة نفسى وأراها أمامى حيثما ذهبت وأينما أقمت . وما أحسبنى سموت يوماً هذا السمو . فكل ما أمامى ضياء وطهر ونور . . وفى شهر مايو أصبحت مخطوبته باقرار أخى فرنسوا وحده » وظلت هــذه الخطبــة حتى سنة ١٨١٠ حين انفصمت عروتهــا وإن لم تنفصم عروة الحب بين الخطيبين اللذين عاشــا به سعيدين حتى مات هو فى ســنة ١٨٢٧ وماتت هى ومازال على عهده فى سنة ١٨٦١ ———

وكان لهذا الحب فى نفس بتهوفن وفى حيــاته الموسيقيــة أثر أى أثر . فاللحن الرابع الذى كتب فى أول أعوام الخطبــة زهرة

تتضوع بشذا السكينة والخلود الى صفو العيش مع الناس. وكذلك كانت الالحان التي كتبت في هذه السنوات أقل ثورة وأكثر ترعاً بنعمة الحب والحياة ، ومنها لحن الريف بأغاريد بلابله وأطياره وأغنيات شبانه وعذاراه . ولم يقف أثر الحب عند موسيقى بتهوفن بل تعدى الى حياته فجعله محباً للتأنق في ملبسه ميالا للاختلاط بالناس والتحدث اليهم حاضر النكتة ظريفاً . وبلغ من ذلك أن الناس نسوا صممه ولم يلاحظوا عليه الا ضعف بصره الحاد النظرة. ومن ذلك العهد السعيد في حياة بتهوفن يحفظ التاريخ خطابا يبث فيه لتريز مايبعثه الحب المضطرم في النفس الثائرة من عواطف مضطربة متلاطمة . قال فيه :

«ياملاكي وكلي ونفسي ، انظري في بدائع الطبيعة واطمئني الى ماهو محتوم . . فالحب يلح عدلا في أن يكون له كل شيء ، ذلك شأنه معي في أمرك ، وهو شأنه معك في أمري . إن قلبي لمفعم بما أريد أن أبثك إياه . أينما كنت فانت معي . أني لأبكي حين اذكر أنك لن تقفي على اول اخباري قبل يوم الاحد على الغالب . إني أحبك كما تحبينني بل أقوى واشد. إلهي اية حياة هذه من غيرك... فانت قريبة بعيدة . وأفكاري تتدافع نحوك ياحبوبتي الخالدة ، وهي سعيدة طورا حزينة تارة تسائل القدر هل هو سيرعانا . . . انا لااستطيع العيش الامعك والا فلا عيش لي . ولن ينال غيرك قلبي ابداً . ابداً ! لم يجب يارب ان يبتعد متحابان كل عن صاحبه. على ان حياتي انما هي الآن حياة احزان . ولقد جعلني حبك في نفس الوقت اسعد الناس واشقاهم. اطمئني . اطمئني . وأحبيني اليوم

«وبالامس.ماأعظم تطلعى اليك وما اكثر دموعى من اجلك.انت .
انت . انت ياحياتى . ياكلى وداعا — واقيمى على حبى ولاتنسى
ابداً قلب حبيبك بتهوفن — لك الى الابد — لى الى الابد — لنا
الى الابد »

وهذا الخطاب كوصيته وجد فى أوراقه بعد موته . ولعله
كتبه فى آخر سنوات خطبة تريزله . ففيه من اليأس أكثر مما فيه
من الرجاء . وهذه العبارة التى يسائل فيها القدر هل هو سير عاما
تنبىء عن بداية انحلال الخطبة.على أن قلبه وقلبها ظلا عامرين بهذا
الحب الى آخر حياتهما . فمن كلمات بتهوفن فى سنة ١٨١٦ : « يدق
قلبى كلما ذكرتها بنفس القوة التى دق بها حين رأيتها لاول مرة » .
وفى هذه السنة عينها ، سنة ١٨١٦ ، وضع الانغام الاربع
البديعة . « الى العزيزة المحبوبة النائية » وكتب فى مذكراته « يفيض
قلبى لمشهد هذه الطبيعة البديعة وهى مع ذلك ليست هنا الى جانبى»
وكانت تريز قد أهدت اليه صورتها وكتبت عليها هذا الاهداء «الى النابغة
الفذ والفنان العظيم والرجل الطيب ». وقد دخل صديق على بتهوفن
فى آخر سنة من سنى حياته فالفاه يقبل الصورة ويبكى ويناجى نفسه
بصوت رفيع . « لقد كنت جميلة ، وكنت عظيمة ، وكنت
كالملائكة الاطهار » . وبلغ من شدة تأثره لفراق تريز أن كتب يوما
الى أحد اصدقائه «أيها المسكين بتهوفن — محدثاً عن نفسه — ليس
لك فى هذا العالم حظ من السعادة : انما حظك منها فى رحاب المثل
الاعلى ،هلك فيه اصدقاء » وكتب فى مذكراته « اسلاما ! واسلاما
تاما لحظك.انت لم تعد تستطيع ان تعيش لنفسك وانما تعيش لغيرك

ولم يبق لك من نعيم فى غير فنك . اللهم هبنى قوة الانتصار على نفسى » هـذا ولم تفتأ تريز تذكر بتهوفن الى اخر حياتها . فكيف انفصمت الخطبة ولم يجمع بينهما الزواج؟ ذلك مالم يقف عليه احد. ولعله كان لفقر بتهوفن واختلاف مكانته مع مكانة تريز الاجتماعية. ولعله كان لطبع بتهوفن الحاد القاسى السريع الى التطير والذى لايهون الحياة البيتية معه.

على انه كان قد وصل فى سنة ١٨١٠ الى اوج قوته وجلس على عرش مجده . وكان يحس هذه القوة ولايتواضع بسببها . رأته بتينا برنتانو المغرمة بمعرفة عظماء الالمان فى سنة ١٨١٢ لاول مرة . ولم تـكن فى حاجة الى اكثر من مرآه وسماع حديثه حتى سحرت به وقالت .

« ليس فى العالم ملك ولا امبراطور له مثل هذا الشعور بقوته » ثم كتبت الى جيتى تقول . «لمارأيته لاول مرة انمحى الوجود كله من أمامى. ولقد أنسانى بتهوفن العالم وانسانى اياك أيضا يا جيتى . وماأظننى مخطئة أن أؤكد ان هذا الرجل يسبق المدنية الحديثة بمراحل.» وأراد جيتى ان يعرف بتهوفن فتقابلا فى حمامات بوهميا بتوبلتز فى ذلك العام نفسه لـكنهما لم يتفاهما . فخلق بتهوفن العنيف الحر لايتفق مع خلق جيتى الرقيق الوادع . ذكر بتهوفن نزهة لهما كان فيها قاسياً كل القسوة مع دوق فيمار . قال فى خطاب بعث به الى بتينافون ارنم :

« يستطيع الملوك والامراء أن يخلقوا الاساتذة والمستشارين وأن يغرقوهم فى الرتب والالقاب ، لـكنهم لايستطيعون أن

يخلقوا عظماء الرجال والاذهان التي تسمو على الجماجم . فاذا اجتمع رجلان مثلى أنا وجيتى وجب على هؤلاء السادة أن يحسوا بعظمتنا. ولقد تقابلنا أمس حين عودتنا فى الطريق مع العائلة المالكة كلها وكنا قد رأيناهم من بعيد فانتزع جيتى نفسه من ذراعى ليقف على حافة الطريق . وعبثاً قلت له كل ما أردت أن أقوله فلم يزحزحه ذلك خطوة واحدة عن موقفه . عند ذلك كبست قبعتى فى رأسى وزررت ردنجوتى وسرت وذراعى وراء ظهرى وسط الجموع الكثيفة . وأفسح الأمراء والحاشية لى طريقاً ورفع لى الدوق رودلف قبعته . وكانت الامبراطورة أول من حيانى . فالعظماء يعرفوننى . أما جيتى فمر أمامه الجمع وهو فى مكانه على حافة الطريق منحنٍ أشد الانحناء وقبعته فى يده . وقد لمته أشد اللوم بعد ذلك ولم أغتفر له قط تصرفه »

ولم ينس جيتى له هذه المساءة وظل بينه وبينه ما كان بين فولتير وروسو فى آخر حياتهما . قال جيتى لزلتر : « بتهوفن شخصية لاسبيل مع الاسف الى تألفها . وقد لايكون مخطئاً اذ يرى العالم كريهاً . لكن خلته فى الحياة ليست هى الوسيلة التى تجعل العالم حلواً له ولغيره. على أن من الواجب أن نعذره وأن نشفق عليه. فهو أصم . » على أن كراهية جيتى لم تمنعه من الاعجاب ببتهوفن ومن تقديسه وإن جاهد لاخفاء ذلك طاقته ! ذكر مندلسن أن جيتى سمع أحد الحان بتهوفن فحاول اخفاء اعجابه قائلا : « هذا لا يمس القلب ولكنه يثير الدهشة » ثم لم تمض لحظات حتى غلبه اللحن وجماله فلم يمالك أن قال : « هذا بديع وعظيم

وفوق العقل. أنى لأحس كأن البيت سينطبق على » وبعد أن كان لا يريد أن يسمع اسم بتهوفن جعل يسأل عن أمره

وكان الدوق رودلف الذى أشار اليه بتهوفن أحد التلاميذ القليلين ممن رضى هو أن يكون أستاذاً لهم. وبرغم اعفاء الدوق إياه من تكاليف البلاط ونظامه فقد كان يشكو مما بقى مضطراً له بداعى المجاملة من هذه التكاليف. ومن طريق الدوق رودلف عرف كثيرين من الأمراء وأعضاء البيت المالك الذين لم يكونوا يأبهون للعظماء، أمثال هايدن وموزار، وإن بقى لديهم شىء من العطف على البائس بتهوفن. وزادوا عليه عطفا حين بدأ نجم نابليون يأفل. فان بتهوفن لم ينس خيانة هذا الجمهورى الذى اتخذ الشعب سلما للامبراطورية. فلما انتصر الانكليز عليه فى موقعة واترلو وضع بتهوفن لحنا للانتصار ولنجتون عبده فيه كما عبد حروب الاستقلال التى أقامتها أمم أوربا ضد فرنسا. وفى أوائل سنة ١٨١٤ وضع لحنا حربيا عن «بعث ألمانيا». فلما انعقد مؤتمر فينا على أثر هزائم نابليون كان بتهوفن فى ذروة عظمته وقوته، فشارك فى أعياد المؤتمر على أنه عنوان من عناوين مجد أوربا، ورأس فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٨١٤ الاركسترا التى لعبت أمام ملوك العصر نشيده عن «ساعة المجد». فلما سقطت باريس فى سنة ١٨١٥ وضع نشيداً جعل عنوانه « انتهى كل شىء ». وكذلك ظهرت قوته ومقدرته وظهر خلقه المثابر وبطشه وجبروته. هذا الجبروت الذى أباح له بعد موقعة بينا احدى مفاخر نابليون أن يقول: «من سوء الحظ أنى لا أعرف الحرب كما أعرف الموسيقى. اذاً لهزمته».

وكان حظ بتهوفن مذبذباً : فما تكاد آونة طيبة تلبثه تطول به زمناً حتى تعقبها آونة شقاء أطول منها وتعدل مرارتها اضعاف حلاوة تلك الاونة . فكما تخلى عنه الحب مرتين تخلت عنه فينا بعد هذا المجد والسلطان لمجرد انتهاء أعياد النصر . وبلغ انه فكر فى هجرتها رغم ما كان من اتفاق الدوق رودلف تلميذه والبرنس لوبكوفتز والبرنس كنسكي منذ سنة ١٨٠٩ اذ رتبوا له معاشاً سنوياً أربعة آلاف فلورين على ان يظل فى النمسا ليظل فخراً لها . ورغم ما كان من عدم وفائهم كل الوفاء فانه سر بهذا الاعتراف بمجده . فلما مرت أعياد النصر عكف من جديد على العمل . لكن الصمم كان يزداد حتى كان تاماً فى سنة ١٨١٦ . وبذلك أصبح بتهوفن لا يسمع موسيقى ولا يسمع لحنا ولا نشيدا الا فى دخيلة قلبه

وكم لاقى بسبب ذلك من عناء وهم . فقد أراد ان يدير أوبرا فدليو فى سنة ١٨٢٢ . وكان جلياً منذ الفصل الاول انه عاجز عن هذه الادارة كل العجز . فقد كانت عصاه بطيئة، فكانت الالات الموسيقية بطيئة معها . لكن المغنين لم يكونوا يستطيعون اتباع هذه الموسيقى فكانوا يسرعون . وحصل اضطراب اضطر معه مدير الجوق العامل الى ايقاف التمثيل . ثم عاد بتهوفن الى الادارة وعاد التمثيل الى الاضطراب . قال صديقه الدكتور شندلر «ولم يقو قلب أحد على أن يدفعه ليقول لبتهوفن: تنح أيها البائس فانت عاجز عن الادارة. ووقف التمثيل للمرة الثانية فوقف بتهوفن ينظر فى كل ناحية يريد أن يعرف سبب الاضطراب . ولما لم يفهم شيئا ناداني اليه ومد الى كراسته لأكتب له . فكتبت : أرجوك أن لا تستمر وسأفسر لك فى البيت

بسبب ذلك . فها هو الآن قد صمم على التعجيل بالخروج . وجرى الى بيته بكل ما مكنته قواه وهناك ارتمى على مقعد وسند بيديه وجهه وجلس حتى ساعة الطعام لا ينطق بكلمة . وساعة الطعام ظل صامتا وعلى وجهه أثر الالم الفاجع والانحلال الاليم . فلما كان بعد العشاء وأردت أن اتركه رجانى أن أصحبه الى طبيب كان معروفا بأنه من خير أطباء الآذان .. وفى كل ما تلا ذلك من صلاتى ببتهوفن لم أر يوما كهذا اليوم القاسى من أيام نوفمبر .. وقد بقى هذا المشهد الاليم طعنة فى قلبه حتى فاجأته منيته » .

وفى سنة ١٨٢٤ كان حاضراً لتمثيل رواية على موسيقاه . ولما انتهت الموسيقى صفق الناس أشد التصفيق فلم يسمع شيئا ولم يعرف من أمر اجلال الناس لقطعته الا بعد ما أمسكت مغنية بيده وأدارت وجهه الى ناحية الجمهور ليرى الايدى المصفقة والقبعات التى تهتز فى الايدى علامة الاعجاب والثناء .

وعاون بؤس الصمم وألم المرض ما وقع فيه من حاجة وإعواز فهذا الذى كان يقرض أخوه أثمان ألحانه على الناشرين قرضا وصل فى أخريات أيامه ليكتب هذه العبارة لاحد تلاميذه : « اكتب هذه (السونات) فى ظروف شاقة . فمن المحزن أن يضطر الانسان للكتابة كى يحصل الخبز . وهذا هو حالى اليوم » . وكتب فى مذكراته الخاصة : « لقد صرت حتى أكاد اتكفف الناس » . وقال عنه أحد معاصريه وأصحابه انه كان لا يستطيع الخروج من بيته فى بعض الاحيان بسبب ثقوب حذائه .

وفى هذه الايام الاخيرة كان لا يأنس الى الناس ولا يعرف غير

الطبيعة . فكان يرى هائما فى الغابات والاحراش، وليس له هم الا تدوين الانغام والالحان لا يحول بينه وبين ذلك حر ولا قر ولا مطر ولا ثلج. قالت تريزدى برنسويك «كانت الطبيعة صديقته الوحيدة» وكانت كل مذكراته تفيض هياما بهذا الوجود المطلق الحر عالم الحرية والذى تتجلى فيه عظمة الخالق وقوته. ولذلك كانت موسيقاه تفيض بمعانى الطبيعة فيضا، حتى لكأنما بلغ من شدة هيامه بها أن صار قوة من قواها أو أنه « ملك روحها» على حد تعبير صديقه شندلر . كتب الموسيقى الكبير شومان يصف أثر أحد ألحان بتهوفن فى نفسه : « مهما يتكرر سماع الانسان لهذا اللحن فانه مؤثر فينا بنفس القوة التى أثر بها من قبل . فهو كالظواهر الطبيعية التى تملؤنا دائما خوفا ودهشة مهما تكرر حدوثها»

ولعل بتهوفن كان محباً للطبيعة ، لأنه من روحها لا لانه ملك هذا الروح . ولذلك كانت حياته ، ككل ما فى الطبيعة ، حياة نضال لا يعرف اليأس، وعمل لا يعرف الكلال ، وتجدد لا يعرف الجمود . فما كان المرض ولا الصمم ولا خيبة الحب ولا الفقر الذى بلغ الاعواز ،بمانع له من أن يتم فى عالم النغم رسالته . أو تدرى ما هذه الرسالة التى كان يجاهد فى سبيلها خلال ما أثقل حياته من كوارث وأحزان ؟ كانت رسالته بعث المسرة على الارض . فكأنما كان القيثارة العتيقة المحطم كثير من اجزائها والتى بالغ الصانع فى إتقانها ، فما تزال مبعث أحلى الانغام وأبدعها . ولقد كان بتهوفن يؤمن برسالته هذه كل الايمان . ومنذ ظهرت بوادر نبوغه فى الموسيقى فكر فى تبليغها للناس عن طريق

الالحان،فتفكر فيها وما يزال فى يونيه سنة ١٧٩٣ . وكانت نهاية أمله ان يتوج أحد أعماله الموسيقية الكبرى بلحن المسرة . وكان ذلك دأبه وهو فى أشد حالات العذاب والألم . لكنه كان يتردد دائما أن لم يكن شيء مما وضعه ليكفي مقنعا لصورة المسرة عنده . وظل ذلك شأنه حتى السنوات الأخيرة من حياته حين وضع اللحن التاسع . حينئذ وفق لهذا النشيد الذى يرجوه . ولكن أى توفيق وأية عظمة !

قال احد الكتاب يصف هذا النشيد البديع الذى يختم اللحن التاسع : «ساعة تبدأ آية المسرة تبدو يقف الاركستر فجأة ويسود المسرح سكون تام يخلع على مطلع النشيد معنى قدسيا رهيباً . وذلك حق. فهذا النشيد إله وحده . ثم تهبط المسرة من السماء محيط بها طمأنينة الخلد فتسكن الآلام ويجها الناعم تجرى الى القلب جريان البرء فى فؤاد المريض، ثم تسمو بعد ذلك فى صورة من الجد المهيب رويداً رويداً حتى تملك المسرة النفس وتنزوها وتعلن فيها حربا على الألم عوانا . ثم اذا الالحان تحرك فى النفس جنود السرور تحسها فوق هذه الصحف المرتعشة،فكأنما ترى نبض بتهوفن القوى وشدة تنفسه وصيحاته الملهمة حين كان يجوب المزارع ويضع لحنه وكأنما ملكته قوة الشياطين . وتعقب مسرة الحرب مسرة الروح مسرة بالايمان، ثم تجيش بالنفس مسرة مقدسة هى مسرة الحب . ثم ترى النسانية مرتعشة تمد أذرعها للسماء صائحة صيحات قوية مندفعة الى المسرة تضمها الى قلبها »

هذه القوة العجيبة التى تبدو فى أكثر ألحان بتهوفن والتى

بدت فى لحن المسرة مضاعفة، جعلت كثيرين ينعبون الى أن ملكه فى الموسيقى يقف عند الضخم منها والاليم . قال هيبوليت تين رداً على هذا وتحليلا لموسيقى بتهوفن عامة : « نعم انه صاحب هذا الملك من أراض جرداء تهب فيها الاعاصير وتعصف فيها العواصف باصواتها الصاخبة القوية . وهذه المملكة لم يتح لغيره من الموسيقيين أن يملكها . لكنه يعيش كذلك فى ملك آخر . فأنضر ما فى الريف الناضر واكثره رواء وبهجة ، وأعذب ما فى الوديان الظليلة واكثره ابتساما ، وأشد ما فى ضياء الفجر أول مطلعه رقة وبكورة — هذا كله كذلك فى ملكه . لكنه لاينال من ذلك كله ماينال مطمئن النفس ، بل تهز المسرة كل وجوده كما يهزه الالم ! وشعوره باللذة بالغ غاية القوة . فهو ليس سعيداً ، ولكنه فى بهره مثله مثل رجل قضى ليلة نابغية وخرج منها مضطربا كليما متوقعا يوما شراً منها ، فاذا به يرى فجأة مشهد صباح سعيد . اذ ذاك تضطرب يده ويتنفس الصعداء من أعماق صدره وتعود كل قواه الجسمية المنحلة فتسترد سلطانها ، ويصبح فى نهله من النعيم أشد اندفاعا مما كان حين استسلامه لليأس . »

ولما اطمأن له نشيد المسرة واطمأن هو لنجاحه فيه، هانت عليه أحزانه وآلامه وهان عليه فقره وان ظل يعانى من بأسائه شر ما يعانيه انسان . ولعل لهذا الفقر صلة بتلك الثروة التى كان أخواه يقتضيانها من الناشرين، فقد مات أحدهما تاركا من ورائه ولداً أحبه بتهوفن بهذه القوة التى كان يندفع بها الى كل شىء . وسار الفتى سيرة سيئة لم يصلح منها حب عمه اياه ولا مداومته نصيحته . وكان

هـذا الفتى كثير الاستدانة ، فكان بتهوفن فى فرط حبه له يعمل جهد طاقته لسداد ديونه . وسافر بتهوفن فى خريف سنة ١٨٢٦ يبحث عن وسيلة يوطد بها مستقبل ابن أخيه هـذا . فلما عاد فى أواخر نوفمبر سنة ١٨٢٦ أصابه برد أمرضه . ولم يكن أحـد من أصدقائه حاضراً ليعنى به . فكلف الفتى أن يبحث له عن طبيب ، فنسى مدى يومين ثم جاء الطبيب وعالج بتهوفن علاجا سيئاً . وقد استطاع بقوة بنيته أن يقاوم المرض ثلاثة شهور تباعا ، لـكنه ضعف بعدها ضعفاً أضاع الأمل فى شفائه . ولولا كرم بعض الانكليز من أصدقائه لقضى آخر أيامه فى بؤس وشقوة ليس كمثلهما بؤس ولا شقوة .

ثم جعل ينتظر فى صبر وسكينة « ختام المهزلة » حتى يوم ٢٦ مارس سنة ١٨٢٧ ، اذ عصفت عاصفة وهطلت ثلوج وأرعدت السماء وهاجت الطبيعة أصوات موسيقاها المهيبة المخيفة . وعلى موج هـذه الأصوات طارت روح بتهوفن الى عالم الخلد . وكان عمر بتهوفن يومئذ ستاً وخمسين سنة وثلاثة أشهر وتسعة أيام . فلما آن لجثمانه أن ينقل الى مقره الأخير شيعه ثلاثون ألفاً ولبست فيينا عليـه الحداد . ودفن فى مقبرة وارنج ، وما يزال قبره الى اليوم فيها وعليه هذه الكلمة الوحيدة الخالدة : بتهوفن .

وكذلك قضى من كان يرى الموسيقى إلهاما أسمى من الحـكمة ومن الفلسفة ، ويتمثل أفكاره فى عزف الآلات أكثر مما يتمثلها فى ألفاظ الناس . وكذلك قضى « باكوس ، الذى يستصفى للانسانيـة الرحيق العذب ويجلى عليهـا أقدس ما فى الروح من جلال » . فقضى

ينقل الى قبره حيث خط اسمه . لكن روحه الماثل فى ألحانه وأناشيده وعرماته مايزال باقيا ولن يزال . وهل الروح الخالد الا العمل يترك به صاحبه فى العالم أثراً خالداً ؟ . وهل أثر أحد من موسيقى بتهوفن ! أم هل أثر أكثر منها سحراً وقداسة ؟ !

واليوم يحتفل العالم بمرور مائة عام إجلالا لألحانه القدسية السامية، فيؤدى بعض دين الشكر الواجب على العالم لكل من زاد حياته جمالا وفضلا وقوة

(كتبت فى ٢٦ مارس سنة ١٩٢٧ لمناسبة مرور مائة عام على وفاة بتهوفن)

هبوليت ادولف تين

احتفلت فرنسا منذ أيام بمرور مائة عام على مولد الفيلسوف الكاتب الفرنسى الكبير هيبوليت أدولف تين . فقد ولد بفوزييه فى الحادى والعشرين من ابريل سنة ١٨٢٨ أى منذ مائة سنة مضت . واذا لم يكن قد مضى على موته الا خمس وثلاثون سنة — إذ مات بباريس فى الخامس من مارس سنة ١٨٩٣ — فان الآثار التاريخية والادبية والفلسفية التى خلفها تجعله حقيقاً منذ اليوم بأن يسجل فى ثبت الخالدين، وتجعل حقاً له وواجباً على وطنه فرنسا أن يشيد بذكره بين من يشيد بذكرهم من عظماء تلك البلاد . بل أن هذه الآثار لتجعله حقيقاً منذ اليوم بأن يذكره العالم كله بين الرجال الذين كانوا قوة عاملة ذات أثر خالد فى العالم، نقله ونقل تفكيره خطوة جديدة وفتح امامه من أسباب البحث سبلا إن يكن غيره قد رسمها من قبل فان أحداً سواه لم يرسمها ولم يخططها بالقوة والدقة والمهارة التى رسمها وخططها بها تين . ويكفى ليقدر القارىء مدى هذا الاثر العميق الذى تركه تين فى تفكير العالم أن يسمع من كثير ، حتى من الذين تناولوا تين وتفكيره بالنقد ، أنه كان أكبر أثراً فى نشر الفلسفة الواقعية (البوزتفزم) من صاحبها أوجست كومت نفسه . وأنه الى جانب تثبيته قواعد هذه الفلسفة الوضعية فى ذهن أهل عصره والعصور التى خلفته قد فتح لها ميادين جديدة فى الفن وفى الادب وفى الشعر وفى كل صور نشاط العقل الانسانى والنفس الانسانية بما جعل للعلم الوضعى وللفلسفة الوضعية

من متانة الارتكاز ما لا يزال حتى اليوم وطيداً قويا غاية القوة رغم موجات الروحية والتيوزوفية وغيرها مما سبق الحرب وشجعته الحرب ، ومما لا يستطيع أن يقاوم — حتى فى الميادين الفلسفية البحتة — تيار العلم الجارف الذى يدل الناس كل يوم على أن العلم اذا اخطأ فى تقرير نتائج معينة لأن الاستقراء أو الملاحظة أو التجارب لم تكن كاملة حين تقرير هذه النتائج ، فالعلم وحده هو القدير على اصلاح هذا الخطأ من طريق الاستقراء والملاحظة والتجارب وما يترتب على هـذه من تبويب ينتهى الى استنباط القوانين العلمية الصحيحة التى يمكن أن تكون أساساً لارتكاز الفلسفة الواقعية الصحيحة .

رجل هذا أثره فى التفكير الانسانى لا يمكن لوطنه الآن يعترف له بالمجد وأن يذكره لكل مناسبة ، ولا يمكن للعالم أن ينسى له فضله على التفكير الانسانى وتوجيهه فلسفته فى فترة خاصة من حياة هـذا التفكير .

على أن لتين الى جانب هـذا الفضل العلمى العظيم فضـلا آخر لا يقل عنـه ، بل يريد بعضهم أن يذهب الى انه يفوقه . ذلك هو فضله ككاتب . فهذا الرجل الذى حاول ونجح فى محاولته هدم الفلسفة الكلامية التى كان الاستاذ فكتور كوزن عميدها فى عصره ، والذى حاول ونجح فى أن يقر الى جانب التفكير الواقعى postive المذهب الجبرى « determinisme » وان يطلق هذا المذهب على الانسان ويخضعه له بمقدار ما تخضع له الافلاك والموجودات كلها — هذا الرجل كان صاحب أسلوب فى الكتابة له من البهر ما يسحرك كما

تسحرك قطعة من الموسيقى أو لحن من الغناء محى، ليدعوك الى أن تعود الى قراءة الصفحة مرات ، وحتى ليترك فى ذاكرتك محفاً معينة تود الوقت بعد الوقت أن تعود الى قراءتها وترديدها بصوت عال لتسمع الى الحانها كما تسمع الى الحان اوركسترا بتهوفن . وانى لأذكر الآن على ذكر اسم بتهوفن فصلا له فى كتابه (مذكرات عن باريس Notes Sur Paris) فصلا عنوانه (خلوة Une tete à tete) وصف فيه ايقاع الحان بتهوفن وصفا ماأزال ولن أزال الذ لقراءته ولترديده لذتى سماع ألحان هـذا الموسيقى فى سمفونية الريف التى أحبها ولا أشبع من سماعها . وليس هذا الفصل الذى ذكرت إلا واحـدا من كثير من الفصول ومن الـكتب ومن المطولات التى كتبها تين والتى لاتفتأ ترد الى الخـاطر وتتردد فى خـلايا الذاكرة كلما ذكر الانسـان النغم الحلو الساحر فى تعبير الـكتاب فى أية لغة من اللغات .

ولعل أروع ما كتبه تين فى هذه الناحية الادبية هو ما كتبه فى الوصف والسياحة . فكتابه الذى ذكرت لك عن باريس ، وكتابه « مذكرات عن انـكلترا » وكتابه عن جبال البرانس ، وكتابه عن رحلته فى ايطاليا ، هذه كلها كتب بلغت فيها براعة الوصف مبلغـاً قل أن يجاريه فيه كاتب . ولقد ذكرت لك هذه القطعة عن موسيقى بتهوفن . وانت تعلم أن الـكاتب اذ يكتب مثل هذه القطعة انما يعتمد على ذاكرته . وذاكرة السمع هى التى كانت تحرك قلم تين حين وصف الموسيقى . مع ذلك فلم تـكن ذاكرة السمع أقوى ذاكرات تين . بل لقد ذكر لنا هو نفسه فى كتابه De l'Intelligence أن أقوى

ذاكراته ذاكرة الالوان ، وأن المنظر الذى تقع عليه عينه تختزنه ذاكرته أكثر مما تختزن أية صورة تتصل باحدى الحواس الاخرى. فاذا كان ماذكرت لك عن سونات بيتهوفن هو بعض ماوعت ذاكرة السمع عند تين ، فلك أن تقدر بعد ذلك كيف كان وصفه لما وعته ذاكرة المرئيات وألوانها عنده، وكيف استطاع باسلوبه المتموج الزاهى الشديد الحركة والحيـاة ان يثبت الالوان المختلفة التى اختزنتها ذاكرته فى سياحاته الـكثيرة.

وليس فضل تين مقصوراً على فلسفته وعلى أدبه ،فهو الى جانب ذلك مؤرخ من أكبر المؤرخين الفرنسيين. أقول المؤرخين الفرنسيين ولا أقول مؤرخى فرنسا . لانه لم يقتصر على كتابة تاريخ بلاده. واذا كان كتابه « أصول فرنسا الحـديثة »الواقع فى اثنى عشر جزءا هو من أمهات كتب التاريخ الفرنسى.وكان يتناول عصرماقبل الثورة كما يتناول عصر الثورة والعصور التى بعدها ،فانه قد تناول الى جانب هذا التاريخ بحوثاً أخرى فى التـاريخ القديم وفى التـاريخ الحديث ، وتناولها كما تناول كل مباحثه على طريقته الخـاصة التى سنعرض فيما بعد لها ، وتناولها بدقة فى البحث وبدقة فى العبـارة وقوة فى الاسلوب جعلت له كل هذه المكانة التى كانت له فى عصره، وكل هذا المجد الذى يشهد له به اليوم حتى ألد خصوم نظرياته. ويكفى أن يطلع الانسان على كتابه « تاريخ الاداب الانـكليزية » ليقدر مدى ما لهذا الكاتب من سعة اطلاع ودقة بحث وعمق تفكير شهدت كلها له بأن قليلين من الانـكليز أنفسهم هم الذين تناولوا بحث آداب لغتهم بهذه السعة والدقة والعمق . فأما مبـاحثه التاريخية

«الاخرى» ومباحثه التى مزج فيها التاريخ بالادب، فتزيدك بهراً ودهشة. إقرأ «تيت ليف» وعصره من عصور التاريخ الرومانى. اقرأ «لافونتين وأقاصيصه». اقرأ كتبه الثلاثة «رسائل فى النقد وفى التاريخ» ثم سائل نفسك كيف كان يصنع هذا الرجل ليحيط بكل هذه الاشياء خبراً، وكيف كان يصنع ليمحصها كل هذا التمحيص، وكيف كان يصنع ليكتب كل هذه الكتب، وكيف كان يصنع ليؤدى كل هذه الاعمال، وليؤديها بهذا الجمال وبهذه الدقة وبهذه القوة.

ورسائله فى النقد والتاريخ قد جعلت منه نقادة معترفاً بفضله وبسلطانه، وقد أقامت له مذهبا فى النقد يتسق مع مذهبه فى الادب وفى التاريخ وفى الفلسفة وفى كل ما تناول من مباحث. وعندى أن مذهبه فى النقد أقرب الى الدقة من كل مذهب سواه. فهو أشد المذاهب امعانا فى «الموضوعية». هو اذا عرض لكتاب أو لمؤلف لم يعرض له من جهة تقديره الشخصى للكتاب أو لصاحبه، ولكن بعد تحليل كل ما أحاط بالمؤلف ومؤلفه من ظروف. وبعد مقارنة هذا المؤلف بكل ما يستطيع مقارنته به ممن عاصره ورمى الى مثل غرضه. ولست أدرى اذ أقول إن مذهبه أقرب الى الدقة من كل مذهب سواه. أأنا متأثر بتقدير ذاتى أم بذكريات خاصه. فلقد قرأت كتبه فى النقد والتاريخ منذ أكثر من اثنى عشرة سنه وتركت فى نفسى من الاثر ما لم تتركه كتب أناتل فرانس «الحياة الادبية» وما لم تتركه كتب أستاذ النقد الكبير سنت بيف نفسه. ولست أشك فى أن كثيرين قد يتذوقون نقد جول لمتر أو فاجيه أو بورجيه

أو بول سوداى أكثر من تذوقهم نقد تين . وربما كان حكمى أنا أيضا يتغير لو أن الظروف التى أحاطت بقراءتى تغيرت . لكنى ما أزال أشعر حتى اليوم حين أعرض لقراءة كتاب وحين أفكر فى نقده ، ولو لنفسى ومن غير رأى فكرة فى الكتابة عنه ، على الطريقة التى أحبتها نفسى منذ قراءة كتب تين .

لتين الى جانب هذه الميادين الكثيرة ميدان آخر لم يقتصر على التأليف فيه . بل كان فيه ، كما كان فى بعض الميادين الاخرى ، مدرسا أيضا ، ذلك ميدان الفن الجميل . ولقد كان تين موسيقيا، فلا عجب اذا هو تحدث أو كتب عن الفن الجميل . لكنك اذ تقرأ كتابه « فلسفة الفن » تراه يحلل الفن وصوره وتماثيله بالطريقة عينها التى يحلل بها المسائل النفسية والمسائل المادية ويخضع الصور والانغام لقواعد الجبرية التى يخضع لها كل ما فى الوجود من سماوات وأفلاك وكائنات . أليست الفنون بعض ثمرات الانسان ، « والانسان ثمرة وسطه » على ما يقرر تين غير مرة وفى غير موضع ؟ والوسط الذى يعيش فيه الانسان ليس خاضعاً له ولكنه خاضع لعوامل طبيعية وتاريخية لا عمل له بها ولا سلطان له عليها . اذن فالفن ثمرة محتومة لهذه العوامل ، ويمكنك أن تفسره وأن تفهمه بشرح هذه العوامل ، كما يمكنك ببسطها أن تفسر وأن تفهم أى عمل من أعمال الانسان .

ولكن ليس معنى أن « المرء ثمرة وسطه — أو بيئته ان شئت » أن الناس يتساوون فيما بينهم كما يتساوى ثمرة الشجرة الواحدة . بل إن ثمر الشجرة الواحدة لا يتساوى، فمنه الكبير والصغير ومنه الصالح

والفاسد . والناس كذلك منهم الصغير والكبير والصالح والفاسد . وأنت تستطيع أن تعرف الفرق بين ثمر الشجرة بأن تشقه وأن تصل الى دخيلته . فكيف تستطيع أن تصل الى دخيلة الرجل لترى مبلغ ما يختلف أولئك المتشابهون من ثمر الوسط الواحد تشابه ثمرات الشجرة الواحدة واختلافها ؟ الامر هين يدلك عليه تين فى مختلف من مواضع كتبه ، ويدلك عليه بنوع خاص فى كتابه عن «الذكاء» ويفرد له مقدمة الطبعة الاخيرة من تاريخ الادب الانكليزى التى طبعت سنة ١٨٩١

فكل مظاهر الرجل وكل أعماله ، وكل مطامعه ومشاعره هى المسالك الى دخيلة نفسه . فاذا أنت أردت على هذه الطريقة نفسها أن تعرف تين حق المعرفة فيجب أن تعرف كل مظاهره وكل أعماله . وكم كنا نود لو استطعنا القيام بهذا البحث فى هذه المجالة القصيرة عن حياة ذلك الرجل العظيم . لكنا مع ذلك نكتفى بالقليل الذى أتاحت لنا الظروف أن نعرف عنه عن الكثير الذى لا سبيل الى معرفته غير الانقطاع لدراسة تين وحياته وكل كتبه دراسة ذاتية لا تتسنى إلا لأستاذ فى الفلسفة أو فى الادب الفرنسى . ولعلنا فى هذا الاكتفاء بالقليل الذى نعرف لا نغمط تين حقه . ثم لعلنا لا نعدو بعض مباحثه التاريخية فى النقد . فأمامنا بعض الشىء عن حياته ، وأمامنا مؤلفاته الكثيرة ، وهى صورة نفسه وخلاصة حياته . وأمامنا الى جانب هذا أسلوبه ، والاسلوب — على ما قال تين — هو الانسان .

***

ولد هبوليت تين اذاً بفوزييه بمقاطعة الأردن فى فرنسا

فى ٢١ ابريل سنة ١٨٢٨ من عائلة رقيقة الحال . وكان لابيه جان باتيست تين اتصال بالقضاء . لذلك استطاع تين أن يتلقى عليه تعاليمه الى جانب دراساته بمدرسة مسيو بيرسن الصغيرة حتى بلغ الحادية عشرة من عمره . وإذ ذاك مرض أبوه فأرسل به فى سنة ١٨٣٩ الى مدرسة دينية فى (رتل) أقام بها ثمانية عشر شهراً توفى أبوه خلالها تاركا ثروة بسيطة لأرملته وابنه وابنتيه . وبعد وفاة أبيه سافر الى باريس فالتحق بمعهد ماتيه . وكان تلاميذ هذا المعهد يدرسون بمدرسة بوربون (College Borbon) ، وفيها ظهرت بوادر كفاياته النادرة كما اتصل فيها بأصدقاء كان لهم أثر أبلغ الأثر فى مستقبل أيامه من أمثال برفو بارادول ، وبلانا ، وكرنوليس ، وفث وغيرهم .

ولقد امتاز تين لأول دخوله المدرسة بمقدرة على العمل مدهشة وبإكباب عليه لايقل إثارة للدهشة . فلقد كان يكتفى لرياضة نفسه بعشرين دقيقة يقضيها لعبا بعد العشاء وبساعة يلعب أثناءها الموسيقى بعد الغداء . أما فيما سوى هذا وفيما سوى أوقات الطعام والنوم فكان لايصرفه عن العمل صارف . وكان لذلك كثير التحصيل كثير التعليق على ما يحصل كثير التفكير فيه مما جعل له على أصدقائه جميعا نفوذاً معترفا به منهم اعترافهم بفضله وبمقدرة فى الكتابة نظما ونثراً فى اللغتين الفرنسية واللاتينية .

وبعد انتهاء دراساته الثانوية انتقل الى مدرسة المعلمين (L'Ecole Normale) . وفيها ازداد اكبابه على الدرس ، فقرأ أفلاطون

وأوسطو وآباء الكنيسة كما استمر يدرس الانكليزية التى أتقنها ليدرس آداب اللغة الانكليزية . واذا كان تين قد ظهر تفوقه أثناء دراساته الثانوية وأثناء مقامه بمدرسة المعلمين حتى لقد كانت الجوائز الاولى كلها من نصيبه، فان الروح العلمية المنطقية التى امتاز بها بعد ذلك والتى وضع على قواعدها مذهبه فى البحث، قد تبينت أثناء وجوده فى مدرسة المعلمين بنوع خاص. فقد لاحظ عليه أساتذته جميعاً مبالغته فى دقة الحرص على المنطق والسلوك به مسلكا رياضيا والوصول به دائما الى قاعدة على نحو ما يصل الرياضيون فى مسائل الحساب والهندسة والجبر. أثبت استاذه فاشرو فى مذكراته عن تين وما يزال تين طالباً بمدرسة المعلمين ما يأتى: « أكثر تلميذ عرفت فى المدرسة جداً ورقى نفس . علم مدهش بالنسبة لسنه . تحمس وشره للعرفان لم أر له مثالا. ذهن يلفت النظر بسرعة التصور والدقة والمرونة وقوة التفكير. لكنه يدرك ويتصور ويحكم ويقرر بغاية السرعة . مولع بالقواعد والتعاريف حتى لكثيراً ما يضحى بالحقيقة من أجلها، ومع ذلك لا يظن أنه يضحى بالحقيقة لأنه كان مخلصا لها أشد اخلاص. وسيكون تين أستاذاً ممتازاً. لكنه سيكون أكثر من ذلك وفوق ذلك عالما من الطراز الأول اذا أتاحت له صحته الاشتغال بالعلم زمنا طويلا. ومع ماله من دماثة فى الخلق عظيمة ومن طباع غاية فى الطيبة، فلذهنه قوة لا تلين حتى لن يستطيع أن يكون لأحد على تفكيره أى تأثير. وهو على كل حال ليس من أهل هذا العالم. فسيكون شعاره شعار سبنوزا « يعيش ليفكر ». أما خلقه وأما طبيعته فيمتازان بمناعة لا يستهويه معهما اغراء » .

على أن هذا التفوق الذي كان للطالب تين لم يكن ليعترف الناس به من غير أن يجنى على صاحبه جنايته . ومتى كان التفوق رجل من الناس تفوقاً عقليا أن لا يجنى عليه فى نظر ذوى السلطان والذين يمسكون بيدهم مصير الجماعات ؟! صحيح أن هذا التفوق يقدر عند المخلصين للحقيقة والذين لا مصلحة لهم فى سؤدد آراء ومبادىء معينة ، وهذا التقدير هو الذى يكفل انتصار الحق ولو بعد حين . لكن تين، الذى كان يقضى كل وقته قراءة وبحثاً ، والذى أوتى هبة النقد والتمحيص منذ شبابه ، والذى لا يستطيع أن يسلم بغير ما يعتقده الحق ، تين هذا ، وهو طالب ، لم يكن ليقر كثيراً من المبادىء الفلسفية التى كانت تدرس يومئذ وغايتها إما تأييد ناحية دينية تجعل التفكير خاضعاً للمبادىء المسيحية التى تريد الكنيسة أن تسود ، أو تأييد ناحية علمية خالصة هى ناحية المنطق المطلق ، أو المنطق المجرد ، مما كان يدرسه كوزن وغير كوزن من فلاسفة ذلك العصر . وقد خرج تين ، ومازال طالبا ، على هاتين الطريقتين من طرائق التفكير ورأى فيهما وسائل غير صالحة للكشف عما فى العالم من حقيقة . ووضع تين ، ومازال طالبا ، قواعد تفكيره هو ، هذه القواعد التى سار عليها فى مستقبل أيامه ، مجاهداً لاكمالها ما استطاع ، ولكن من غير أن يرى فى كل دراساته وبحوثه ما يطعن عليها أو ينقضها . وإذاً فهو ثائر على التعاليم المقررة . وإذاً فيجب ألا ينجح فى إجازة الفلسفة التى تقدم لها مع زميليه أوبيه وسوكو فى سنة ١٨٥١ . وليكن عدم نجاحه هذا وهو المشهود له بالفضل والتفوق عزاء لغيره من الذين تقدموا للاجازة نفسها فرسبوا وهم دونه تفوقا وفضلا .

ولم يغير عدم نجاحه فى اجازة الفلسفة من رأيه ولا من عزمه . واستمر فى عمله وبحوثه وإن اشتغل بالتدريس فى المدارس المختلفة أن عينه وزير المعارف مدرسا بمدرسة (تقير) فى مفتتح عام ١٨٥١ الدراسى . لكنه لم يبق فى هذه المدرسة الا شهوراً نقل بعدها الى مدرسة دونها فى الدرجة . ذلك أن اضطرابا سياسيا وقع فى فرنسا واتهم المعلمون بأنهم سببه وطلب اليهم أن يعتذروا وأن يشكروا رئيس الجمهورية على التعديلات التى أدخلها على نظام الحكم، فكان تين هو الوحيد الذى رفض الاعتذار والشكر. وعلى ذلك أنذر ونقل الى بواتييه ومنها نقل مساعد مدرس الى بزانسون فى ستمبر سنه ١٨٥٢

ومع تنقلاته الكثيرة وعدم رضى السلطات عنه فان نشاط تين لم يفتر ودراساته وتحصيله لم يهنا وايمانه بمذهبه فى البحث لم يضطرب. فقد وضع رسالة عن المشاعر (Les Sansations) ورسالة لاتينية تقدم بها الى السوربون لنيل إجازة الفلسفة . ولما كانت هذه الاجازة قد ألغيت فقد أراد أن ينال بهما إجازة الآداب (Agregation-es-lettaes) لكن طريقته فى التفكير جنت عليه هذه المرة كذلك فلم تقبل رسالته. فوضع رسالة أخرى عن لافونتين هى التى نال بها دكتوراه الاداب فى ٣٠ مايو سنة ١٨٥٣

ومن بعد حصوله على الدكتوراه عرضت الاكاديمية الفرنسية موضوعا لجائزة تمنح فى سنة ١٨٥٥ رسالة تكتب عن تيت ليف الكاتب والمؤرخ الرومانى الكبير، فتقدم لها تين وكتب فيها رسالة كانت هى الاولى من كل الرسائل التى قدمت

بعد هذه المجهودات المضنية ست سنوات تباعا شعر تين بالحاجة

حاجة ماسة مطلقة الى الراحة ونصح له بان يذهب الى جبال البرانس ، وطلب اليه الناشر هاشت أن يكتب له دليلا عنها فوضع كتابه « سياحة فى البرانس » وصف فيه هذه الطبيعة الجميلة العجيبة وعادات أهلها وقصصهم وصفاً دقيقاً، ناقداً مارأى موضعاً لنقده مازجا ذلك كله بفلسفته ، متبعاً حتى فى هذا الكتاب طريقته الجديدة التى جنت عليه من قبل.

ماهى هذه الطريقة الجديدة ؟ وكيف يمكن أن تجنى على كاتب فى عصر كالعصر الذى عاش فيه تين والذى تقررت فيه حرية الرأى والنشر على انها مكفولة مقدسة ؟ .

أما طريقة تين فى رسائله التى تقدم بها للامتحانات وفى كتاب تت ليف وفى غير ذلك من الكتب التى ظهرت والتى ستظهر حتى آخر أيام حياته ، فتقوم على فكرة أساسية هى تطبيق الطريقة الواقعية — أو الوضعية — التى قررها أوجست كمت على الأحياء بنفس الدقة التى تطبق بها على غير الاحياء . وتطبيقها على الانسان وعلى النفس والروح بنفس الدقة التى تطبق بها على الاحياء الاخرى غير الانسان وعلى غير الأحياء . فكما أن طريقة البحث العلمى فى شأن غير الاحياء هى الملاحظه والتجربة واستنباط القوانين على قواعد هذه الملاحظه والتجربة ، فيجب اتباع هذه الطريقة بعينها فى شأن الحيوان والانسان على السواء . وأنت لكى تدرس غير الأحياء فأنت تحلل الشىء، وأنت ترجعه الى نظائره وأشباهه، وأنت تلاحظ تأثره بالبيئة المحيطة به وتأثيره فيها ثم تستنبط القوانين الخاصة به بعد إذ تنظم ملاحظاتك وتجاريبك وتبوبها وترتبها .

ثم أنت تعمد لتقف على حياة الحيوان إلى تأثره عن طريق حواسه بالاشياء المحيطة به، كما أنك اذا أردت أن تعرف تاريخه عمدت الى ما قد يكون باقياً في الاحجار من آثاره، هذا فضلا عن التجائك في تجاريبك عليه إلى كل الوسائل المختلفة التي يلجأ اليها الكيمائيون والاطباء وغيرهم في معاملهم. ذلك كذلك يجب أن يكون شأنك مع الانسان. يجب ألا ترى فيه عالما مستقلا وسط هـذا العالم الذي تعيش فيه. انما هو جزء من هذا العالم خاضع لقوانينه وأحكامه متأثر به مؤثر فيه تجري عليه السنن التي تجري على غيره من الخلائق. فاذا أردت أن تبحث في أي شأن من الشؤون يتعلق به وجب عليك أن تلجأ الى الطرائق العلميـة التي تلجأ اليها في الظروف الأخرى وأن ترى في أعماله ومشاعره واحساسه وتصوراته وسائل الوصول الى دخيلة نفسه. هذه دون سواها هي الطريقة الاكيدة التي تصل بك الى شيء يقربه من الحقيقة. وهذه يجب أن تكون أساس البسيكولوجيا وأساس التاريخ وأساس الاجتماع وأساس العلوم المتصـلة بالانسان جميعا. فأما الطريقة التي تبنى هذه العلوم على قواعد المنطق المجردة التي تجعل من استجمام الشخص في طوايا نفسه ووسيلة رسمه للعالم ما يستلهمه من صورته، فليست من الطرائق العلمية في شيء ولا يمكن الاعتماد عليها اذا نحن أردنا أن نقيم علما انسانيا أو فلسفة انسانية على قواعد علمية صحيحه.

هذه هي الطريقة الجديدة التي امتاز بها تين والتي جنت عليه في كثير. وهي قد أصبحت اليوم قديمة وقد أصبح يرد عليها نقد كثير أساسه ما فيها من تطرف وغلو. لـكنها كانت جديدة يوم نادى

بها تين . وكانت عماداً قويا للمذهب المادى . فهى لاتقر لروح ولا للنفس ولا لأمثال هـذه الأنماط عـلولات مستقلة قائمة بذاتها بعيدة عن مادة الجسم ، بل هى ترى كل ما فى الجسم بعض مادته كما أن كل ما فى أى موجود من الموجودات بعض مادة هـذا الموجود . واذا كانت هذه المادة ذات ارادة وذات خلق وذات تصور وتفكير ، فان هذه المظاهر ليست إلا صور القوة الكمينة فى المادة ، أو إن شئت التعبير الدقيق ، فهى بعض صور المادة متحولة قوة لأن المادة والقوة شىء واحد بدليل تحول كل منهما الى الآخر حين تفاعله مع غيره من القوى أو المواد . وما دام ذلك هو الشأن وكانت القوة والمادة تخضعان لقوانين ثابتة لن تجد لها تبديلا ، فمن الخلط الذى لايبرره مبرر أن تختلف طريقة البحث فى الانسان عنها فى غير الانسان ، ومن الخطأ المبنى على العقائد الرائجة انتهاج سبيل فى بحث شؤون النفس غير السبيل العلمية المقررة فى سائر الشؤون.

كانت هذه الطريقة جديدة يوم نادى بها تين . لكنه نادى بها منذ آتته الاولى على صورة واضحة وباسلوب قوى لفتا الانظار له، وبخاصه أنظار مفكرى ذلك العصر ومن كانت بيدهم مقاليد الجماعة فى التفكير وفى الحكم . واذا التفتت أنظار هؤلاء فلا تفكر فى حرية مكفولة ولا فى حرية مقدسه . إنهم ، ان كانوا مخلصين حقا ، يعتبرون أنفسهم حماة الجمعية ونظامها ، ويرون فى محاربة الافكار التى تخالف أفكارهم محافظة على هذا النظام . وكثيرون منهم يشعرون، وان لم يقولوا ، بأن المحافظة على نظام الجماعة جديرة بأن تهدر من أجلها كل حرية ، لأن الحرية لاتوجد إلا حيث يوجد النظام .

ونشر كتابه « سياحة فى البرانس » وصف فيه هذه الجبال الفاصلة بين فرنسا وأسبانيا وأخلاق أهلها وطبق فى وصفه وفى تحليله نظرياته التى أشرنا اليها . على أنه لم يكتف من سياحته بالرياضة وبوضع هذا الكتاب ، بل هو ظل يستمع لقارىء استصحبه فى جولاته وظل يفكر فيما يسمع ويعلق عليه . أليس شعاره أنه يعيش ليفكر ! فاذا هو كان فى رياضة قضت بها صحته،أو هو كان فى مكتبه، فليس امامه مايمنعه عن التفكير كما أنه ليس امامه ما يمنعه عن التنفس. ولقد كان فكره بحاجة الى العمل حاجة رئتيه الى الهواء، حتى لقد يخيل الى من يقرأ تاريخ حياته أن هذه الحياة تتعرض للخطر اذا هو انقطع عن التفكير العلمى الجدى يوما من الايام.

ولقد أفاد من سياحاته فى البرانس لصحته، وأفاد من قراءته وتفكيره، وأفاد شيئاً جديداً لم يكن له من قبل به عهد. ذلك اتصاله بالحياة الخارجية ولو اتصالا محدوداً. فلقد عاش منذ أيام تلمذته وليس يعرف غير كتبه ومكتبته وغير البيانو يوقع عليه الالحان التى يحبها والتى يجد فيها سلوة عن كل تعبه. وكان من أثر ذلك عليه ان جعله — على ماقال ناشرو — يدرك ويتصور ويحكم ويقرر بغاية السرعة ، ويولع بالقواعد والتعاريف حتى لكثيرا ما يضحى بالحقيقة من أجلها. أليس مافى الكتب منطق مجرد ! أوليست كتب ذلك العصر، حتى كتب الفلاسفة الواقعيين، قليلة التحليل للوقائع الصغيرة! فلتبن عذره اذا هو سارع الى تقرير النتائج ووضع التعاريف والقواعد مادام يسير على الطريقة التى رسمها لنفسه على أنها سبيل الحقيقة، وما

دام لم يتصل بالعالم الخارجي اتصالا يجعله اكثر ميلا لتحليل الحوادث الصغرى واستقرائها وترتيب النتائج عليها . فلما أتاحت له زيارة البرانس الاتصال بالحياة أتاحت له مع هذا الاتصال شيئاً من التؤدة فى منطقه الرياضى السريع وجعلته اكثر عناية باستيعاب أكثر ما يستطيع استيعابه من الوقائع الصالحة لاقامة ما يريد أن يقيمه عليها من نظريات وقواعد.

وعاد من البرانس فعاش مع أمه فى جزيرة (سان لوى) ثم اختلط من جديد بأصدقائه بلانا وبريفو برادول وأبو وتعرف الى رينان، ومن طريقه عرف سانت بيف وجدد علاقاته مع مسيو هافيه الذى كان استاذا له بمدرسة المعلمين مدى ثلاثة أشهر. وكما عاد الى أصدقائه عاد الى جده وانتاجه حتى لتعتبر السنتان ١٨٥٥ و١٨٥٦ من اكثر سنى حياته نشاطا واغناها انتاجا . فلقد نشر عشرات المقالات فى مجلة L'Instruction Publique كما نشر مقالا فى مجلة « العالمين » . وفى سنة ١٨٥٧ بدأ يكاتب جريدة «الديبا» واستمر بعد ذلك على مكاتبتها طويلا

والذى يقرأ كتبه الثلاثة «رسائل فى النقد وفى التاريخ» وكتابه « الفلاسفة الانشائيون فى القرن التاسع عشر» يرى اتجاه مجهوده العقلى فى تلك السنوات الخصبة من حياته، ويرى مبلغ هذا المجهود الضخم الذى تناول بحث اليونانيين القدماء وكتاب فرنسا وفلاسفتها وكتاب انكلترا ومفكريها. وتناول ذلك فى دقة واحاطة قل نظيرهما . وماذا تريد أن تكون الدقة والاحاطة أكثر من أن يعرض تين امام نظرك فكرة كل كاتب وفلسفته وأسلوبه وان يحلل ذلك وان يرده

للبيئة والجنس اللذين نشأ الكاتب فيهما وان يدلك على ما يراه النقاد غيره وما يراه هو فى الكاتب وفكرته من قوة وضعف وكمال ونقص ودقة فى بلوغ الغاية التى قصد اليها الكاتب أو اضطراب فى نهج السبيل الى تلك الغاية. وهذه هى طريقته التى سار عليها منذ تلك الأيام فى النقد. وهى الطريقة العلمية الصريحة التى لا تعرف المواربة ولا المداجاة ، ولا تعرف مذاهب الشك والتردد ، والتى تقفك من كل كاتب ومن كل موضوع على خلاصة الموضوع وعلى صورة واضحة من الكاتب على نحو ما رآه تين .

وقد طبع تين مباحثه عن الفلاسفة الانشائيين ونشرها فى أوائل سنة ١٨٥٧ ، أى فى التاسعة والعشرين من عمره . ومع أنه الى ما قبل ذلك التاريخ قد لقى من رجال الجامعة ومن وزارة المعارف عنتاً ، فان رسائله المختلفة التى نشرت لم تر من النقد الا ما كتبه أصدقاؤه عن سياحة البرانس وما كتبه الاستاذ الكبير جيرو عن تيت ليف. لكنه ما لبث أن نشر « الفلاسفه الانشائيين فى القرن التاسع عشر » حتى تكلم عنه كثير من كبار نقاد عصره أمثال سانت بيف وشرر وبلانش وغيرهم مما زاد فى ذيوع رفعته ككاتب وكمفكر وكفيلسوف مجدد فى الطريقه وفى الاسلوب .

ولم يكن عجبا أن ينال هذا الكتاب من كتب تين تلك المكانة. فهو قد قصد به الى هدم الفلسفة الكلامية التى كان يدرسها ويقررها فى ذلك الوقت لارجبيه ومين ديبراز والمسيو فكتور كوزان . وكان فكتور كوزان صاحب مقام كبير فى ذلك الظرف ، وكان القائم بتدريس الفلسفة فى كلية فرنسا ، وكان درسه مقصد المئات من المستمعين. لذلك كانت

حملة تين عليه أشد من حملته على صاحبيه . فكان يقول عنه انه بحاثة غير فيلسوف . وكان يرى فى هذه الفلسفة الكلامية أو الانشائية شذوذا معيباً على قواعد العلم التى تقررت منذ أوائل ذلك القرن، وعودة الى قواعد قديمة عقيمة تخلط بين طريقة ديكارت التى تبدأ بالشك ، والنظريات الالمانية التحريدية الصرفة . وهو قد سلك فى هدمه لتلك النظريات مسلكا جمع بين المنطق الدقيق الذى امتاز به وبين التهكم بتلك الطرائق العتيقة البالية من طرق البحث عن الحقيقة تهكما ظهرت فيه مقدرة تين ككاتب الى جانب تفوقه كمفكر وكفيلسوف . ثم هو قد أيد ما قررته مباحث عصره الحديثة مما جاء به أوجست كومت وداروين وغيرهما من الذين وضعوا قواعد العلم الواقعى وأسس نظريات التطور . ثم هو قد أضاف الى ذلك نظريته الخاصة بتطبيق هذه القواعد تطبيقا لاهوادة فيه على الانسان كتطبيقه على غير الانسان وعلى الجماد . واذا كانت هذه النظرية قد لقيت فى بادىء الامر شيئاً من معارضة الهيئات الجامعية، فان المباحث العالية التى نشرها تين مشبعه بها والمقام الذى كان يرتفع اليه يوما بعد يوم وعاماً بعد عام ، جعل نجاح كتابه عن الفلاسفه الانشائيين نجاحا حاسماً ودعا الكثيرين الى أن يعيدوا النظر فيما يقرره هؤلاء الفلاسفه من قواعد ، وجعل ما وجهه كارو وغيره الى تين والى ريناذ من نقد أساسه رميهم بالالحاد ، لا يلقى من المفكرين والعقلاء وذوى الرأى أى التفات له بأ كثر من الاشفاق على كاتبيه والرثاء لحالهم .

وكما جمع مقالاته عن الفلاسفة فى كتابه هذا فقد جمع رسائله

فى النقد وأظهر الجزء الأول من (رسائل فى النقد وفى التاريخ) سنة ١٨٥٨ ، على أن كتابة هذه الرسائل وجمعها ونشرها لم يشغله عن متابعة بحوث تاريخية فى الادب الانكليزى شغف بها منذ أيامه الاولى وشغل بها منذ مطالعاته بعد ترك مدرسة المعلمين . ولقد نشر الاجزاء الاولى حتى بيرون فى سنة ١٨٦١ واستمر يكمل هذا الكتاب الذى يعتبر ككتابه عن (الذكاء) وكتاب (أصول فرنسا الحديثة) أما من أمهات كتب تين وأثراً باقياً من آثار تفكيره . وقد أتم هذا الكتاب ونشره كاملا فى سنة ١٨٦٣ ووضع له المقدمة التى أشرنا من قبل اليها والتى حلل فيها صلة الانسان بالبيئة وبالجنس وبالعصر الذى يولد فيه تحليلا انتهى منه الى أن المرء ثمرة هذه العوامل الثلاثة ، وانك اذا استطعت أن تعرف كل الدقائق المحيطة بهذه العوامل الثلاثة استطعت أن تضع للانسانية من القوانين الثابتة ما لا سبيل الى تبديله الا أن يكون لتبديل سنن الكون العامة سبيل

والحقيقة أن هذا الكتاب الذى وضعه تين عن آداب اللغة الانكليزية قد أضاف الى مجده كفيلسوف وكمؤرخ مجده ككاتب. ولئن كانت رسالته عن سياحة فى جبال البرانس قد دلت من ذلك على شىء كثير، فان وصفه للعصور المختلفة التى مرت بها انكلترا وأثرت فى أدبها قد دل على خصب فى الخيال لا يقل عما كان لتين من دقة فى المنطق.وأنت تقرأ صحف هذا الكتاب المتتالية فتنتقل من تحليل نفسانى دقيق لكاتب من الكتاب أو شاعر من الشعراء أو عصر من العصور ، الى وصف جمع بين الدقة المنطقية والخيال الشعرى لحياة ذلك الكاتب أو الشاعر ولحياة جماعة أهل ذلك

العصر . وهذا التـداول بين دقة المنطق وخصب الخيال هو الذى. طوع لـكثيرين من نقاد تين أن يقولوا عنه انه منطيق شاعر أو خيالى فيلسوف . وربما وجـدت لهذا النقد فى بعض كتب تين مسوغا . لـكنك تقع دائما على ما يدلك على أن تين كان يشعر تمام الشعور بهذا التداول وكان يحرص على ألا يجنى أحد جانبى نفسه على الجانب الآخر. فما يقع تحت قلمه عبارات تتردد آناً بعد آن يذكر فيها انه جاوز الحد مضطراً فى استعمال المجاز وفى الالتجاء الى الخيـال ويعود بعـدها الى منطقه المحـكم وتحليـله الدقيق ، فيشرح البيئة الطبيعية والعصر ومميزاته والجنس وخصائصه ويطبق مايستنتج من ذلك كله على الكتاب والشعراء الذين يحللهم ويرسم بذلك صورة مضبوطة من هـذا الادب الانكليزى الذى استغرق تاريخه أربعة أجزاء من كتب تين .

وكان تين قد رشح نفسه سنة١٨٦٢ ليقوم بتدريس الأدب فى مدرسة الهندسة. لـكن مسيو دى لونى انتخب بدلا منه . على أن وزير الحربيـة عينه فى مارس من السنه التالية ممتحناً فى التاريخ واللغة الالمانية بمدرسة سان سير الحربية . وفى سنة ١٨٦٤ شغل مقعد تدريس تاريخ الفن والجمال فى كليـة الفنون الجميلة . فـكان تعاقبه فى وظائف الدولة هذه سبباً لاثارة الخوف فى نفس رجال الدين مما دفع المونسنيور دو بانلو ليكتب منشوراً يوجه به الى الشبيبة والى الاباء يطعن فيه طعنـاً جارحا على تين ورينـان وليترى ويشهر فيه بنزعاتهم الالحادية مما كاد يودى بمركز تين لولا تدخـل البرنسيس ماتيلدا لحمايته .

وفى سنة ١٨٦٤ وجه بكتبه الى الاكاديمية ليحصل على جائزة بوردان، فانبرى له مونسنيير دوبانلو من جديد واشترك معه آخرون ليحولوا بينه وبين الجائزة . على ان مسيو جيزو دافع عنه بكل اخلاص واستمرت المناقشة أمام الأكاديمية فيمن يستحق الجائزة ثلاثة أيام متتالية استقر الرأى بعدها على ان الجائزة لا تمنح لاحد ما دامت لا تمنح لتين . ومن ذلك التاريخ فتر اهتمام تين بالاكاديمية وتعضيدها أو عدم تعضيدها له .

على أن هذه الخصومات المتتابعة وهذا التجنى على ذلك الكاتب الفيلسوف الكبير لم يحل دون حصوله على وسام اللجيون دونير فى سنة ١٨٦٦ وعلى شهادة D.C.L. من جامعة اكسفورد بعد محاضرات القاها بها عن راسين وكورنى فى سنة ١٨٧١ .

ومنذ عين تين أستاذاً لتاريخ الفن والجمال فى كلية الفنون الجميلة اتسع له زمن البحث وميدانه ووجد من الوقت ما يسمح له بالسفر فى بلاد مختلفة وبخاصة فى ايطاليا مهد الفن ومنبت أجمل ما أبدع المثالون والمصورون من آثار .

على الطريقة التى كتب بها تاريخ آداب اللغة الانكليزية كتب فى سنة ١٨٦٥ كتابه فلسفة الفن وفى سنة ١٨٦٧ نشر رسائل عن المثل الاعلى فى الفن أتبعها بمقالات عن فلسفة الفن الفلمنكى والفن اليونانى ضمت كلها بعد ذلك الى كتاب فلسفة الفن .

كتب هذا الكتاب على طريقته فى كتاب آداب اللغة الانجليزية . فالى جانب وصفه الممتع للاثار الفنية المختلفة ترى نظريته الثابتة التى تخضع الفن كما تخضع كل مظاهر الحياة الانسانية ، وكما تخضع الانسان

نفسه ، إلى الطريقة العلمية فى البحث ، طريقة للتحليل والمقارنة والاستنباط وارجاع كل أثر من هذه الآثار إلى البيئة والجنس والعصر التى نشأ فيها صاحب الأثر . وهذا فى نظره هو السبب الاساسى لاختلاف كل مدرسة من مدارس الفن عن سواها .
فالفن الايطالى غير الفن الفرنسى وغير الفن الفلمنكى وغير الفن الانكليزى ، لأن البيئة الايطالية تختلف عن كل واحدة من هذه البيئات الاخرى ، وان أمكن أن يوجد شىء من الشبه بين منتجات هذه المدارس المختلفة اذا هى كانت معاصرة بعضها لبعض لما فى هذه المعاصرة نفسها من داع لوجود مشابهة قليلة أو كثيرة فى التفكير والتصور والنظر بين الفنون المختلفة . وذلك هو سبب الاختلاف بين المذاهب المختلفة فى الامة الواحدة اذا هى اختلفت عصورها وان كان فى اتفاق البيئة والجنس مايبعث اليها شبها قويا يصل بينها فى الروح والحياة.

وفى أوائل سنة ١٨٧٠ نشر كتابا ثانيا من أمهات كتبه . ذلك كتابه (فى الذكاء). ولقد ذكر هو فى مقدمة هذا الكتاب أنه ثمرة بحث وتفكير عشرين سنة كاملة . والواقع أن بين هذا الكتاب وبين رسالة « المشاعر » التى قدمها ليحوز بها جائزة الفلسفة فى سنة ١٨٥١ صلة كبرى . ذلك بأنه يرد الذكاء فى الانسان الى احساسه ومشاعره ، وان كل حس يؤثر بمحسوساته فى مراكز الذكاء فى الانسان تأثيراً هو صاحب الاثر الاكبر فى تكوين هذا الذكاء . وفى هذا الكتاب أيضا شرح تين نظرياته ، بل لعله فى هذا الكتاب

وحده قد قرر هـذه النظريات على صورة كاملة ظهر فيهـا مذهبه الجبرى بكل قوته ووضوحه .

ظهر لتين كثير غير الـكتب التى ذكرنا منها كتابه (مذكرات عن انجلترا) وكتابه الآخر (مذكرات عن باريس). واذا هو كان فى الـكتاب الاول كاتبا وعالما على طريقته، فهو قد امتاز فى الكتاب الثانى بالنكتة المقذعة وبرقة فى العبارة مع دقة فى الملاحظة ومرارة فى التهكم بالناس وبالحياة جعلت كثيرين يتمنون لو انه وجه نصيباً كبيراً من عنايته الى هذا النوع من الكتابة .

وتزوج تين فى سنة ١٨٦٨ فلم يغير زواجه شيئا من حياة الجد والعمل التى كان يحياها . على أنه منذ سنة ١٨٧٠، وعلى أثر الحرب الفرنسية الالمانية ، حز فى نفسه ألم هزيمة بلاده وتوجه بكله يريد أن يقف على أسباب ضعفها . وكان هـذا هو الدافع له الى وضع كتابه الاكبر (أصول فرنسا الحديثة) الذى عمل فيه منذ سنة ١٨٧٠ الى أن مات فى سنة ١٨٩٣ والذى اضطر من أجله أن يتخلى عن مهنة التدريس منذ سنة ١٨٨٤ لينقطع له انقطاعا تاما. ويبدأ هذا الكتاب بجزأين عن العصر القديم ، أى العصر السابق لما قبل الثورة الفرنسوية. أما تاريخ الثورة فيتناول ستة أجزاء ، ويتناول التاريخ الحديث ثلاثة أجزاء يعقبها جزء واحد وضعه تين كفهرس للكتاب كله . ولقد كان فى عزمه أن يضع، فى الجزء الذى لم يمهله القدر ليتمه، الصورة الصالحة لنظام العائلة ونظام الجمعية فى فرنسا كما يريد العلم لهذا النظام أن يكون ، لـكنه توفى فى الخامس من شهر مارس سنة ١٨٩٣ وما يزال فى الخامسة والستين من عمره

وكتابه (أصول فرنسا الحديثة) هو عمله الخالد على التاريخ. ولقد سار فيه على نفس الطريقة التى سار عليها فى سائر كتبه. وإن يكن الدافع الذى دفعه لكتابته، ألا وهو حب وطنه حباً أذكته هزيمة حرب السبعين وزادته ضراما، قد جعله فى كثير من الاحيان يناصر حزبا على حزب وطائفة على طائفة من الاحزاب والطوائف المختلفة التى حكمت فرنسا منذ ذلك العصر القديم الذى كتب هو عنه.

وهو على كراهيته للاستبداد فى كل مظاهره وعلى تقديسه للحرية فى مختلف صورها، لم يكن يؤمن بالديمقراطية ولا بالمساواة المطلقة التى تترتب عليها، بل كان يحسب فيها هى أيضاً لونا من استبداد الجماهير الحمقاء بحكم البلاد لا تقل سوءاً عن استبداد الملوك الظلمة الغاشمين، فكلا الاستبدادين قائم على الشهوة العمياء التى تبتغى المصالح الذاتية فى شره وسخف والتى لا تفهم المعانى العليا التى يتطلع اليها العلم ولا السنن الثابتة التى تستنبطها الفلسفة القائمة على هذا العلم.

ويذكر كثيرون انه كان فى هذا كما كان فى فلسفته متأثراً بالفلسفة الانكليزية وبالحياة السياسية الانكليزية. ولعله كان يميل الى شيء من الارستقراطية بطبيعة تفكيره، ولذلك كان كتاب عصره جميعاً انما يذكرونه باسم (مسيو تين)، وذلك امتياز لم يعرف إلا له ولاثنين أو ثلاثة من كبار الكتاب معه. وربما كان صدقاً مايقوله مسيو هريو وزير معارف فرنسا فى خطابه عن تين من انه لو كان انكليزيا وعاش فى انجلترا لكان حتما ان يلقب وأن

يكون (السير هيبوليت) . وهذه النزعة هى التى أدت به ليكتب رسالة مطولة عن الانتخاب المباشر يطعن فيها مر الطعن على هذا النظام ، ويرى من السخرية أمر السخرية أن يتساوى فى الرأى عن طريقة حكم البلاد ماسح الاحذية وعميد الكليات ومدير الجامعات ، كما يرى حماقة أن يحكم نصف الامة زائداً واحداً نصفها الاخر ناقصا واحدا أو أن يحكم سوادها الطائش المخدوع بترهات المغررين والمضللين صفوة أبنائها وخلاصة ذوى الرأى والعلم فيها حكما أقل أثره ان يبعث التقزز الى نفوس الصفوة ويضعف من حب كثير منهم للعمل ويضيع بذلك جهودا أقلها خير الف مرة من جهود السواد وقادته .

***

وعاش تين ومات ومنطقه منطقه ورأيه لم يتغير . وكانما كان مصداقا حيا لهذه الكلمة : « النبوغ فكرة فى الصبا تنفذ فى الرجولة » . فمنذ كان تين فى مدرسة المعلمين الى أن مات ، كانت غايته فى الحياة واحدة وطريقته الى هذه الغاية واحدة : كانت غايته الحقيقة وكانت طريقه الى الحقيقة العلم ، حقيقة لا هوادة فيها وعلم كذلك لا هوادة فيه . ولهذا كان جديرا حقا بالخلود . واذا كان كثير من نظرياته قد نقض بعد حياته ، فهو فى ذلك ليس الا انسانا عقليا . هو قد خطا بالعالم فى عصره الخطوة التى كان يجب ان يخطوها العالم . فكأنما كان رسولا لتمام هذه الخطوة . اما وقد أتم رسالته وآن للعالم أن يخطو خطوة أخرى ، فان ذلك لن يغض من فضله ولن يغمطه شيئاً من حقه ، بل هو على العكس من ذلك يزيدنا قدراً له

واعجابا به . وكفى ان يسأل انسان نفسه: ماذا يكون العلم وماذا تكون الفلسفة لو أن تين لم يوجد ؟ ولن يستطيع انسان أن يجيب على هذا الا بالاعتراف لتين بفضل عظيم . وهذا الفضل هو الذى جعل فرنسا تحتفل بعيده وجعل الفرنسيين يفكرون فى اقامة تمثال له فى باريس وتمثال آخر نصفى فى مدرسة المعلمين .

ولیم شکسپیر

« ماحاجة شكسبير الى أحجار فوق أحجار يقيمها الناس مدى قرن كامل لتأوى اليه رفاته المجيدة؟ ماحاجته أن تدفن بقاياه المقدسة تحت هرم يصعد حتى يصل الى عنان السماء؟ يا ابن الذكرى العزيز ووارث المجد العظيم! ماذا يغنيك من هذا الاعتراف الضئيل بفضل اسمك وقد أقمت لنفسك من إعجابنا وعجبنا تمثالا لا يبلى. »

« ملتن »

« تمثالا لشكسبير! ولماذا! إن التمثال الذى أقامه لنفسه على عماد هو انكلترا كلها لخير له من كل تمثال. ليس شكسبير بحاجة الى هرم وله مؤلفاته. وماذا يمكن أن يخلد الرخام منه؟ وماذا يستطيع البرنز أن يقيم حيث يقيم المجد؟ إن الاحجار كلها والفنانين الذين ينحتونها يضيعون جهدهم عبثا. فالعبقرية هى العبقرية من غير حاجة اليهم. ولو اجتمعت الاحجار كلها، أفتراها تكبر هذا الرجل إصبعاً؟ وأى قوس أبقى من هذا القوس: قصة الشتاء — العاصفة — زوجات وندسور المرحات — يوليوس قيصر — كريولان. وأى أثر اعظم من لير، وأشد تجهما من تاجر البندقية، وأبهر من روميو وجوليت، وأبهى من ريكاردوس الثالث. وأى بدر يلقى على هذا البناء ضياء أعجب من حلم ليلة الشتاء؟ وأى عاصمة ولو كانت لندرة تثير حوله ضجة هائلة كما تثير روح مكبث الهائلة الضجيج؟ وأى حلية من خشب الزان أو البلوط تبقى بقاء أوتللو؟ وأى نحاس أصلب من نحاس هملت؟ كلا! لن يوازى بناء من الحجر

أو الصخر أو الحديد هذا الروح روح العبقرية العميق . روح الله يتجلى به على لسان الانسان . ورأس فيه فكرة هو القمة . أما أكداس الاحجار فجهود ضائعة . وأى بناء يساوى فكرة ؟ إن بابل لدون ايزاس ، وخوفو لاصغر من هوميروس ، والكوليزيم لأقل من جوفنال ، وقصر اشبيلية قزم الى جانب سرفانتس ، وكنيسة القديس بطرس فى روما لاتوازى كعب دانت . فكيف تستطيعون وإن جهدتم أن تقيموا برجا فى رفعة هذا الاسم : شكسبير »

(فكتور هوجو)

وصدق ملتون ، وصدق فكتور هيجو . فأنت لاتعنى إذ تذكر شكسبير أ أقيمت له تماثيل أم رفعت له نصب واهرام . وأنت لاتذكر الى جانب اسمه ماتذكره الى جانب اسم نابليون من عهاد فندوم أوقبر الانفاليد . بل انت إذ تذكر شكسبير تنسى كل ما فى العالم غير ماخلف شكسبير ، غير هذه التركة الخالدة من الشعر السامى فوق كل مراتب الشعر ، والذى يزداد سمواً كلما ازددت فيه إمعاناً ، حتى لتنسى الى جانبه كل شعر وكل موسيقى وكل فن لانك ترى فيه عالما كاملا من الاشياء والناس والآلهة خلقه خيال تندمج فيه كل خيال ، وفن يتلاشى أمامه كل فن . ولتنسى الى جانبه الاعجاب فى الحياة بأى شىء سواه . هذا وشكسبير لم يكن ملكا ولم يكن غازيا ولم يكن عظيما فى قومه ، بل كان ككل نابغة وكل عبقرى رسولا تؤذيه رسالته حتى لتحرقه . ومن هذا الاذى ومن هذا الاحتراق تتعطر الحياة بأريج تلك الرسالة وتزداد بهذا الاريج شعوراً كلما ازداد عطر الاحتراق والاذى ذيوعا وانتشاراً .

نعم ! لم يكن شكسبير ملكا ولاغازيا ولاعظيما فى قومه . بل كان مؤلف روايات وكان مهرجا . كان عمله فى الحياة أن يبعث السرور والنشوة الى نفس الجمهور ثم لاينااله أكثر الاحيان من هذا الجمهور الذى أضحكه غير السخط والازدراء . ومات شكسبير وانطوى دور المهرج فظل أهل عصره ينكرون عليه مقامه كمؤلف وينعتونه بأنه لم يحدث جديدا وبأنه غراب اكتسى بريش الطيور الجميلة فلم يصنع أكثر من أن سرق ما كتب غيره . لكن الزمن الدائم الكر والذى يصهر تراث الماضى فيستخلص جوهره من خبثه ، لم يجد فى شكسبير الاجوهرا يشع فى المستقبل الى قرون وقرون بعده ، فلا تزداد إلا تطلعا اليه واعجابا به . وهذا الزمن وجد فى الهام شكسبير الشعرى علما وحكمة ، فنفى عنه حسد أهل عصره وأقام له من المجد ماعبر عن بعضه ملتن شاعر انكلترا الاول بعد شكسبير ، وهوجو مقدم شعراء فرنسا ومترجم شكسبير الى الفرنسية

واذا لم يكن شكسبير عظيما فى قومه فليس فى تاريخ حياته مايقف النظر عنده إلا أن يكون خلقه الثائر ونفسه المتمردة على الخلق وعلى الفضيلة .

ولد فى ستراتفورد —أن— ايفن فى ٢٣ ابريل سنة ١٥٦٤ أى فى عصر الملكة اليصابات أحد عصور انكلترا الزاهرة ، وفى القرن السادس عشر عقب الانقلاب الدينى العظيم الذى قام به مارتن لوثر وتأثرت به انكلترا أكثر مما تأثرت به أية أمة غيرها . وكان أبوه جون شكسبير محترما فى قومه لانه كان يملك ثروة تغنيه عن غيره ، جاءه بعضها من كده وبعضها من زوجه . وقد

اختلف الرواة فى الصناعة التى كان يزاولها جون بين أنه كان تاجراً أو مزارعا أو جزاراً . ويذهب كثيرون الى أنه كان يزاول هذه المهن جميعاً كما يفعل الكثيرون من أهل القرى والبلاد الصغيرة. ولمكانته من قومه انتخب فى مجلس بلدته القروى ونيطت به أعمال قاضى المصالحات . وفى سنة ١٥٧٧ ساءت حال جون شكسبير المالية حين كان ابنه وليم مايزال ، وهو فى الثالثة عشرة من عمره ، فى بداءة تعليمه . فاضطر للاستعانة به فى كدح الحياة . وجعل الفتى — على قول بعض مترجميه — «يقتل العجول لأبيه ويلقى أثناء يقوم بعمله خطباً رائعة الاسلوب على سامعيه .» وكذلك انقطع عن الدرس وشغل بهم الحياة حتى تزوج فى الثامنة عشرة من عمره من آنا هثواى ورزق منها فى ٢٦ مايو سنه ١٥٨٢ فتاة أسماها سوزان وتوأمين غلامين فى فبراير سنة ١٥٨٥

على أن هموم الحيـاة ومشاغل الاسرة لم تغير شيئاً من خلقه المضطرب الثائر . فقد أولع منذ صباه بالشراب حتى كان فيه مفخرة قريته، كما أنه كان لا يتعفف عن سرقة الصيد من أملاك كبار المـلاك وبخاصة من أملاك السير توماس لوس كبير قضاة قصبته . وكم خضع من أجل ذلك لهوان الضرب ومذلة العقوبة . وفيما هو يوما يجارى أهل قرية مجاورة فى الشراب سكر حتى لم يستطع العود إلى أهله. فلما أصبح ذكر حاله وما آل اليه أبوه الذى أدخل السجن بسبب ديونه فعضل هجرة بلد أصبح لا احترام له بين أهله برغم ما كان يشعر به فى نفسه من تفوق على أقرانه اذ كان قد بدأ يتغنى بشعر ينظمه ، فهجر ستراتفورد الى لندرة وهو لا يدرى مايستطيع أن يفعل فيها

ودخل العاصمة العظيمة خالى الوفاض يضنيه الضنك والعوز فأسرع الى حرفة من أحقر الحرف . ذلك أنه كان ينتظر بخيول المتفرجين على أبواب المسارح فاذا انقضت ساعات التمثيل نفحوا هذا الخادم بما تجود به أنفسهم . ولعل لهذه الحرفة الوضيعة حظا غير قليل فيما يدين به العالم اليوم لشكسبير من رواياته الخالدة . فمن سبيل هذه الحرفة استطاع شكسبير أن يعرف بعض الممثلين وأن يكسب عطفهم وأن يلتحق بعد ذلك باحدى الفرق فى أدوار تافهة . لكنها كانت سلمه الى أدوار خير منها . ومع انه لم يكن يوما ممثلا بارعا ولم يصل الى النبوغ فى التمثيل الا ما كان من نبوغه فى دور طيف والد هملت فان خشبة المسرح هى التى دفعته الى كتابة روايات تشهد الاجيال المتعاقبة تمثيلها معجبة مقدسة .

وكما تدهشك أن تكون حرفة شكسبير الحقيرة سبب هذا المجد العالمى فقد يدهشك كذلك أن تعلم أن ظرفا آخر لا يد له فيه قد عاون الشاعر فى عمله . ذلك أن اضطرابات العاصمة الانكليزية أدت الى اقفال مسارحها ما بين ١٥٩٢ و ١٥٩٤ . واذ كان شكسبير قد بدأ يولع بالنظم والتأليف ووجد من معونة بعض ذوى النفوذ ما أغناه عن اتباع الفرق التمثيلية فى تجولها، فقد ظل مدى هاتين السنتين مكبا على دراسة اللغات الفرنسية والايطالية والاسبانية ، مكبا على النظم والتأليف . وخلالها استشف مظاهر نبوغه وعبقريته وميوله التمثيلية . فكتب فى ابريل سنة ١٥٩٣ قصيدة فينس وادونيس Venus and Adonis كما كتب فى مايو سنة ١٥٩٤ رواية لوكريس وأهداها الى لورد سوذامبتن . ويقال إن اللورد شجعه على الاستمرار

فى عمله واعانه بألف جنيه دفعها له فمكنه من زيارة شمال ايطاليا واتقان لشياء التى كان قد بدأ يدرسها فى لندرة، والوقوف على كثير من الاساطير الايطالية التى استعان بها فى رواياته . وفى أثناء زيارة ايطاليا بدأ يكتب مقطوعاته التى نشرت بعد ذيوع اسمه والتى أهدى اكثرها الى لورد سوذامبتون كما جعل يؤلف للمسرح روايات أمل فى تمثيلها بعد انقضاء الاضطرابات وعود الحياة الهادئة الى عاصمة بلاده .

وفى صيف سنة ١٥٩٤ فتحت دار التمثيل أبوابها وعاد شكسبير الى المسرح وبدأ يقدم رواياته لتمثل. ولم تكن قوة هذه الروايات لتخفى على أحد خصوصاً انها كانت تمثل حياة ذلك العصر وأخلاقه أدق تمثيل . لذلك لم يلبث شكسبير أن حاز من ذيوع الصوت ما خلع عليه اسم الممثل البارع وان كانت براعته الحقة فى تواليفه . وكان من أثر ذلك أن شارك شكسبير بنصيب فى أرباح مسرح (الجلوب) الذى كان يشتغل فيه، فاستطاع بذلك أن يشترى فى بلدة ستراتفورد دورا وضياعا وأن يعيش فى رغد ونعمة وأن يعيد أباه وأهله الى حب الحياة . وكما يسرت شهرة شكسبير له سبل العيش فقد فتحت أمامه أبواب العظماء وأنالته عطف الاسرة المالكة ورفعت بذلك من مقام التمثيل والممثلين الذين كانوا قبل ذلك يعانون من الضعة والحقارة يشعر الانسان به حين يقرأ من مقطوعات شكسبير ما كتبه أثناء مقامه بايطاليا وما فيه من برم بالحياة وألم لازدراء الناس مهنة لم يكن له كى يكسب العيش مفر من احترافها. وزاد المهنة رفعة ان مثل شكسبير فى حضرة الملكة اليزابث وان

نال من عطفها، وان يك قد تنكر بعد ذلك لها حتى لم تذرف عليها عينه دمعة عند موتها ولم تتحرك شاعريته بعبارة ألم لرثائها .

وبقى شكسبير يؤلف فى السنة الواحدة الرواية والروايتين ويمثلها مع زملائه الذين كانوا واياه على خير وفاق . وقد أثار تاريخ تأليفه كل رواية من رواياته مباحث شتى حتى وضع (اومندمالونى) كتابا سماه «محاولة لتحقيق الترتيب الذى كتبت به روايات شكسبير»
(An attempt to ascertain the order in which the plays of Shakespeare were written)
كذلك انكر بعض النقاد نسبة بعض الروايات له كما أنكر بعضهم وجوده .

وفى سنة ١٦١٠ اعتزل المسرح وترك لندرة الى ستراتفورد حيث عاش عيشا هادئا مكتفيا بما جمعه من مال مستمراً مع ذلك فى كتابة رواياته . ويذهب بعض مؤرخيه الى أنه كان مع ذلك يعود الى لندرة الحين بعد الحين ويشترك فى تمثيل بعض الروايات حتى احترق مسرح الجلوب فى ٢٩ يونيو سنة ١٦١٣ أثناء تمثيل رواية هنرى الثامن . هنالك انسحب شكسبير الى قريته ولم تبق له عناية بغير رفاهته فعاش عيش ذوى اليسار وطلق التمثيل والتأليف جميعاً وجعل يقرض الناس بالفائدة مما أدهش كثيرين ممن كتبوا عنه . قال تين : « خاتمة غريبة تبدو لأول نظرة خاتمة تاجر لا خاتمة شاعر . أفنعزوها الى هذه الغريزة الانكليزية التى ترى السعادة فى حياة رجل الريف صاحب الملك حسن الايراد كريم الاصل الحاصل على أسباب الرغد المطمئن بين الناس الى مكانته واحترامه والى سلطته العائلية ومكانته من قومه ؟ أم ان شكسبير كان كفولتير رجلا موزونا وان يك

خيالى الذهن يحتفظ بقوة حكمه خلال نشاط شاعريته ، حذر لتشككه مقتصد لحاجته الى الاستقلال عن الناس ، قدير ، بعد أن يحيط بكل ماس بخاطر الانسان ، أن يرى مع كانديد أن الخير كل الخير فى أن يزرع حديقته ؟ أما أنا فأميل لافتراض يدل عليه رأسه المليء المتين. ذلك انه لكثرة ماأنتج خياله المتموج قد نجا كما نجا جيتى من مخاطر الخيال المتموج. وانه فى تصويره الشهوات قد بلغ مابلغه جيتى من تخفيف حكم الشهوات إياه . وان الاندفاع لم يحدث فى سلوكه انفجاراً لانه كان يجد فى الشعر مصرفاً لاندفاعه . وان رواياته حفظت عليه حياته لأنه ألم من خلالها بكل مافى الحياة الانسانية من هوس وتعس، فاستطاع أن يجلس بينها وعلى ثغره ابتسامة مطمئنة مكتئبة ، وأن يسمع ليسرى عن نفسه هذه الموسيقى الاثيرية التى أبدعها فى رواياته . وأريد أن أفترض أخيراً انه كان فى جسمه ، مثله فى سائر تكوينه، أحد رجال جيله العظيم، وعصره العظيم، وان متانة العضل كانت عنده مثلها عند رابليه وتسيان وميكلنج وربنس ، توازى حساسية الاعصاب . وان الماكينة الانسانية كانت يومئذ أقوى بناء وأحسن بلاء فكانت تستطيع أن تقاوم عصف الشهوات واندفاعات الهوى . وان النفس والجسم كانا مايزالان متوازنين ، فكان النبوغ يومئذ زهراً وثمرة ، ولم يكن مثلما هو اليوم مرضاً »

***

قد يكون هذا التصوير الذى فرضه تين لحياة شكسبير صحيحا . لكنه لايزيد على انه فرض فى رأى تين نفسه . على انك اذا أردت أن تقف على أسرار شعر شكسبير ورواياته فقد وجبت دراسة ذلك

مكانه دراسة لايتسع المقام هنا لأكثر من الالمام بشيء منها إلماما بسيطا .

نشأ شكسبير ، كما قدمنا ، في العصر الذي عقب الانقلاب الديني الذي قام به مارتن لوثر وتأثرت به انكلترا أكثر مما تأثرت به أية أمة غيرها . وكان الذين أخذوا بالمذهب الجديد ما يزالون متأثرين قبل كل شيء بأساسه وهو حرية التفكير . وكان انهيار قيود الكثلكة هو البادي أمام الانظار . ولم تكن بعد قد تركزت في النفوس قواعد المذهب الجديد تركزاً تثبت الايمان بها تثبيتا يحول دون تحطمها . كما لم تكن خلقت حول المذهب الجديد هذه الاوهام المحسنة التي تهون على الناس عبء الحياة فيخضعون لها طائعين — لذلك كله كانت جماعة ذلك العصر في انكلترا تسيغ الالحاد ولا تنزعج لاعلانه ولا تضطرب أمام ما يرتبه أصحابه عليه من تقشف أحيانا واستهتار واباحة أخرى وشك ثالثة ، واعتدال في الحياة وفي المتاع بها اعتدالا يبقى عليها ويطيل . ولعل هذه الظاهرة كانت ذات أثر فيما رأينا من سلوك شكسبير ومن استباحته سرقة الصيد . وهي لاريب كانت قوية الأثر في رواياته . فأنت ترى فيها من التجديف ومن الغواية ، مصبوبين في أجمل قالب وأبهاه ، مالا يحتمله عصر غير عصره الذي كان مجاوراً للعصور الوسطى والذي لم يتخلص من خرافاتها وان أباح لنفسه هدم هذه الخرافات . وكما أثر العصر في شكسبير من ناحية حرية تفكيره فقد أثرت فيه هذه الخرافات من ايمان بالسحرة وبالجن حتى لنرى كثيراً منها في رواياته . ثم إن هذا العصر الطليق المجاور للعصور الوسطى كان عصر اضطرابات وعجازر .

وكان القتل أمراً شائعاً فيه حتى لترى الرجل تقطع عنقه لغير سبب الا أنه أنكر على الملك سلطانه الديني أو أنه أغضب رجلا ذا سلطان باشارة أو بكلمة . أضف الى ذلك ذيوع عادة المبارزة وانتهائها في أحيان كثيرة الى قتل أحد المتبارزين . وهذا الاستهتار بالحياة الانسانية هو سر ماترى في أكثر روايات شكسبير من مجازر فظيعة تنتهي أغلب الامر الى موت أشخاص الرواية جميعاً . ثم ان التمثيل على النحو الذي نعرفه اليوم كان في ذلك العصر مايزال في دور نشأته حتى لم يكن معروفا في كثير من البلاد ومن بينها فرنسا . فلم تكن قد تقررت له قواعد كالتي تقررت بعد ذلك من وحدة الزمن والمكان والحادث . ولذلك أنت ترى في شكسبير مناظر مختلفة في الفصل الواحد قد لايكون بينها أية صلة، وقد يفصل بين المنظر والمنظر مئات الاميال . ثم انك ترى كذلك في هذه الروايات خلطاً عجيباً من أحط ماتنزل اليه الجماعة في حياتها العادية التافهة ، ورفعة لاتدانيها رفعة في سمو الخيال وتصوير فعل الشهوات في النفوس

وهذه الظواهر التي تجدها سائدة في دول أوربا كلها في ذلك العصر كانت أكثر وضوحا في انكلترا . ومرجع ذلك أن الخلق الانكليزي بطبيعته خلق ثائر طموح للحرية يفتديها بالدماء . وكان كذلك في تلك العصور الماضية أكثر مما هو اليوم. ولذلك كانت انكلترا أسرع من غيرها الى الاخذ بالمذهب الديني الجديد . ولذلك كانت مظاهر القسوة وما تلده من قتل وتعذيب أكثر تفشيا بين هؤلاء السكسونيين . وكان من شأن السحرة عندهم ما لاتعجب بعده لطيف هملت ولا لساحرات مكبث . ثم كان من استهتار الناس بالحياة

ما ترى آثاره فى شعر شكسبير مما يجعل المتقشفة والمتصوفة أشد على الحياة حرصاً من أهل هذا الزمن . فليس عجيباً اذن هذا الذى نرى فى شعر شكسبير من مجاوز وخرافات وإن خيل لبعضهم بادىء الامر أن فيه شيئاً من العجب يدعو الى عدم تصديقه .

وإذ كان علم شكسبير راجعاً الى ملاحظته الطبيعة أكثر من رجوعه الى دراسة الكتب ، وكانت معلوماته التى استند اليها فى تأليف رواياته لا تزيد عن معارف سطحية فى التاريخ والفلسفة والاجتماع، فان كثيراً من رواياته لا تعتمد على أكثر من أساطير سمعها أو قرأها فى الكتب التى يتناولها الناس جميعاً وفى مقدمتها تاريخ العظماء لبلوتارك . فرواية هملت تعتمد على أسطورة دانمركية ينكرها أكثر المؤرخين . ورواية روميو وجولييت أحدوثة ايطالية يغلب أن يكون شكسبير قد سمعها أثناء سياحاته فى شمال ايطاليا أو قرأها ولم يستتمها فى بعض الكتب . ذلك أن هذه الاحدوثة تنتهى بأن روميو لما بلغه موت جولييت حضر الى قبرها وبلغ من أمله أن طعن نفسه بالخنجر ، ولما كانت جولييت لم تتناول السم بل تناولت مخدراً فقد استيقظت وروميو ما يزال فى النزع فبث كل منهما لصاحبه لاعج غرامه . وطعنت الفتاة نفسها بالخنجر الذى زج به محبها فى أعماق قلبه . ولم يشر شكسبير الى هذه الواقعة الجديرة بأن تجرى على أوتار ربة شعره بأرق انغام الحب والألم فدل بذلك على أنه لم يعرفها .

هذا التحليل للمحيطات التى وجد فيها شكسبير قد يفسر طريقة وضعه رواياته وقد يهدى الى أسرار ما نرى فيها اليوم مما نعتبره عند عدم وقوفنا على هذه المحيطات خرافة غير لائقة بعبقرية فذة

كعبقرية شكسبير . لكنه مع ذلك لايدلنا على شيء من سر عظمته ولا يهدينا الى كثير من سر شعره . والحق ان البيئة والزمن وحدهما لايفسران نبوغ النابغة ولا عبقرية الشاعر ولا يبينا مراميه وكشفا عن أغراضه . فأما العبقرية فلازمة ذاتية وهبة قدسية تنفح بها الطبيعة شخصا من الناس على حساب مواهب أخرى . وعبقرية شكسبير كانت فى ملاحظته وفى خياله وفى شاعريته وكانت فى تقويب نظره تقوبا يستطيع معه أن يرى دخيلة النفس الانسانية وأن يصفها وصفا حسبه الناس بادىء الامر غواية شاعر ، ثم أثبت العلم انه الحقيقة العلمية التى لاتقبل نزاعا ولا جدلا .

وكانت مظاهر الطبيعة فى أرق صورها وأجلها أول ما نجأ خيال شكسبير . فانت لاتقرأ له رواية ولا مقطوعة إلا وجدت من وصف هذه المظاهر وصفا موسيقيا بديعا يدلك على مبلغ تأثيرها فى أعصاب هذا الشاعر الدقيق الحس تأثيراً يجعله يندفع الى الاعجاب بالجمال وتقديسه الى أقصى حدود الاعجاب والتقديس ، فيظهر أثر ذلك فى شعره ، ويظهر فى رعشة موسيقية قوية رقيقة فى قوتها ، متجاوبة ثائرة فى تجاوبها ، تهز نفسك هزاً وتسحرك عما حولك وتصل بك حتى ترى أمام خيالك ما رسمه خيال شكسبير ماثلا واضحاً . وقد بلغ من تأثير هذه الصور فى نفس الشاعر العظيم ان حلت منه محل التفكير حتى فى شأن الحياة الانسانية . فالرجل الغاضب كالطبيعة الثائرة . وما يترتب على ثورة الطبيعة من آثار هو بعينه عند شكسبير مايترتب على غضب الانسان من آثار . والطبيعة فى سيرتها العادية

تافهة حتى اذا ملكتها الثورة أبرقت وأرعدت وعصفت وأهلكت الحرث والنسل . كذلك الانسان فى سيرته العادية تافه حتى اذا ملكته الشهوة أسرف فى الحب أو فى البغض أو فى الايثار أو فى التشفى والانتقام . والطبيعة خاضعة لظروف لاسلطان لها عليها ، والانسان خاضع مثلها لظروف لاسلطان له عليها . وكما تسير الغرائز الطبيعية تسير الغرائز الانسان. فكل صورة للطبيعة لها مثلها فى الانسان . ولذلك كان أسلوب شكسبير وكان خياله خيالا تصويريا فى وصفه وفى احساسه وفى شهواته وفى تفكيره . اقرأ مكبث حين يصف آثار جريمته وكيف لاتستطيع البحار أن تمحو ماخلفت من دم على يديه . واقرأ هملت فى ثورته على أمه وفى سائر هذياناته الحكيمة . بل اقرأ قيصر واقرأ فى قيصر خطاب انطونى . اقرأ ماشئت من شكسبير تر هذا التقديس لصور الطبيعة وهذا التفكير المصوغ فى قالب تلك الصور .

وكما يندفع شكسبير الى تقديس مظاهر الطبيعة وتتخذ من صورها صور تفكيره ، فهو لايرى فى غرائز الحياة غير الاندفاع لايقوم على أساس من روية ولاتفكير ، وانما يقوم على الغرائز الانسانية البسيطة هى التى توجهه وتصرفه . فالحب عنده لايحتاج الى تحضير ولاسعى من جانب الرجل لكسب المرأة بل هو اندفاع من جانب شاب كل منهما نحو صاحبه . اندفاع رقيق كل الرقة قوى كل القوة . اندفاع شعرى عذب يتغنى فيه كل من المحبين بأهازيج الهوى على نغمة موسيقية حلوة كأنما كوبيدون إذ رمى عن قوسه فأقصد القلب رمى مع القوس الوتر، فأخرج هذا الوتر من اعصاب كل من المحبين

انات وآمالا واحلاما لذيذة ويأساً فاجعاً لا يعرف الشعر فى كل الامم شيئاً منه مثل ما عرف على لسان شكسبير . استمع الى أنغام أوفليا فى حبها هملت وتوجعاتها حين اليأس الذى أدى بها الى الموت . واسمع هذا التجاوب الحلو بين روميو وجولييت يجعل من الحب جنة نعيم ليس بعدها جنة نعيم . ثم اقرأ ثوران الثورة وضجيجها والتهابها فى نفس أوتللو مما لا مثيل له فى أقوى ما تصل اليه موسيقى فاجنر . وخيال شكسبير يصل من ذلك فى بعض الأحايين الى حدود يعجز أقوى خيال تصورها

وكما تحرك الغرائز المحيين تحرك الناس جميعاً فى كل تجارة الحياة . فليس الملك على خلاف الناس جميعاً لأنه ملك . بل هو يحب أهله وأبناءه ويدللهم مادام بعيداً عن مباشرة شؤون الدولة . وهو فى هـذه الشؤون يتأثر بغرائز الانسان وشهواته كما يتأثر أى انسان سواه . والرجل السيء الذى خلقه شكسبير فى شخص ياجو وفى شخص شيلوك تاجر البندقية ينقاد للغرائز الانسانية انقياد الوحش أوتللو والناقم هملت وإن كانت صورة هـذه الغرائز تختلف من شخص الى شخص حسب مزاجه . وهذا الاختلاف هو الذى جعل من أبطال شكسبير أشخاصا ذوى حياة انسانية صحيحة تشعر وإياها إذ ترى تمثيل الروايات على المسرح فى حين انك إذ ترى روايات راسين وكورنى مثلا، وهما من أكابر كتاب فرنسا فى القرن السابع عشر، تحس المؤلف هو الذى يتكلم وترى أفكاراً تروح وتجىء على المسرح كل وظيفة الممثل أن يقوم بالقاء الالفاظ التى تؤديها من

غير أن تظهر له شخصية حية تنسيك أنه ممثل وتنسيك أنه يقوم بدور تمثيلى .

ولقد أقر النقاد جميعاً لشكسبير بهذه الميزة وإن رأى بعضهم أنه يسرف فى تصوير أشخاصه إسرافا يجاوز المعقول ، ناسياً أن هؤلاء الأشخاص هم من عصر شكسبير وأنهم من أبناء خياله الشعرى المتوقد . وكما أتهم بالاسراف ظلما فى هذا فقد اتهم بتهمة أخرى أثبت العلم خطأ اتهامه بها . فقد ذهب بعضهم فى وقت من الأوقات الى القول بأن شكسبير يخالف الطبيعة والمعقول فيما يقرره لبعض أشخاص من تصرفات . من ذلك مثلا انك ترى مكبث يرتكب جريمة القتل فتتلوث يداه بالدماء ، ثم هو مع ذلك يظهر فى أماكن لا يأمن أن يراه الناس فيها ويصيح بأن مياه البحار لا تغسل جريمته . وعلى الرغم من الحاح لادى مكبث فانه يظل يتحدث عن جريمته ولا يدارى شيئا من آثارها . فهذا فى رأى النقاد الذين أشرنا اليهم تصرف غير معقول . أليس أول ما يصنع المجرم أن يعمل ليدارى جريمته ؟ لكن العلم الجنائى أثبت أن شكسبير على حق وأن الطبيعة الانسانية تدفع بالمجرم الى مكان جريمته وتكرهه أكثر الاحايين على الاعتراف بها .

وليس مثل مكبث إلا واحداً من أمثال كثيرة فى ثقوب نظر شكسبير واستشفافه حقيقة الغريزة الانسانية .

* * *

هذا بعض ما تأثر به شكسبير فى شعره . وهو قليل من كثير يستحق العناية به وبحثه . والآن أخشى أن أكون أطلت فى حديث

لم أكن أقصد الى الاطالة فيه وإن يكن القول فى شكسبير قصيراً وإن طال. فلنجتزىء بما تقدم. وبأن شكسبير بعد أن أقام فى ستراتفورد مكتفيا من العيش بطمأنينته ونعمته، ظل حتى سنة ١٦١٦ ثم مرض فكتب وصيته بما يملك الى ابنته سوزان غير تارك لزوجه الا قليلا. وفى هـذه السنة مات ودفن من غير كبير احتفال، الى أن اضطر العالم بعد أجيال ليقيم له من المجد ما يبقى على الاجيال حتى آخر الزمان.

برسي بيش شلي

— ١ —

ظهر السادس عشر من شهر أغسطس سنة ١٨٢٢ ، فى صحو جو جميل ، كان لورد بيرون والشـاعر لى هنت والبحار ترلونى وقوفا فوق رمال الشاطىء الايطالى على مقربة من ليفورنو يحيط بهم عدد من أهل تلك المنطقة ويقف الى جانبهم جماعة من الضباط والعساكر الايطاليين ، وكلهم محدق ببصره الى نار تضطرم قد بوركت بالنبيذ صب عليها وبالملح التى فيها ويفوح منها ريح اللحم الانسانى ،وكلهم واجم مخلوع القلب ذاهب فى تيهاء الهلع والذهول . وظل هـذا المنظر المروع أمامهم ثلاث ساعات تباعا يهز نفوسهم هزاً فلا يزدادون ازاءه إلا وجوما وذهولا ، وتنـدى عين بعضهم بالدمع ثم تذرفه أن لا تستطيع حبسه. ويبلغ الهلع والروع أثناء ذلك من لورد بيرون مبلغهما فيلقى بملابسه على الرمل ويلقى بنفسه فى الموج يسبح خلاله حتى يصل الى زورقه « البوليفار » . ويحدق ترلونى بالعظـام تحترق وباللحم تذيبه النار ، ثم يرى القلب مع ذلك كبيراً كبيراً ، فما يزال منه قلب كامل لم يذب ولم يحترق ، فيجتذب هذه البقية المقدسـة بيده. وتبدأ النار بعد ذلك تخبو رويدا رويدا تاركة وراءها حفنة من تراب هى كل ما بقى من رفات قيثارة الشعر الانكليزى شلى. ويحمل ترلونى الحفنة الى الارملة البائسة مارى شلى لتتولى ويتولى هو ولى هنت معها حملها الى مقابر البروتستانت فى روما كى تستقر هناك فى أرض غريبة عن ثرى الوطن ، ولـكن لتسعد مع ذلك باستقرارها الى جانب رفات

حوزة محبوبة هي رفات وليم شلي ابن الشاعر البكر من زوجه ماري. ويقع هذا المنظر المروع وتنقل تلك الرفات المقدسية الى روما، ولم يكن شلي قد بلغ الى يوم وفاته في الثامن من أغسطس تمام الثلاثين من عمره، وان كان قد خلف من شعره على الحياة مالا يزال نغم الشعر الانكليزي عذوبة وموسيقى يأخذان بالنفس ويعلكان على المرء حسه ولبه ويمتان الى كل ما ينشدانه ويترنمان به الحياة والخلد، سواء أكان ما ينشدانه ويترنمان به انسانا أم طيراً أم حيواناً أم جماداً أم مجرد خيال لا وجود في الحياة له. ذلك بأن الحياة كانت تسري في كل ما لامس نفس شلي لتبقى قائمة به قروناً ودهوراً بعد موت باعثها. وكذلك كانت حمية الشعر في هذا الشاب الذي خلف الحياة مذ كان على أعتاب الحياة مما يزيد ذكراه قوة وجلالا، وان كانت هذه الذكرى في غير حاجة الى مزيد من قوة أو جلال. فلقد كتب لكل بيت من شعر برسي بيش شلي منذ ترنم هو به الخلود وكتب له الجلال.

ولم يكن لورد بيرون ليلبس ساعة قراره أمام المنظر المروع ما كان عليه زميله وصديقه من خلق عظيم ونفس بلغت من السمو أرقى سماواته. فهذا الشاعر الشاب الذي ولد في الرابع من أغسطس سنة ١٧٩٢ وتوفي في الثامن من أغسطس سنة ١٨٢٢، قد حلق به جمال الخلق في سماء الشعر الى ما لم يرتفع اليه معاصر له، والى ما لم يسبقه اليه أحد في رأي كثيرين، وما لم يسبقه اليه غير شكسبير في رأي آخرين. وكان ارتفاعه هذا ليس قائماً على خياله الملتهب وشاعريته الفياضة وكفى، بل كان قائماً فوق ذلك وقبل ذلك، على

قوة فى النفس قل أن يكون لها نظير . قوة بدأت مظاهرها منذ الطفولة وتجلت أثناء الصبا وازدادت وضوحا فى صدر الشباب الذى كان، وهو صدر شباب الشاعر ، خاتمة حياته . وكانت أجلى مظاهر هذه القوة واضحة فى ايمان الرجل برأيه وصراحته فيه وإعلانه اياه وسلوكه سبيل الحياة على موجبه وان أدى لذلك تعنتاً فاحشاً أن عده الناس مجنونا وان نفرت منه الجمعية الانجليزية أشد النفور حتى اضطرته ليهجرها منذ أول شبابه وليعيش السنوات الخمس الاخيرة من حياته تحت سماء ايطاليا الدائمة الصفو والابتسام والتى تظل من صور الجمال وبدائع الفن مايزيد فى الهام الشاعر . هذه الشجاعة وهذا الايمان اللذان اعتبرا جنونا هما أساس شاعرية شلى وهما مصدر الهامه . لكنهما لم يكونا كذلك عند لورد بيرون الابيقورى المستسلم لسلطان الزهرة الناهل من ورد بناتها جميعاً الحائز لذلك غاية الاعجاب من أهل عصره وأكبر تقديرهم اياه . لذلك كان طبيعياً أن يرى فضائل زميله وأن يقدرها ، وكان طبيعياً أن يفر من منظر النار تحرق مثوى هذه الفضائل وتذره رماداً .

وكثيرون ممن عرفوا شلى من كانت تأخذهم الدهشة لفضائله ، ومن كانت تزيد دهشتهم لشجاعته وصراحته . ذلك ان صورته وتكوينه لم يكونا ينمان عن هذه الفضائل فيه، وان كانا ينبئان بشاعريته وقوة خياله . فقد كانت فى نظرته وفى تقاطيع وجهه وفى جمال شعر رأسه أنوثة عذبة تحدث عن رقة ولين لا عن صلابة وشدة . وكان يضوع منه شذا المحبة والعطف بما لا يلتئم مع القوة على النضال والقسوة فيه . وكان جسمه الطويل النحيل كأنه قصبة هذه القيثارة

التى شدت بأجل الانغام وتغنت بأحلى الاهازيج . كذلك لم يكن مولده ولا كانت مكانة أهله فى الجمعية مما يزيل دهشة من بلغت الدهشة منهم بشجاعة شلى وصراحته فى اعلان ايمانه حتى حكموا عليه بالجنون . فقد ولد فى أسرة نبيلة جمعت الى النبل المال . وكانت بطبيعة هذين العاملين محافظة ، لتظل من طريق محافظتها ناعمة بمالها ونبلها . كان جده السير بيش شلى بارونا وكان غنيا وكان لايفتأ يدأب لزيادة ثروته . وكان أبوه تيموذى شلى قاضيا وعضواً فى البرلمان ، وكان قصرهم بفيلدبليس على مقربة من هورشام احدى أعمال سسكس محاطا بحدائق وأحراش تدعو الى المتاع بها والطمأنينة لها . وكان جده السير بيش قد خصه بالوصية وارثه مما يدر عليه ايراداً سنويا ستة آلاف جنيه فى ذلك الزمان ، سبحان من يدرى كم ألوف تعادلها فى زماننا اليوم ! وتلك كلها أسباب دعة وبلهنية وليست أسباب نضال صلب وصراع للجمعية وللحياة فيها لايعرف المدفوع اليه سبيلا . ولو أن صاحبها أوتى من هبة الشعر ما أوتيه شلى لكان طبيعيا ان يسلك الطريق التى سلكها بيرون من الانكليز وعمر بن ابى ربيعة من العرب . لكن شلى ضرب بالمال والجاه والنعمة عرض الافق وترك بيت أبيه وترك أهله جميعاً ولم يقتض من وصية جده الا بمقدار مايكفيه حاجة العيش ، وانطلق فى الحياة هائما يجلى بهاء الفضيلة ويؤدى رسالة الجمال ، ولم يكن له من أدلتها بد ، فى أنغام قدسية من موسيقى السماء . ويؤديها ذاهلا عما أحاط بحياته من أحزان ومتاعب متجها بكله الى هذا الوجود المحيط به ، مغنيا نفسه فيه كى يفنى الوجود كله

عن نفسه فترده الى العالم وحياً سماويا يختلط بالنفوس جميعاً وينتقل على الاجيال الى ما شاء الله أن تكون للانسانية أجيال تتعاقب.

وكان لجماله ولرقته أثر بالغ فى حياته وفى تفكيره وفى شعره. جعله هذا الجمال المزدان بخواتم شعره وعيونه العميقة الزرقة ولونه الناصع النظيف ويديه ورجليه الجميلة التكوين وما اتصل بذلك من حسن تحسده عليه كل فتاة فى مثل سن الطفولة التى كان فيها يوم ذهب به أبواه الى مدرسة (سيون هوس) فى برنتفورد، بالغاً فى رقته وظرفه وحلو طبعه. ونشأت هذه الصفات الى جانب جماله عن نفس حية حساسة تأنف القسوة وتتنزه عنها وترى فى عدم النظام وسوء الاتساق ما يؤذيها ويثيرها. على أن هذه الصفات جعلت منه فى المدرسة سخرية زملائه وموضع عبثهم ولهوهم، مما بعث الى نفسه غضاضة ومضضاً. فلما انتقل به أهله الى مدرسة «ايتون» حيث يتعلم أبناء النبلاء وذوى المكانة لم يزدد لنظامها إلا بغضا ولعامة زملائه التلاميذ فيها الا مقتا. فقد كان وما يزال من نظام التربية فى هذه المدرسة أن يخدم الصغار فيها من هم أكبر منهم سنا وأقدم فى المدرسة عهداً. وكان الصغير الخادم عرضة لكل أنواع الأذى والاهانة من كبيره. كان يمسح له أحذيته ويأتمر بأمره فى كل حاجة يحلو له أن يأمره بها. ثم كان هذا النظام يقتضى مع ذلك ألا يصبر أحد على اهانة زميل له اياه وأن يدفع القوة بالقوة والعدوان بالعدوان. ولذلك كانوا جميعاً يتقنون لعبة (البوكس) ليدفعوا عن أنفسهم وليردوا اعتداء المعتدى عليهم، لكن هذا كله لم يرق الصبي شلي فلم يذعن له. لم يرض أن يكون خادما ولم يرض أن يجعل حق القوة أساس خلقه. ليكن هو نظام

المدرسة التى تابعته وتتابعه منذ أجيال ، فهو لا يؤمن بصلاحه ولا باتفاقه مع الخلق الفاضل والكرامة الانسانية ، فلا يمكن أن يرضى عنه وأن يخضع له : لا يمكن أن يكون خادما ولا أن يخالط أولئك الذين يقضون سحابة نهارهم فى ملاكمة ومصارعة تقوى بها عضلاتهم وأبدانهم على حساب عقولهم وأرواحهم . لذلك اعتزلهم ولجأ الى وحدة لم تزدهم له الا احتقاراً ، ولم تنجه من سخريتهم وأذاهم ولطمهم ولكمهم . لكن رقته لم تزد به الى ضعف إيمانه وأنفته ولم تجعل منه ذلك الطفل المستذل الذى يخضع لسلطان الأقوى ويأتمر بأمره . بل كان يقارضهم سخرية بسخرية واحتقاراً باحتقار . وكان يدفع عدوان أيديهم عليه بعدوان مثله ، وان يك عدوانا متفقا مع هذه الانوثة فى تكوينه . عدوان عض بالأسنان وخمش بالاظافر بدل اللكم بقبضة اليد مما كان يتورم له وجهه أحيانا . وهو لذلك لم يكن يباديهم العدوان ولا يتحكك بهم . بل كان يتركهم فى العابهم ورياضتهم العنيفة ليأخذ هو كتبا حبيبة اليه مما وضع كتاب الثورة فى فرنسا وأنصارهم فى انكلترا ومما وضع جماعة اليونان الاقدمين ، ثم ينطلق ما بين الاحراش والغياض حتى يصل الى حافة النهر حيث يجلس فينسى نفسه فى المتاع بما فى كتبه وبمشهد هذه الطبيعة الساحرة حوله وبتأمله اياها والتفكير فيها . ولعل أشد ما تأثر به من قراءاته كتاب وليم جودوين : (العدل السياسى) . وكان وليم جودوين من أشد كتاب ذلك العصر تأثراً بمبادىء الثورة الفرنسية ودعوتها الى الحرية المطلقة فى التفكير ، وما ترتب على هذه الدعوة من خروج على طائفة رجال الدين وتعاليمهم ومن المبالغة فى ذلك الى انكار الدين

نفسه . على ان جودوين يختلف مع كتاب الثورة الفرنسية ورجالها أشد الاختلاف فيما يتعلق بوسائل تحقيق الاصلاح الذي يريد ادخاله على النظم وعلى قواعد الجمعية . فكان يرى العقل والمنطق وحدهما وسيلة الاصلاح ، وكان ينفر أشد النفور ويعلن من الطعن على الالتجاء للعنف ولوسائل القوة وضروب القسوة . ودفعه تفكيره الحر هذا الى إنكار أكثر القواعد التي تقوم عليها جمعية عصره . دفعه الى انكار الملك الخاص الا بمقدار حاجة الشخص له والطعن لذلك على الثروات الواسعة . ودفعه الى انكار الزواج على انه نظام، لانه مناط فكرة الملك الخاص . وانتهى من تفكيره الى وجوب اقامة الجمعية على أساس من العقل وحده ، والى القول بأن هذه الأسس لو وضعت على صورة صحيحة زال ما يشكو منه الناس من بؤس وشقاء وجريمة ، واضحت العقوبة وصمة فى جبين الانسانية. ولذلك كان لا يكفيه أن يطلب الغاء عقوبة الاعدام ، بل كان يطلب الغاء العقوبات جميعاً .

فى هذه المبادىء التى وضعها جودوين كثير سبقه اليه روسو وتأثر به أهل فرنسا ورجال الثورة فيها . على أن المبالغة هى التى ادت بهم لينكروا حتى الدين الطبيعى الذى دعا روسو اليه وليجعلوا الالحاد وسيلتهم الى حرية الفكر . ولعلك ان التمست تفسيراً لهذا وجدته فى تشبث رجال الدين يومئذ بسلطانهم تشبثا كان يزداد كلما شعروا بسلطتهم معرضة للنقص ثم الاضمحلال . على ان واحداً من هؤلاء الذين دفعهم تعصب رجال الدين للمجاهرة بالالحاد لم يلبث ان عاد الى نوع من الايمان فيه جمال وله جلال ، ودعا اليه عن يقين

واقتناع لم يكن لرجال الدين حظ منهما . ولقد تأثر شلى فى الأيام الأولى من شبابه الى ابعد مدى بكتاب جدوين ورأى فى نظم الجمعية السياسية والاجتماعية والدينية مالا يتفق مع حكم العقل ، واقتنع بأن مرجع هذا كله الى تشبث رجال الدين بأن يخلعوا على كل دقيقة وجليلة من نظام الجمعية ثوبا من القداسة يحول دون التفكير فى معالجته أو ادخال أى اصلاح عليه . أليس نظام الزواج قد طبع بميسم الدين ؟ اليست عروش الملوك قد أحيطت بسياج من القداسة الدينية ؟ أليس التملك والتوارث وكل ماهو من شؤون هذا العالم الدائم التغير والتطور قد سبك فى قوالب الدين التى يقولون انها لاتقبل التغير ولا التطور ؟ . لذلك مال شلى الى ناحيـة الانكار على أنه الوسيلة لـكل اصلاح مادام الانكار هو الوسيلة الوحيدة للحرية فى التفكير والشعور والالهام والايمان .

الى جانب هاته المطالعات التى كانت تثـير سخرية ابناء ايتون من شلى كانت طبيعته الحساسة الفياضة بالشعر وعما يلهم الشعر من تعلق بمـا وراء الطبيعة تدفعه الى دراسات أخرى جعلت زملاءه فى المدرسة يطلقون عليه لقب (المجنون شلى). فقد كان يعنى بالسحر والسيمياء ويعتقد فى الجن والاطياف ويرى فى الهواء والماء شياطين وآلهـة كانت تحيا فى خياله وتصبح ذات كيان ووجود ، لـكثرة مطالعاته فى أساطير اليونان وتاريخهم . واتجه عقلـه متأثراً بهـذه الناحية من نواحى طبيعته يلتمس أسرار العلم ويريد أن يكشف عن غموض قوى الـكهرباء والضوء . ولذلك كان شديد الولع بأن يكون لديه معمل كيميائى صغير يرضى طلعته العلمية والسحرية .

على أنه كان كلما أزدادت فى هـذا الباب بحوثه ثبت لدى زملائه جنونه ، فلم يستمع له أحد قولا ولم يرض أحد عن نظرياته الجريئة فى الحياة وفى الحب وفى الاصلاح الذى أولع هو به بعد الذى أفاد من مطالعاته . بل كانت كل محاولة من جانبه لاقناعهم برأيه مثارة احتكاك بينهم وبينه وسبباً لمكه ولطمه .

وزاده تحديهم إيمانا بضرورة اصـلاح الجماعة وتغيير أسس نظامهـا ومقومات حياتها . لكنهم لم يكونوا يسمعون لما يريد أن يقوله لهم فى هذا برغم أنه لم يفكر فى كراهيتهم بسبب مايصل اليه من أذاهم وإن كان دائم التفكير فى اصلاحهم، براً بالانسانية وعطفا عليها . فلما لم يجد منهم سميعاً جعل من اخواته البنات ومن إبنة عمه هاريت جروف تلميـذاته فى إجازاته المدرسـية يلقى عليهن تعاليمه ويطالعهن برسالته . ولقد كن بطبيعة الحال ألين من زملاء المدرسة عريكة وأسلس قياداً . وكانت اليزابث كبرى اخواته أشدهن إيمانا به وتقديساً له وإعجابا بكل مايقوله. هو يرى الشر فى الملوك والاغنياء والقسس ، ويرى الخير عند البؤساء والفلاسفة . إذاً فالخير عنـد هؤلاء والشر فى أولئك . وهو يرى الزواج نظاما تعساً ، وإنما يجب أن تقوم صلات الرجل والمرأة على أساس من الحب المقدس ، فالزواج إذاً نظام تعس . وكم كانت شاعريته الوليدة تخلع على صور الحب التى يقصهـا أمام الفتاتين من باهر الالوان مايسحرهما عن كل ماسوى الحب مما يقوله ويجعلهما تؤمنان به من غير بحث فيـه . أليستا يافعتين تتقدمان الى الصبا ويبدأ فى دمها مسرى رغباته ؟ والحب عنوان هـذه الرغبات وطليعتها . وشلى شاب جميـل حلو

الحديث عذب النفس ، له من نوازع الصبا مالها ويطير على أجنحة الحب مطارها . ولئن كانت ابنة عمه هاريت ترى فى حديثه عن الزواج واعتراضه عليه تجديفاً لا تميل اليه نفس الانثى الحريصة على أن تجد من الجمعية كل حماية وعناية ، فلعل الحب الوليد الذى ينشأ بينها وبين شلى يكفل من بعد اعتداله ويدفعه ليعدل عن أوهام الاصلاح فى نظام الاسرة المقدس على الزمان . وإن هو لم يعدل من بعد فهى ماتزال بعيدة عن التفكير فى الزواج وفى الارتباط به أو بغيره . يكفيها اليوم أن تخرج معه ومع أخته وأن تسمع لعذب حديثه وحلو نغمه وأن ترى فى نظراته وابتساماته لها ما يسليها عن نظريات يجمل بها أن تعتنقها لتزيده بها تعلقاً ولها ابتساما . وكانت اليزابث تشعر فى بعض الأحايين أن قد طال بها المقام وأن قد سمعت من نظريات أخيها واستمتعت من عطفه بما يكفيها بقية يومها فتذره وابنة عمها وحيدين يتبادلان نجوى الهوى وحلو حديث الغرام . ثم يعودان متخاصرين يسرى الى جسم كل منهما دفء جسم صاحبه .

وكانت أيام اجازته المدرسية تنقضى فى هذه السعادة الكاملة ، فهو يدعو الى مذهبه فتاتين بديعتى التكوين والفتاتان تؤمنان به وتبادلانه حباً خالصاً : حب أخت ترى فى أخيها نبوغا تفخر به ويزيدها حباً له ، وحب فتاة تصبو الى ما يدفع الحب اليه كل فتاة وفتى من تخليد الحياة فى أجيال وأجيال ، على أن يكون تخليداً ترضاه الجماعة وترعاه . فاذا انقضت الاجازة عاد الى ايتون مترضاً

عن الساخرين متمسكا على قراءاته وبحوثه العلمية والسيمية منتظراً يوما يعود فيه الى تلميذتيه يحدثهما من جديد عن مذهب جودوين ويتحدث اليهما عما نكب به رجال الدين الجماعة من أسس فاسدة.

وأتم دراساته بايتون وذهب به أبوه فى ١ اكتوبر سنة ١٨١٠ فألحقه باكسفورد. وفيها تعرف الى شاب من أمثاله اسمه جفرسون هوج دهش بعد قليل من تعارفهما لكثرة مطالعات صاحبه ولعنايته عناية خاصة بالعلوم والميكانيكا. وقد زادته هذه العناية دهشة حين رأى فى غرفة شلى من الانابيب والزجاجات ومولدات الكهرباء ماجعلها معملا عجيباً. لكن هذه العناية لم تكن لتصرفه عن مراجعة هيوم ولوك وفولتير وهولباخ وعن مداومة الدراسة فى كتاب جودوين. وكان من دواعى عجب هوج أن يكون لهؤلاء المتشككة كل ما كان لهم من سلطان على ذهن صاحبه المتجه بطبعه الى ناحية التأملات الروحية. لكن عجبه هذا لم يمنع اعجابه بشلى الذى كان يخرج معه كل صباح يجوبان الاحراش فينطلق شلى مهما يجرى وينط ويلقى بنفسه مقتحما الماء اذا هو صادفته بحيرة من البحيرات ليعود بعد رياضته هذه الى علمه والى تأملاته، ويعود كذلك الى كتابة القصص والنشرات. فلقد بدأ مع ابنة عمه ومع أخته قصة زاستروزى. وهذا هو يكتب قصة أخرى يجعل عنوانا لها (القديسة ارفينى) يروى فيها شيئاً من تفكيراته. ثم هذا هو كذلك يضع نشرة يجعل عنوانها (الحاجة الى الالحاد) ويوقعها باسم جروميا ستكلى ويعمل لنشرها فى كل مكان لينتهى بسبب ذلك

الى طرده من اكسفورد والى هجره بيت أبيه والى ما كان بعد ذلك من حياته المشردة .

وكان فى وسعه أن يتوقع ماترتب على هذه النشرة من نتائج ، بل لعله توقعها ولم يحفل بها ، أو لعل الدافع الذى أدى به لكتابة هذه النشرة لم يكن مما يمكن دفعه أو مقاومته. فقد بعث الناشر ستكديل الى مستر تموذى شلى خطابا يخبره فيه بأن ابنه بعث له بقصة القديسة ارفينى وأن فيها من الآراء مالا يسيغه الجمهور وما يبعث الناس على القيامة ضده . فكتب مستر تموذى للناشر بأنه غير مستعد أن يدفع له شيئاً من نفقات الطبع والنشر . وانتظر حضور ابنه فى أجازة عيد الميلاد ، فلما حضر ألفى الجو حوله متجهماً والفى الناس من أهل هذه البلاد يتهامسون بالحادث ويزورون عنه وينأون بجانبهم ، وتحدث اليه أبوه ساعيا أن يقنعه من طريق المناقشة فاذا برمى أقوى منه حجة وأسطع برهانا ، واذا الاب يقطع آخر الامر بأن يقول له فى غضب: إنى أومن لانى أومن . على أن غضب مستر تموذى وتهامس الناس وانصرافهم عن شلى لم يؤثر فى نفسه ولا دعاه الى التفكير فى أمرهم . لكنما أثر فى نفسه وبلغ منها وأثار حزنها ما كان من ابنة عمه هاريت . فهو لم يكن يشك فى عمق ما بينهما من حب عمقا وصل الى شغاف القلب ، فليس يستطيع أمر من أمور الحياة أن يغير أحدهما على صاحبه أو أن يعدل بهما عما تفاهمت نظراتهما عليه من تقاسم الحياة والاشتراك فى ورد ما فيها من جمال وسعادة . لكنه مالبث بعد عودته أن تحدث الى أخته اليزابث ، التى ظلت وحدها صادقة الود له ، وسألها

عن هاريت وشأنها حتى تولاه الجزع حين سمع منهـا أنها انصرفت عنه كما انصرف عنه غيرها، وأن حبها تطايرت جذوته حين علمت أن أهلها والمحيطين بها لا يرون زواجها من هذا الذى جست من قبل به وجن بها . وعبثاً ذهب شلى وقابل هاريت وحاول اقناعها ، فقد ألفاها أشد حرصا على المتاع بنعيم الجمعية من ملبس وحلى ورقص، منها على الافكار التى يسبح هو فى سماواتها متوهما أنه يسعد العالم باقناعه بها . وألفاها أشد حرصا على علاقتها بأبويها علاقة اطمأنت لها منذ مولدها منها على صلتها بشاب لاتدرى ما عسى أن يكون المستقبل معه .

تولى شلى الجزع ، فكتب باكيا ثائراً الى صـديقه هوج خطابا يذكر له فيه أنها لم تبق له وأنها انقلبت تـكرهه لأنه متشكك كما كانت هى من قبـل متأثرة تعاليمه ، ويعلن ثورته على التعصب ويقسم أنه لن يعفو عنه ، ويعلن أنه ، وان لم يكن يقر الانتقام فهو يرى الانتقام من التعصب عدلا بل واجباً ، وأنه سيكرس كل لحظة من حياته لمحاربته، لأن التعصب هو الذى يهدم الجمعية ويشجع العقائد الفاسدة التى تحطم أقدس الصلات وأرقها وأعزها . وله عن ثورته هذه العذر انه لم يكن يتوقع أن تحطم تعاليم الدين أشرف عاطفة وأسماها، وأن تستل من بين الجوانح حباً قائما على التفاهم وحسن ادراك الحياة والتوجه الى ما فيها من جمال لعبادته والتسبيح بحمده. وكيف كان له ان يتوقع هذا وقد كان يرى فى الحب عاطفة قدسية تسمو بالنفس الى ما فوق منافع الحياة ومطامعها وتحلق بها فى أجواء أثيرية تشهد منها بدائع هذا الخلق جميعاً متجليا فيما يقع عليه الحس من صور جماله. والحق

أن الحب عند شلى كان له معنى أسمى بكثير من معناه عند غيره. هو لم يكن يرى فيه مجرد رابطة نفسية وشركة للتعاون على حمل عبء الحياة، بل كان يريده امتزاجا روحيا لاستشفاف ماحولنا من جمال هو مصدر الحياة، وشركة فى حب هـذا الجمال فى متباين صوره ومختلف ألوانه. ولعل أجمل مايستطيع إنسان أن يعبر به عن هذا المعنى ماعبر هو به فى قصيدته (أبيسيشديون) حيث يقول ماترجمته: «لم أتصل قط يوما بهذه الطائفة الكبيرة التى يوجب مذهبها على الفرد أن يختار من بين الجماعة كلها رفيقة أو صديقاً وأن يلقى بالباقين، وان يك لهم مالهم من جمال وحكمة، فى جود النسيان ... فالحب الصادق يختلف عن الذهب والتراب فى أنك كلما شاطرتهما أخذت منهما وأنقصتهما، على حين هو يشترك مع الفهم الذى يزداد بريقاً كلما ازدادت الحقائق التى يتبعث نظره اليها. وهو كالخيال يستمد نوره من الارض والسماء ومن أعماق أهواء الانسان ومن ألف مرآة وألف ضلع، ثم يملأ الوجود بالاشعة الباهرة يقتل بها جرثومة الخطأ بما يسلط عليها ضياؤه من سهام كأنها أشعة الشمس. ويا ضيق قلب ينحصر حبه، وعقل يقف تفكيره، وحياة تنتهى غايتها، وذهن يقف خلقه عند شىء واحد، وصورة واحدة، يبنى لذلك بها قبر خلده».

اذاً فالدين والعقيدة الاجتماعية والنظام الذى يحصرنا فى دائرة هذا الحب الواحد والتفكير الواحد والغاية الواحدة والخلق الواحد، يبنى لنا قبر خلدنا، وهو لذلك يفسد أمر الجماعة ويقضى على خير مافيها من عواطف وأسمى مافيها من إلهام. فعلى الذين أوتوا ماأوتى شلى

من هبة أن يقوموا فى وجه هذا الضيق فى القلب والعقل والذهن وان يصلوها من حربهم ناراً حامية.

وعاد شلى الى اكسفورد كئيب النفس حزين الفؤاد ثائر القلب والعقل معتزما أن يشن الغارة على التعصب وأن يفسح الطريق للتسامح والحب والمفترقوالجمال. وكان أول ماصنع من هذا أن أذاع نشرته (الحاجة الى الالحاد) موقعاً إياها باسم غير اسمه وموزعا لها على كل من ضيق التعصب دائرة قلبه وعقله. فقد بعث بها الى رجال الدين والى المعلمين والى المشتغلين بالسياسة، ثم عرضها فى مكتبة با كسفورد لم تلبث أن اعتذرت عن عرضها لأول مااحتج أحد رجال أهل الدين عليها. وقد افتتح هذه الرسالة بقوله «الحس أساس كل معرفة»، وسار فيها بلهجة ملتهبة يطعن كل قيود الدين ويحطمها. وأبلغت الجامعة أن شلى هو ناشرها، فسألته فأبى أن يجيب فقررت فصله. واحتج صديقه هوج على هذا التصرف من ادارة اكسفورد، فتقرر فصله هو أيضا. وترك الصديقان الجامعة عائدين الى لندن منتظرين فيها تطور الحوادث وتصاريف الزمن، مكتفيين فيها بغرفة اعتبرها شلى مأواهما الأخير.

ولما علم مستر تموذى شلى بفصل ابنه من اكسفورد ثار ثائره واستشاط غيظا وبعث له رسالة يخبره فيها أنه لن يعده بمعونة أو مدد إلا إذا هو رجع الى فيلدبليس وتلقى فيها الدروس على من يختارهم هو له من الاساتذة. فرد شلى على أبيه يرفض فى أدب شروطه. ولم يقنع الاب بهذا الرفض فذهب الى لندن وقابل يرسى وصاحبه هوج وحاول إقناعهما بالحجة ليعدل شلى عما كتبه

فى رسالته عن الالحاد . ومع ماسلكه من طرق التلطف والمجاملة فقد لقى فى ابنه صخرة لاتتزحزح وألفى فيه إباء وقوة عزيمة لم يستطع التغلب عليهما ، فتركه عائداً الى فيلدبليس من غير أن يعطيه درهما . ولعله كان يرجو أن تضطر الحاجة الابن الى ابيه فينتهى الى الاذعان . أو لعله كان أشد حرصاً على سمعته منه على فتاه . وعلى أى الحالين فقد ظل شلى مصراً على رأيه مرتفعاً عن أن ينزل عنه مستخفا بمايتهدده من ضيق ذات اليد،فما كان المال ليوازى عنده يوما شيئا اذا هو تعارض مع ايمانه برأيه . وبقى معه هوج أياما فى لندن ثم غادرها إطاعة لأبيه الذى ألحقه بمكتب محام يتعلم الحقوق فيه . وأقام شلى من بعده فى العاصمة الانجليزية وحيداً ليواجه الحياة وزعازعها وليستعد لنضال الحمية التى اضطرته الى عزلته ، مؤمناً بأنه سينتهى الى الظفر بها والتغلب عليها .

— ٢ —

أقام شلى فى العاصمة الانكليزية وهو أقل تألما لاختلافه مع أبيه ولمغادرته الجامعة وانقطاعه عن الدراسة المنتظمة منه لتنكر ابنة عمه هاريت جروف له وازدرائها حبه وانفصالها عنه . لذلك كان أكثر تفكيرا فى هذا الحب المحطم منه فيما يقيم به أود حياته . ونعم صبى يفكر من شؤون العيش وقد كان قانعاً بما دون الكفاف حتى لتكفيه بضعة بنسات طعام يومه . فأما هاته التى عقت الحب وعقت آراء جدوين وعقت المبادىء السامية جميعاً ، فهى اللغز الذى يوجب العناية ، وهى الداء الذى يتطلب للبرء منه علاجا حاسما .

وأكب يقلب هذه المسألة على مختلف وجوهها حتى خيل اليه

يوما انه عثر فى حجة منطقية على الدواء الناجع لهـا والحل الصريح لمغزها . هو لم يكن يحب من هاريت جسمها ولا كان يقف اعجابه عند جمالها . بل لئن أعجب بحسنها على انه بعض صور الجمال الذى زينت به الطبيعة الوجود، فانما كان حبه منصبا كله على سمو ذهنها لادراك نظرياته ونظريات جدوين فى الحياة ونظامهـا والتسـامح وضرورته والحرية وتقديسها والجمال وعبادته . وهـذا هو ذهنها قد فتر عن ادراك ذلك كله وهبط الى مستوى الاذهـان العامة وأصبح شيئا آخر غير جدير بأى حب أو تقدير . فماذا بقى بعـد ذلك منها جديراً بالحب أو دافعاً للتشبث بها والحرص عليها ؟ أو لو عشق انسان فى فتاة جمالها تراه عاشقاً الدود الذى يحول اليه جسمها بعد انتقالها الى قبرها ! . وقد دفن من هاريت ذلك الذهن الوضاء المرتفع الى مراقى ذروة التفكير والذى اتصل من قبل بذهن شـلى وروحه ، وقد اندست الى قبره ديدان الاوهام والاباطيل . فلينس شلى هذه العاقة اذاً وليسلـكها فى سلك البائسات الحقيقات بعطفه ورحمته . . لـكن . . ! لكن هذه الحجة القاطمة التى أرضت عقل شلى لم تطفىء فى قلبه جذوة زادها عقوق البائسة ضراما . ولعل مرجع السبب فى هذا الى غدر هاريت لما كان يرجو فى صحبتها من تعاون على محاربة الأوهام المفسدة المندسة الى نفس الجماعة ا كثر مما يرجع الى شىء آخر . فالصحيح أنه لم تكن بينه وبينها صلة حب على نحو مايفهم هو الحب . ولذلك لم يطل فى قلبـه لاعج الهم ولا ظلت جذوته مستعرة الا ريثما وجد فى هاريت أخرى ، لاتقل عن الاولى جمالا ولا ذكاء، ذلك الاستعداد للسمو معه فى سماوات الجمال

والالحاد والتسامح وكل ما دعا كتاب الثورة الفرنسية وتابعهم جدوين فى الدعوة اليه.

فلقد كانت أخواته البنات يتعلمن فى مدرسة البنات بحى كلابهام ، وكانت رشيدتهن هلن شلى تتناول من أختها الكبرى اليزابث رسائل تبعث فيها بما لديها من نقد كى تعطيه هلن لبرسى لتعوضه بعض الشىء عن إهمال أبيه إياه . وكان برسى يذهب الى مدرسة البنات هذه يحمل بعض الهدايا لأخواته لانه كان يأبى أن يستأثر بما تبعث به اليه أخته . وما لبث ان تعرف الى بنات المدرسة حتى بدأ يفكر فى اقناعهن برأيه وحملهن على اعتناق نظرياته ومبادئه. وكانت هاريت وستبروك من أكثر أولئك الفتيات رقة وأحلاهن ابتسامة وأغردهن صوتا، وكان جمالها يغرى مزدانا بشعرها الذهبى وخدودها المتوردة وشبابها الضاحك الى ورود ربيعه ، وكانت ، على أنها فى السادسة عشرة من عمرها ، صغيرة القد طلقة النظرة يفيض المرح من وجودها كله ويضوع منها سرور طرب يجعل كل ما حولها طروبا ضحوكا.وقد أتقنت القراءة والالقاءفزادت عذوبة صوتها وتغريده حياة وروحا .وعنى أبوها مستر وليم وستبروك بأن يجعل منها ضريبة لبنات النبلاء ليجزى الحظ بذلك عما كان هو متمتع حياته حين كان يعمل فى الفنادق. لذلك كانت شديدة الحرص على الاتصال ببنات النبلاء زميلاتها فى المدرسة ، وكانت أشد بأخوات شلى اتصالا . فلما رأت الشاب النبيل الجميل برسى يتردد على أخواته وقع من نفسها وتوددت اليه وأظهرت أساها لالحاده وحاولت أن تصدعنه وان تقنعه بمثل ايمانها وإيمان الجمعية كلها . لكنها ما لبثت

أن اتصلت به حتى تأثرت بروحه وحتى رأت فيما يدعو اليه بهاء وجمالا لا شيء مثلهما أو يقاربهما فى تعاليم الكنيسة ورجال الدين. فالحرية الاثيرية الاجنحة الطائرة فى فضاء طلق تسبح منه فى جمال الوجود ناهلة ورد كل مافيه من صور هذا الجمال الذى يحمل اليها شذى الحب وعبقه فيملأ بهما قلب المستمتع بنعيمها من غير أن يثقله بقيد من زواج او من تملك أو توارث، ومن غير أن يرهقه بالقوانين أو التكاليف، هذه صورة جذابة ليس لها فيما حفظت من تعاليم الدين نظير، ألا أن يكون ذلك فى العالم الآخر وبعد انتقالنا من هاته الحياة التى نحسها ونلمسها . ولو أننا تابعنا شلى لاستطعنا أن ننعم بها فى الحياة نعيم المؤمنين بها بعد الموت . فما لهذا العصفور الجميل هاريت والتفكير فى الموت ، وما لها واكراه خيالها على اقتحام صورة الموت المرعبة الى ما بعدها لترى ما يخيلون لها من نعيم وهناء وجمال ؟ ما لهذا العصفور وهذا الاجهاد مادام رسول الجمال والحب شلى يضع له الجنة فى يديه ، جنة لا تقف حدودها عندما يزين من تعاليم ويصقل من صور وآراء ، بل تبدو حقيقة ملموسة فى جمال صورته ، وفى نبله وثروته الواسعة وعذوبة نفسه وطيبة قلبه وحبه الانسانية كلها حباً جماً ؟ أو ليس خيراً لها أن ترفعها هذه الأيدى الرقيقة الحنون، أيدى شلى ، الى جنات الحب ونعيمه، من أن ينشب الفناء فيها أظافره السوداء لينقلها بعد ذلك الى جنات النعيم ؟ لذلك ما لبثت أن آمنت بكل ما يقول وأن أصبحت مثله تلميذة لجدوين ولمن أخذ عنهم جدوين حتى أفلاطون ، وأصبحت لا تجد سعادة فى لحظة أكثر من تلك التى ترى فيها شلى فى المدرسة أو التى تذهب له فيها بيبته

فى شارع بولونيا تحمل اليه ما تعطيها أخته هلن من مال . فقد كانت هلن تبيت بالمدرسة ولا تستطيع الخروج منها فى حين كانت هاريت تذهب كل يوم الى بيت أبيها فتجد الفرصة للمرور بصديقها ووليها وأستاذها ومحبوبها .

وكان لهاريت أخت متقدمة فى السن الى ما فوق الثلاثين اسمها اليزا ، تقوم منها مقام أمها المتوفاة . وقد سرها ما عرفت من صلة هاريت بشلى ، كما سر بذلك أبوها واعتبره خطوة أولى يرقى بها الى مصاف النبلاء . لذلك لم يسؤه يوماً مرضت فيه هاريت أن دعت اليزا بشلى الى مخدع نوم أختها وأن جلس عند أقدامها الى ما بعد منتصف الليل . وكان من أثر جلوسه اليها أن برئت من مرضها وأن عادت اليوم التالى الى صحتها والى تغريدها وأن تزايد من بعد ذلك وجدها به حتى صار هياماً وتدلهاً . لكن شلى لم يكن ينظر اليها نظرتها اليه . بل كان يرى فيها حياة الروح وسمو الذهن الى الاقتناع بآرائه ومبادئه مما يعزيه عن روح ابنة عمه هاريت جروف التى دفنت فى قبر الاباطيل ونخر فيها سوس الاوهام . كان يرى فيها ضياء جديداً غير هـذا النور الذى خبا ، وشريكة فيما يسميه هو الالحادى حين هو الايمان بالعدل والحق والجمال . واذا هى لم تكن من طائفة النبلاء فلعل فى تحررها من قيود هذه الطائفة ما يكفل بقاءها على عقيدتها الجديدة وثباتها فى إيمانها الذى أوحاه هو اليها . وما أجله ايماناً يتحلى به رأس جميل كله الحياة وكله المحبة وكله العواطف المتأججة .

واطمأنت نفس شلى الى تلميذته والى الحياة وعاوده الرجاء فى

صلاح الانسانية كلها ، وان كانت هذه الصلة قد أدت الى فصلها من المدرسة كما فصل هو من اكسفورد من قبل . وزادته طمأنينته هذه شوقا الى أخته اليزابث أشد من عرف من تلاميذه إيمانا بهوحباً له . وفيما كان يفكر فى الطريقة التى يعود بها الى فيلد بلاس مر خاله الكبتن بلفلد بلندن وتقابل وإياه . وكان الكبتن رجلا كثير التجوال فى مختلف أنحاء العالم، فكان لذلك واسع الصدر متسامحاً لا يطيق أن يفهم كيف يؤدى اختلاف أب وابنه فى الرأى الى تعصب الاب وتصميمه على أن يميت ابنه جوعا . فأخذ شلى معه الى داره بككفلد ليعيد الصلة المقطوعة وليكفل للابن عيشه . وكانت فى ككفلد مربية هى مس هتشنر رومانية الجمال تتخطى فى طمأنينة الى الثلاثين من عمرها وتدين بالمبادىء الحرة ولكنها تؤمن بالله . فأخذ الشاب نفسه بأن يشفيها مما سماه «هذا المرض» وقبلت هى أن تتلمذ له ، مدفوعة أغلب الامر بسحر جماله وعذوبة روحه أكثر من اقتناعها بآرائه ومبادئه . واستعان الكبتن بلفولد الدوق نورفلك على التوفيق بين شلى وأبيه . فلم يحتج المستر تموذى لأكثر من كلمة الدوق كى يعود برسى الى أهله وكى يرى أخته اليزابث . وارتضى الاب أن يرتب لابنه مائتى جنيه سنويا لا يقيدها شرط ولا يؤثر ترتيبها فى حرية شلى بأية صورة من الصور .

ولقد نامت السعادة بشلي أثناء سيره من بيت خاله لبيت أبيه لغير شىء الا اطفاء شوقه لأليزابث . لكنه لم يلبث الا قليلا بعد ما رآها حتى بهت وعلاه الذهول : هل هذه هى اليزابث التى يعرفها؟ لقد كانت تؤمن بإيمانه وتدين بمبادئه . وكانت عونه على هاريت

جروف حين تنكرت له وعقت مبادئه وعادت الى مثل أوهام العامة وعقائدها . فكيف بها هى الاخرى تعمل فعلة هاريت وتثور به وبمبادئه وتجعل كل همها أن تجيل الطرف فيمن حولها من الشبان واكبر رجائها أن تجد منهم زوجا صالحاً ؟ أفترى أولئك الفتيات وبنات جنسهن جميعاً ضعيفات غاية الضعف متى تحركت الامومة فى أحشائهن حتى ينزلن خاضعات لسلطانها عن كل شخصيتهن، ويتجهن بوجودهن كله تلبية لرغبات هذه الغريزة فيهن باحثات فى أقرب ما يجاورهن عن مستقبل وادع مطمئن للنسل الذى تحمل أرحامهن؟ وهل ينسين ساعة بحثهن هذا كل ما يسمو اليه الحب من معان وما يطمئن المحب اليه راضيا من تضحيات فى سبيل تحقيق هذه المعانى؟ ألا تعسا لنظام الجمعية الزائف القائم على الكذب والوهم المدعم بالقسوة والدماء ! فهو الذى يقضى على أذهان بنات حواء هذا القضاء القاسى .

وعبثاً حاول شلى أن يعيد اليزابث الى حظيرته العليا وأن يردها كى تعسر النفس على صور من السمو لايطيقها إلا الموهوبون الذين أرسلتهم الأقدار لترقى بالانسانية درجات جديدة فى سبيل الكمال، وجعلت من جهادهم فى سبيل رسالتهم لذة عيشهم وسعادة حياتهم . لقد ذاقت الفتاة ماتقدمه الجمعية من صنوف المتاع وما تقتضيه عنه إذعان بنيها للنطاق الذى ترى فيه الحفيظ على كيانها . لقد ذاقت هذا المتاع المادى القريب الى متناول اليد، وهاهى ترى فى الامومة صوراً أخرى من المتاع لاسبيل لها الى نيلها الا الاندماج فى قطيع الجماعة وتقديس أوهامه وترهاته . أفتأى

بجانبها من هذا المتاع لتقف من الجماعة موقف أخيها وتنظر اليها العيون شزرا وليسمى القانون متابعتها عواطف قلبها عهراً ؟ كلا ! ولئن كان شلى أخاً صادق الاخوة ، فأول واجبه أن يبحث لأختِه عن زوج نبيل غنى جميل تستكمل به كل مافى مادة الحياة من متاع و تؤدى به للامومة واجبها .

ويئس شلى من أخته كما يئس من قبل من ابنة عمه ، فلم تبق له لذة فى مقامه بين أهله . وجاءته دعوة من هوج كى يذهب اليه فى يورك ، وأخرى من فتاتى وستبروك وثالثة من خاله الكبتن بلفولد ، ولكنه تردد فى قبولها جميعاً ثم فضل عليها دعوة أحد أقاربه الى بلاد الشمال على شاطىء البحر ، آملا أن يجد من جمال طبيعة تلك البلاد ومن تلاطم الموج والصخر ما يسكن ثورة نفسه وما يبعث الى قلبه السلوان عن مصابه فى ذهن أخته . وفى مقره الجديد نصب نفسه رسولا يدعو الى الحرية والحق والتسامح ، فى رسائل كانت تستنفد أكثر وقته يكتبها الى هاريت وستبروك والى مس هتشنر والى هوج والى غير هؤلاء ممن يأنس فيهم ميلا الى الرقى نحو الكمال . ولم يطل به المقام فى عزلته الجميلة حتى تسلم رسالة من هاريت تذكر له فيها أن أباها يريد أن يعود بها الى المدرسة التى فصلت منها ويطلب اليها أن تنكر تعاليم شلى كى ترضى ناظرة المدرسة عن رجوعها ، وأنها اعتزمت أن تنتحر كى لاتلبى مايريدونها عليه . فرد شلى عليها يسكن من روعها وبعث الى أبيها يلومه لما يحاول من اكراه الفتاة عليه . وغضب أبوها لتصرف هذا الشاب الذى كان راضيا من قبل عنه ، مغضياً عن تعاليمه حين كان يحسب أنه

سيتزوج ابنته ثم اذا به كثيره من أبناء النبلاء يغررون الجميلات من بنات الطبقات الاخرى ثم ينأون عنهن ازدراء لمنبتهن . ولم تطاوع هاريت أباها على أن يكون ذلك شأن شلى ، فكتبت اليه من جديد تشكو ، وذكرت له أنها ، متأثرة بخطابه ، عدلت عن فكرة الانتحار ، ولكنها تريد الفرار معه . فترك الغال حين تسلم رسالتها وذهب الى لندرة كى يحاول اقناع أبيها بأن لاحق له فى إكراه ابنته على غير ماتريد ، آملا أن تبقى الفتاة فى رعايته مستتر وستبروك مع بقائها مؤمنة بالحياة الجديدة التى اختار هو لها سبيلها . فلما رأى أن الفتاة تعلقت به وألحت عليه كى يفرا معاً ليقيما حيث يشاء . وحاول هو أن يردها عن رأيها فكان جوابها : لكنى أحبك ولا صبر لى على بعدك .

هنا وجم شلى . وزاده وجوما اللهجة الصادقه القوية الملتهبة التى اعترفت الفتاة فيها بحبها إياه . لكنه هو لم يحبب منها عذوبة صوتها ولاجمال تكوينها وإنما أحب منها صموذهنها وجمال روحها ! على أنه اهتز مع هذا لاعترافها ، وشعر معه بسموها على ابنة عمه وعلى أخته . انها تحبه وتريد الفرار معه مزدريه أوهام الجماعة وعقائدها مستعدة للاشتراك معه فى نضالها لهدايتها واصلاحها . فلم يستطع فى تداول نفسه بين اهتزازها إعجابا بهذا الاعتراف ، وشعورها بأن ليس يشغلها هذا الحب الذى تريد الفتاة أن يبادلها مثله ، الا أن يعلن على شعرها وأن يسكن من روعها وأن يعدها بصدق اخلاصه لها وأنه سيكون الى جوارها عند أول نداء يصله منها . وكفى الفتاة أن تسمع منه هذه الكلمة ليزول عن وجهها

شحوب جاءته به أيام أقسمها أبوها بأن شلى ضللها وأنه لايحبها، وليعود الى لونها تورده والى وجودها شبابه وفرحه .

وكتب شلى يقص على هوج ماحدث . فأجابه صديقه ناصحاً إياه ألا يغر بالفتاة إلا أن يتزوجها . واذا كان لايؤمن بالزواج ويرى فيه نظاما تعساً ، فليس من حقه لذلك أن يشقى فتاة تحبه . فلن نصيبه هو من هذا القرار خسارة ولن يناله منه أذى . أما هى فستكون ان لم تتزوجه منظوراً اليها بعين الازدراء حيث سارت ، مغضوباً عليها من أبيها ، محرومة من عطفه ومعونته ، شاعرة لذلك بألم قد يجنى فى نفسها الطفلة على حبها إياه . فاذا كان شلى لينفذ مبادئه وتعاليمه ولينفصل حين ذلك عنها ، فماذا يكون أمرها وأيان يكون مصيرها ؟ أفلا يكون بهذا مسلماً إياها للتعس والشقاء وتكون التعاليم التى يريد بها سعادة الانسانية مؤدية بالفتاة الى البؤس والسقوط لغير ذنب الا أنها أحبته ؟ . .

وصدمت شلى قوة حجج صاحبه فتراجع أمامها وتردد فى وعده الفتاة أن يكون الى جانبها لأول ما تدعوه اليها . لكن الفتاة لم تمهله فى تردده بل بعثت اليه بعد أسبوع من تركه إياها تدعوه اليها . ولم تطل فى نفسه المعركة بين المبدأ والواجب . فذهب اليها مذعناً للواجب معتزما أن يفر بها وأن يتزوجها تاركا بين يدى القدر ما يؤول اليه أمرها من بعد .

وغادرا عاصمة انكلترا قاصدين عاصمة ايقوسيا وقضيا فى سياحتهما أياماً شعر شلى خلالها بحياة جديدة تسرى الى قلبه وعاطفة حلوة تتحرك بين جوانحه . لقد فر عصفوره معه طائراً عن العش الابوى

حباً له وغراماً به، فلم يك حديثها معه عن الحب هذا الحديث القديم يسموان فيه الى التفكير فى المعانى التى يريد هو أن يحيط الحب بها، بل أصبح حديث غرامها هى وتدلهها، وأصبح حديثاً دلالة الالفاظ فيه دون دلالة النظرات والبسمات والقبـلات. هاهى تستيقظ الى جانبـه فاذا عيونها اليه ممسولة ندية النظرة كلها الشوق والهوى، واذا أذرعها تطوق عنقه وأصابعها تعبث بشعره وقدها الصغير يجتمع كل ما فيه من حياة صاعداً الى قلبها كى يبعث بها الى فمها فتطبعها على فمه قبلة فيها كل قلبها وكل حياتها وكل حبها. وها هى النهار كله تشدو اليه بأغاريد حبها وهواها، ثم ها هى الليل تطوق ثغرها ابتسامة السعادة ويهفو الى أذنه تردادها لاسمه حين أحلامها بهنائها ونعيمها. لذلك لم يكادا يصلان الى أدنبرج ويختاران فيها مسكنا حتى أتم زواجه منها وملكه إياها. وكذلك قضيا أياما نسى فيها شلى نفسه ورسالته واستسلم فيها بكله الى المتاع بحب هاريت حباً بعث الى كل ما يحيط بهما من بحر وشجر وجبل وزهر شذى جعلها تضوع بريح الحب هى الاخرى وتزداد على جمالها جمالا وسحراً.

ثم آن لشـلى أن يعود الى تأملاته وتفكيره، فاذا هاريت فى شغل عنها بحبها له وعبادتها إياه. فان هى شاركت فيها كانت صدى له يرد اليه تأملاته هو فى صوت عذب وحديث حـلو. لذلك ود شلى، مع اطمئنانه لعزلتهما وسعادته بحبهما، لو أن صديقه هوج كان معهما. وكأنما كانت الاقدار فى هذا طوع رجائه. فلم تك الا أسابيع بعد عودته الى التأمل والتفكير حتى جاء هوج فى اجازة له

يقضيها عند صديقه . وقد بهرته روعة جمال هاريت الى حد كادمعه يغفل عن حديث شلى وبحوثه ونظرياته . وسر شلى بأن أتاحت له ضيافة هوج خروج هاريت معه للنزهة وتركه هو لقراءته وتأملاته . فلما آن لهوج أن يعود الى يورك اقترح عليهما أن يذهبا وإياه لها . وسافر ثلاثتهم فلم يجد شلى فى يورك جمالا يغذى روحه الدائمة الظمأ للجمال . وزاده هما أن لم يصله من أبيه المال الذى اتفق على أن يبعث له به. فسافر الى كمبرلند ليرى خاله الكبتن بفلد وترك زوجه فى حماية صديقه الى أن يبعث اليها بأختها . ولم يملك هوج نفسه من أن يذكر لهاريت أنه يحبها . فصدته الفتاة عنها وقاومت هجوم هواه يوما واحداً ، أن حضرت أختها فى اليوم الثانى فحالت بينهما . ولما جاء شلى وأخبرته بخبر هوج لم يزد على أن لام صديقه على سوء صنيعه ، ثم غادر المنزل مسافراً ومعه زوجه وأختها اللتان رأتا فى صنيع هوج مالا يمكن معه احتمال مرآه . وعاد هوج من مكتب المحامى الذى يشتغل فى رعايته فألفى المنزل خلاء وإن لم يخبره بالسفر أحد .

واختار شلى الذهاب الى منطقة البحيرات إذ كان يقطنها الشاعران الكبيران سوذى وكولردج . وكان شلى قد بدأ يقرض الشعر ، فهو يطمع فى مثل عظمتهما ويرجو أن يكون من شعراء منطقتهما . ولما كان دوق نورفلك يقيم كذلك فى هذه المنطقة ، وعلم بمجىء شلى اليها ، فقد كتب يدعوه وزوجته الى قصره . وهناك عرف صديقاً لسوذى ذهب به الى بيت الشاعر الذى كان يحل من نفس شلى أسمى مكانه وأرفعها . لكن شلى لم يلبث أن

تولته الدهشة حين ألفى زوجة سوذى أبعد ماتكون عن إلمام الشعر وإن كانت ربة دار مضربا للمثل . ولما دار بينه وبين سوذى الحديث، بهت مما سمع . فسوذى ، هذا الشاعر الفحل ، يقول إنه متدين وأنه مسيحى ! وهو يحب المال ويطمع فى كسبه ! وهو يعيش كما يعيش الناس ويفكر تفكيرهم ! أليس هذا عجباً ؟ ثم ماذا ؟ ثم عثر فى مجلة على مقال لسوذى يصف فيه ملك انكلترا بأنه خير ملك جلس على عرش . وعلم أن سوذى يقصد من هذا الى أن يخلع عليه الملك ألقابه . إذاً فهو رجل يسخر ضميره لمطامعه ولا يرجو من الحياة الا ما يطفىء ظمأه لنعيم المادة . إذاً هو لايستحق احتراما ولاتقديراً . ليكن له من ملكة الشعر ماله ، فلن توحى ملكة أيا تكون باحترام صاحبها اذا نزل بأخلاقه وبمطمعه فى الحياة الى المستوى الوضيع الذى لايطمع الناس منه الا فى كاذب الجاه وفى اكتناز المال .

أما سوذى فعجب لأمر شلى وصلابته فى رأيه وان لم ير فى ثورته بالدين الا مرحلة من مراحل التفكير يمر بها الشباب الذكى جميعاً ثم يعودون الى نوع من الايمان له روعته وجلاله . بل لقد كان شديد الاقتناع بأن سيكون ذلك شأن شلى، لأن نفسه نفس شاعر ، ونفس الشاعر لاتطيق الالحاد ومايصور الالحاد من عدم . ولأن نفس الشاعر تخلق فلا تستطيع أن تنكر الخلق . ولأنها جميلة فلا معدى لها عن الايمان بالجمال . ومن يدرى أى مصير كان قد اعده القدر لايمان شلى لو أن منيته لم تعاجله فامتد به العمر حتى رأى من عبث الاقدار بالناس والحياة أكثر مما رأى ! !

وكان من حظ شلى الا يفجعه القدر حتى يسرع الى أن يهوى عليه بجيعته . فبما عوضه عن هارييت جروف بهارييت وستبروك كذلك عوضه عن سوذى بمن يؤمن به ألف مرة أكثر من ايمانه بسوذى . فقد عرف إذ ذاك ان وليم جودوين حى يرزق وانه يقيم بلندن وأنه يستطيع ان يراه . لذلك سارع فكتب الى مؤلف (العدل السياسى) رسالة كلها الاعجاب به والرجاء فى الاستماع له

على أن شلى كان يومئذ فى شغل بمشروع كبير لم يدع له الفرصة كى يسرع الى لندن للحاق بأستاذه الروحى العظيم . ذلك ان الكاثوليك من أهل ارلندا كانوا يعاملون معاملة شاذة ، سببها أنهم على غير البروتستانية دين المملكة ودين الغالبية . فكانوا محرومين من مناصب الدولة غير معترف لهم بكثير من الحقوق المدنية المقررة للانسان . وقد رأى شلى فى هذا فرصة سانحة ليعلن حربه على الظلم ولينادى بالمساواة بين الناس جميعاً لايفرق الدين بين أحد منهم ولايجعل له فضلا على غيره ، وليشن الغارة على رجال الدين ومايدعون اليه من تعصب ، وعلى الملوك وما يحيطون به رجال الدين من رعاية يردها رجال الدين اليهم بدعوة الناس الى تقديس عروشهم والاذعان لظلمهم واعتباره بعض ما أراد الله لخيرهم . ولهذه الغاية وضع نداء مطولا دعا فيه الى مبادئه ، وفى مقدمتها التسامح ، والى هذه الافكار التى حققتها الثورة الفرنسية وراءها . لكن الثورة كانت قد أخفقت فى نظر الناس من أهل ذلك العصر ، لأنها بعد ماقدمت فداء للحرية والمساواة ماقدمت من تضحيات وبعد ماقضت عليه من رؤوس أطاحتها وثروات عصفت بها ، لم تبلغ من غايتها أكثر

من أن قدمت أبناء فرنسا كلهم طعاماً لشهوات نابليون الحربية وأن أجلسته امبراطوراً على عرش الجمهورية . وسر اخفاقها فى نظر شلى وجدوين وكثيرين من كتاب العصر ومفكريه أنها اعتمدت لتحقيق غاياتها على القسوة والعنف ، فمهدت السبيل لنفور الناس منها وتنفسهم الصعداء لانقضاء عهدها . ولو أنها جعلت الرحمة والتسامح وبر الانسان بالانسان وتعاطف الاخ مع أخيه أساساً لها ، لحققت على الارض كل غاياتها وإن احتاجت الى زمن أطول لما كان يقدر وجالها لنجاحها . ولهذا دعا شلى الى مساواة الكاثوليك بسائر الانكليز فى الحقوق والتكاليف ، طالباً الى الكاثوليك أن يتمسكوا بحقهم فى هذا من غير أن يلجأوا الى عنف أو دماء . واتخذ مقراً لدعوته فى دبلن بيتاً أقام فيه مع هاريت واليزا ، وجعل يوزع على الناس نداءه الحار الملتهب لهذه المبادىء السامية . وقد خيل الى بعض أصدقائه أن البوليس لابد أن سيقبض عليه وأن اهل ارلندا سيلتفون حوله . لكن هؤلاء سخروا من رسول حريتهم الذى لم يبلغ بعد العشرين من عمره ، ووجدوا فيه وفى زوجه الطفلة الرقيقة موضع دعابة وعطف مما جعل البوليس لا يهتم لهما ولا يعبأ بهما . والحق أن شلى كان مخطئاً كالذين رأوا معه أن اخفاق مبادىء الثورة الفرنسية يرجع الى التجائها للعنف والقسوة . فالثورة الفرنسية ، ككل ثورة غيرها فى العالم ، لم تبدأ لتحقيق المبادىء التى أعلن اهلها انهم يريدون تحقيقها . بل هى بدأت أول امرها لأسباب اقتصادية بحتة ؛ وكان الذين سبقوها من أمثال روسو وفولتير وديدرو قد نادوا بأن سعادة الناس تتم لذا تحققت المبادىء التى أعلنوها . فلما

دكت قوائم عرش فرنسا وأزيح كابوس الجوع وبدأ الذين ألقت اليهم ظروف ذلك العصر مقاليد الأمر يفكرون فى الطريقة التى يسعد الناس بها تناولوا المبادىء التى كان الناس من قبل يقرأونها فتلذهم قراءتها من غير أن يؤمنوا بها . وكان كثير من حكم المصادفة أولئك أقل الناس ايمانا بفائدة المبادىء التى أعلنوا أنهم يريدون تطبيقها ويحاربون من يقف فى سبيلها ، لكنهم كانوا يفعلون ما يفعلون من ذلك استبقاء للسلطة فى أيديهم وتخلصا ممن قد ينازعهم إياها . فهم اذن متعصبون لمصالحهم كرجال الدين ممن يحاربهم شلى سواء بسواء . لكنهم وحدهم هم الذين يوصلون هذه المبادىء السامية الى ذهن الجماهير ، لأن الجماهير لا تفهم الا اللغة الدموية الوضيعة : لغة القسوة والارهاب والبطش . ولو أن شلى استطاع أن ينزل من سمائه العليا الى هذه المرتبة لأحاط الجمهور به ولهتف له ولتابعه ولولغ وإياه فى الدم ولابتهج لهذا المنظر الذى يحرك فيه حيوانيته الاولى ثم لثبت قليل أو كثير من هذه المبادىء فى ذاكرته يستظهرها بعد رجوعه الى وعيه . أما وشلى يخاطبه بلغة السماء ويتحدث له عن حب الانسان للانسان وتسامح الانسان مع الانسان ، فلا مطمع له فى أكثر من سخرية الجمهور به سخرية شابها العطف على شبابه وعلى جمال زوجته .

وعبر شلى وصاحبته البحر من جديد الى بلاد الشمال يائساً من أولئك الكاثوليك الذين لايفهمون . وظل يتنقل فى مختلف بلاد الشواطىء البحرية زمناً لم يهتد فيه الى مسكن يسر به ، فغادرها متجولا فى نواح مختلفة حتى اهتدى فى لنموث الى منزل أعجبه فأقام

به: أعجبه لما يحيط به من مناظر شعرية جميلة يزيدها عنده جمالا عزلتها، وقلة اختلاف الناس اليها . وفى هذا المنزل قبلت مس هتشنر دعوته لجاءت لتقيم معه . والحق أنه كان بحاجة الى صديق روحى يبادله الرأى ويدرك وإياه صور الحياة . فلقـد ظلت هاريت طفلة ، ولم تزد على ما كانت عليه تلميذة . وكان هو يومئذ فى بدء نشاطه الشعرى يضع أولى قصائده الـكبرى المعروفة فى ديوانه (بالملكة ماب) أودعها ما وصل اليه من فلسفة . وكان يريد من يردد شعوره ويقدر آراءه . . فلما حاول يريد أن يجد من هاريت ذلك الشخص تبدى له أنها لا تتذوق الشعر ولا تفهم الفلسفة . لذلك طار سروراً من مجىء مس هتشنر وطلب اليها أن تزيد فى تهذيب زوجته. ولعل هذه كانت طلائع التباين فيما بينهما تبايناً ينتهى الى الافتراق والى انتحار هاريت غرقاً ويدس الى حياة شلى هما ناصبا يظهر أثره من بعد فى كثير من شعره .

— ٣ —

أقام شلى بالمنزل الذى اختاره فى لنموث ومعه زوجه هاريت وستبروك وأختها اليزا ومس هتشنر حتى أوائل خريف سنة ١٨١٢. ومن لنموث وجه شلى الى القاضى لورد النبرا خطابا كان أعظم أثراً وأشد وقعاً من كل ما حاوله فى أرلندا ، وكان ومازال ينبىء عن قوة شلى فى النثر بما لا يقل عن قوته فى الشعر . فقد حكم هذا القاضى على مستر إيتون بالسجن والتعذيب ، لأنه نشر كتابا يطعن على المسيحية وينكر فيه المعجزات والبعث ، ويرى فى التثليث نظرية لا يقبلها العقل . ولم يدر بخلد احد أن يجعل من هذا الحكم موضع

بطعن ان كانت للاحكام فى كل أمة قداستها . على ان كتاباً فى فرنسا وفى غير فرنسا ممن يعجب بهم شلى لم يترددوا حين رأوا فى حكم ظلماً عن ان يكرسوا الكثير من جهودهم لرفع الظلم بالعمل لاعادة النظر فى الدعوى . وهذا فولتير جعل من قضية كالا الذى حكم عليه بالاعدام وبتجريد أبنائه من ثروتهم موضعاً لحملة انتهت باعادة النظر فى الحكم وباعادة شرف كالا اليه بعد اعدامه وإزالة ما ترتب على الحكم الاول من نتائج بالنسبة لأبنائه وورثيه . والحكم على مستر ايتون أجل فى نظر شلى خطراً ، فهو لا يقتصر على إدانة انسان من الناس بل يدين حرية الفكر والتعبير عنه ، ويقيد العقل بقيود تضطر حر الرأى الى النفاق للجماعة مخافة ما ينزل به من عقاب ، وتحول بين الجماعة والاستفادة من تفكير ذوى المواهب الذين تبعثهم الأقدار ليداوموا السير بالانسانية الى ناحية الكمال . لذلك وجه الى اللورد النبرا خطابه القوى مفتتحاً إياه بقوله : « مولاى — أما والمركز الذى دعتك بلادك لتقوم فيه ما له من أهمية ، فالتبعة المترتبة عليه هى لذلك أعظم خطراً . ويجب لذلك عليك مداومة النظر فى انك لم تحكم خطأً بالعقاب على فاضل أو بالمكافأة لناقص ... وصحيح ان القوانين القائمة تحميك من محاسبة أية سلطة دستورية إياك بسبب الحكم الذى أصدرته على مستر ايتون . لكن ليس ثمة أى قانون يستطيع حمايتك من سخط الامة عليك وعدم موافقتها على حكمك ، وليس ثمة قانون يحول بينك وبين حكم الاعقاب عليك اذا كان للاعقاب أن تعنى بذكر شأنك » . ثم ينطلق شلى مندفعاً : — « لكن بأى حق

تعاقب بمستر ايتون ! ليس هنالك الا سوابق عتيقة من أيام تحكم الكهنوت وظلمهم هي التي يمكن الادراج بها لاهانة الانسانية والعدالة هذه الاهانة المزرية . فأى رجل أحربه مستر ايتون ؟ وأى جريمة ارتكب ؟ ولم لا يسير حيث يشاء كما يفعل سائر الناس ، ثم لم لا يعيش كما اعتاد أن يعيش ؟ وأية غاية ترجى من حبس هذا الرجل الذى اتهم بأنه لم يرتكب ما يشين شرف انسان ؟ » ويسوق شلى الحجج بعد ذلك يأخذ بعضها برقاب بعض يدلل بها على أن التسامح ملاك سعادة العالم وإخاء الانسان للانسان والوسيلة الوحيدة لاستعلاء الحق والفضل ، وأن التعصب والاضطهاد لم يجرا على الانسانية إلا ويلات كانت أداتها أمثال لورد النبرا . ويسوق هذه الحجج فى لهجة قوية تظهر فى مثل قوله :

«ان نظام الاضطهاد لا يضارع عجزه ولؤمه إلا اضطراب المنطق فيه . فالمطابع مثقلة بما يسمى (تهكمافيا أظن) الادلة المثبتة للمسيحية ، وهى كتب حافلة بالمطاعن والاكاذيب على منكريها ، وقوامها ان كل من يرفض المسيحية مجرد من الادراك والشعور ، وسبيلها أن تقرر ما لا دليل عليه ، وأن تتخذ من الاباطيل الشائعة المغرة ، مبادىء أولية صحيحة ، ومن النتائج المستخلصة من هذه المقدمات المفترضة ، بنى شاهقة المنطق . ولكن اذا كان الاساس واهياً فما الحاجة الى مهندس يشيد يتداعى البناء ؟ واذا كانت حقيقة المسيحية لا نزاع فيها فلماذا توضع هذه الكتب ؟ واذا كان الموجود من الكتب كافياً لاثباتها فما وجه الحاجة الى جدل جديد ؟ واذا كان الله قد تكلم فلماذا لم يقتنع العالم ؟ واذا كانت المسيحية ينقصها علم

أحمق ويحث لَشقي لاثبات حقيقتها قيم الجزء الى القهر فيما لا يسع سوى العقل الانساني أن يؤديه على وجه يرضيه ؟ »

وهو يعود بمثل هذه الهجة، ناعياً على التعصب داعياً الى التسامح، محاولا التدليل على أن الاضطهاد لن يخفت صوت الحق ولن يكون من أثره إلا دفع الجماعة لتقديس ذكرى من حل الاضطهاد به، على نحو تقديس المسيحيين لعيسى لغير شيء إلا تعذيب اليهود إياه، وذلك حين يقول:

« من الحقائق التى لا سبيل الى نقضها أنه لو لم يكن اليهود همجاً متعصبين، أو لو أن عزيمة بونتياس بيليت كانت كصراحته، لما استطاع الدين المسيحى أن يستفيض، بل لما أمكن أن يوجد. فيا من أعز آرائه عليه رهن بمثل هذا الخيط الضعيف، وأعلق عواطفه بقلبه مصدرها يعتوره الشك! تعلم على الاقل التواضع، واعترف بأن من الجائز أن تكون تربيتك وظروفك قد سولت لك التسليم بقواعد لا ينهض عليها دليل ولم تثبت صحتها على وجه مقنع مرض، واعترف كذلك على الاقل بأن فساد رأى أخيك ليس بالسبب الكافى الذى يجعله أهلا لكرهك. أمن أجل أن انسانا مثلك ينكر أن عقيدتك معقولة، يكون حقيقاً بعقاب التعذيب والسجن؟ واذا سلمنا بجواز الاضطهاد الدينى فما أوسع الباب الذى يفتح ويقتحم منه المتعصبون من كل لون على سلم المجتمع وسلامه! وأى وحشية وفظيعة دموية لا تنقلب مباحة؟ ولكنى أسأل: اليس ذلك الرجل الذى ينكر صحة عقيدة شائعة أحق بتعظيم المجتمع منه بسخطه وغضبه؟ لانه اما أن يثبت زيفها وعقمها (وبذلك يقضى على ماهو زائف ولا طائل تحته) واما أن يتيح لانصارها الفرصة لاثبات صدقها وجمالها. وهذا — على

التحقيق — لايمكن أن يكون جريمة . فان من يهب وقته للبحث الحر والتحقيق الجرىء فى كبرى المسائل التى ترجع فى مرد أمرها الى طبيعتنا الاخلاقية ، يكون أجدر بتشجيع المشترعين المتنورين منه بأن يحيق به انتقامهم . وأحب أن تعلم ياسيدى الوردأن أغلال الحديد لاتقيد ولا تخضع روح الفضيلة . وانها تسمو فوق وحشية المحابس وقسوتها، وترتفع حرة جريئة الى حيث لاتقدر روحك أن تحلق وراءها من مقعدك الضخم فى القضاء . ولست أدعوك لتحمنر أن تنسيك مسيحيتك أنك انسان ،ولكنى أعظك أن تستعجل ذلك العصر الذى يقبل علينا مسرعا فى ظل نظام القهر الحاضر ، والذى تكون فيه مجالس القضاء حقيرة مأجورة ،وتكون السجون منازل لكل ماهو شريف وصادق » .

ويصل الى القمة من حججه حين يستشهد التاريخ على أن الظلم لم يخفت صوت الحق بل قضى على الظالمين ، وذلك فى عبارة بالغة غاية الابداع ،حين يقول :

« سقى سقراط السم لانه اجترأ أن يكافح الخرافات التى كان مواطنوه يلقنونها وينشأون عليها ، ثم ماعتمت أثينا بعد موته بقليل أن تبين لها ماقى حكمها عليه من الظلم،فانتصفت له من متهمه «مليتاس» ورفعت سقراط الى قريب من مراتب الارباب .

« وصلب المسيح لانه حاول أن يهذب طقوس موسى ويستبدل بها ماهو أدنى الى الانسانية وأشبه بالخير . ولقد أعلن قاضيه على الملأ اعترافه ببراءة ساحته، لكن الشعب الجاهل المتعصب أبى الا الفعلة الشنعاء ، فسرح براباس القاتل الخائن وقدم المسيح الوديع

المصلح لقرباناً لاله اليهود السموى . ثم مضى الزمن وتبدلت الاحوال وتغيرت معها آراء الناس وراح الغوغاء على عادتهم من التطرف يرون فى صلب المسيح خارقة . ولم تعوزهم شواهد المعجزات وآياتها — وما أكثرها فى عصور الجهالة — ليثبتوا بها أنه كان من الله ، ودارت هذه العقيدة فى النفوس مع العصور والتفت بأحلام افلاطون ومنطق ارسطاليس ، واكتسبت القوة والسعة والامتداد حتى تقررت الوهية المسيح وصارت المنازعة فيها مجلبة للموت ، والشك فى صحتها جريمة وعاراً .

« والمسيحية الان هى الديانة المقررة ، فمن أراد أن ينازع فى ذلك فعليه أن يوطن نفسه على أن يرى السفاكين والعوتة يتقدمونه فى اعتبار الرأى العام . الا اذا كانت عبقريته كفاء شجاعته وآزره من ظروف الاحوال ما يكفل له أن ترفعه الاجيال المقبلة الى مصاف الآلهة وأن تضطهد الناس باسمه وفى سبيله كما اضطهد هو باسم من كانوا أسبق منه الى الفوز بعبادة العالم »

ثم يختتم خطابه بقوله :

« ان الزمن ليقترب مسرعا حين يعيش المسلم واليهودى والمسيحى والمؤمن والملحد معاً فى جمعية واحدة يتقاسمون متساوين ما ينشأ عن اجتماعهم من فوائد ويتحدون مرتبطين بروابط الاحسان والحب الأخوى . وأرجو لمولاى اللورد أن يرى ذلك اليوم » .

ولما أتم شلى خطابه هذا حاول العود لاتمام قصيدته « الملكة ماب » . لـكن حياة لندن بدأت تثقله وتلدفع الملال الى نفسه ، ذلك أن الغيرة دبت الى نفس زوجته من مس هتشنر قرأت

فيها مناقضاً لما دعى اليه الهم الى حياتها ، وربما وجد شلى الوسيلة اليه الدفاع عن ضيفه لو أنه وجد منها ما كان يرجو من مشاركته فى تفكيره وإلهامه ، بما يزيده تحليقاً فى سماء الشعر ينهل فيها كل مايريد من صور ومعان وألوان . وزاد فى همه أن رأى هاريت لاتتابعه فى جولات خياله وذهنه بمايزيده قوة على قوته وسمواً على سموه، بل وقفت تتلفت الى ملحوظها تبتغي من متاع الحياة مثل ماابتغت من قبلها أخته وابنة عمه .حينذاك أيقن شلى أن لاسبيل للبقاء فى وحدة الريف واعتزم العود الى لندن عله يجد فى الجماعة مسليا عن هـذه العواطف الوضيعة التى بدأ المحيطون به يشغلون بها ذهنه ، وفى مقابلة جدوين منشطاً لروحه فى توثبها للعمل على سعادة بنى الانسان اخوته . واختار فى العاصمة فندقا صغيراً أقام وصحبه فيه .ثم ذهب مع زوجته فى يوم من اكتوبر يزور أستاذة فى موعد حـدده . وكان جدوين يقيم بمنزل صغير يتصل بمكتبة يطبع هو فيها كتباً للأطفال ويبيعها . ذلك ان مكانته التى بلغها بعد نشره كتاب(العدل السياسى)والتى دعا فيها الى هدم نظم الزواج والاسرة والنزوع الى صورة مخففة من الشيوعية كانت قد ضعفت بمقدار عظيم . فلقد كان يوم كتب هذا الـكتاب قسيساً خرج على زمرته وأطلق العنان لفـكره. لـكنه ما لبث بعـد ذلك أن تزوج من مارى ولستنكرافت التى ماتت تاركة له ابنة دعتها باسمها مارى وابنة أخرى من زواجها الاول هى فانى املاى . ولم يمض على موتهـا حين حتى تزوج مرة أخرى من جارة له كانت تبدى اعجابها به ، وكانت ذات ابنة من زواج أول هى جين كليرمون . وقد اجتمعت الاسرة فى انتظار

زيارة شلى وزوجته لم يتخلف منها الامارى، التى تزوجها شلى من بعد ، لانها كانت على سفر فى ايقوسيا . وقد ربطت هـذه المقابلة الاولى بين شلى وزوجته وجدوين وأسرته بأقوى الروابط . على ان فانى وجين ، وكانتا فتاتين ذواتى جمال وعلم ، مالبثتا أن رأتا شلى واستمعتا اليه حتى أظهرتا غاية الاعجاب بجمال نفسه وسموذهنه ومتوقد خياله ، وحتى شعرت كل واحـدة منهما فى أعماق نفسها بميل نحوه دفعها الى التقرب منه والعمل لاجتذابه . وشعر هو من ناحيته بأنهما أكثر من هاريت معرفة وأقدر على تتبع البحوث الفلسفية وتذوق جمال الشعر

ومن طريق اسرة جدوين تعرف الى أسرة نيوتن . وكانت أسرة متأثرة بتعاليم الثورة الفرنسية والثقافة الفرنسية الى حد ملك لب شلى . وكيف لاتملك لبه ولم تقف عند التهذيب تأخذ منه بأعظم نصيب، بل ذهبت الى أبعد من ذلك فطبقت فى كثير من نظم حياتها مبادىء الانسانية التى أعلنتها الثورة . لم يكن أحد من أفرادها يأكل اللحم وكانوا جميعاً يميلون الى ناحية الحياة الطبيعية التى دعا رسو اليها بقدر ماتسمح به ظروف الحياة . ومن ذلك أن كانوا يتركون أطفالهم عراة ماداموا فى الدار . وقد قارضوا شلى اعجابا باعجاب وتقديراً بتقدير . وشاركتهم فى ذلك أخت لمسز نيوتن تدعى مدام دبوانفيل تربت هى وابنتها فى فرنسا ونشأت على تعاليمها . وكذلك استطاع أن يجد فى المدينة منجاة من تلك الوحدة التى أثقلت كاهله فى لنوث والتى اضطرته الى هجر تلك البقاع الجميلة المحبوبة التى ألهمته خطابه الى لورد النبرا والتى كان يتمنى لو أتم فيها قصيدته (الملكه ماب) .

وزاده أنساً الى المدينة وحياتها أن استطاعت زوجته، أو أختها اليزا على وجه أصح، أن تجمل عيش مستر هتشنز معهم علا الاحتى لتطلب هي مغادرتهم شاكية ما أصابها بسبب دعوة شلى إياها من انقطاعها عن المدرسة التى كانت تعمل فيها ومن سوء سمعة زعمت انها علقت بها لاتصالها برجل هو من الجمعية موضع الريبة. ولقد اقتطع لها شلى من أربعمائة الجنيه التى كان يعيش عليها مائة كاملة ورتبها لها لتعيش منها براً بها وتقديراً لتسمته فى دعوتها. وعلى أثر سفرها عاد الى جو الاسرة طمأنينته وعاودت هاريت ابتسامتها وعادت هى الى تغريدها. ومع ما كانت تلمح اليه بعض فتيات جدوين من ميلها الى التجمل بما لا يتفق مع بساطة الحياة الطبيعية، ومع ما كن يتهامسن به مشفقات على شلى من أنه لم يتزوج الشابة التى تسمده وتلهمه، فقد ابتهج هو بسودها اليه وفتح لها من جديد كل قلبه. ثم زاده بها شغفاً أنها حملت، فود أن يستعيد وإياها ألوان متاعهما السابق. لذلك هجرا العاصمة ومعهما أليزا وسافرا الى ارلندة والى الشمال لا يبتغيان من رحلتهما هداية أحد ولا الدعوة الى جديد، وانما يرجوان أن تحدثهما أماكن شهدت غرامهما بأهازيج هذا الغرام لتزيد فى انغامه الثائرة من حنايا جوانحهما ما يزيدهما صبابة وهوى. وكانا سعيدين طوال رحيلهما مطمئنين الى حبهما. على أن ما دعا فى الحقيقة الى هذه السفرة ثورة قامت بنفس شلى حملته يحس فى أعماق نفسه من غير أن يستظهر أمام بصيرته أن شيئاً قد اندس بينه وبين هاريت يوشك أن يفصل بين قلبيهما وأن يبتر صلة حبهما. وكان رجاؤه أن يعود الى ملك عصفوره اذا أزال من نفس عصفوره الوهم أن احداً ينازعه فيه. وكان رجاء هاريت أن تعود الى ملك صاحبها وأن

تنزل به الى مستوى الناس الذين يعرفون للحياة المادية قيمتها ويقبلون على الاستمتاع بكل مظاهرها على نحو ما يستمتع غيرهم بها .

وتقلم بهاريت الحل ، فلم يك بد من عودتهم الى العاصمة مرة أخرى . ووضعت بلتا أسموها (يانت) جعلت أمها أشد حرصاً على صلاتها بالجمعية وعلى صلاتها اياها . وفيم كان زواجها من حفيد البارون شلى صاحب الثروة الضخمة والضياع الواسعة اذا كانت لاتطمع فى حياة ضريباتها النبيلات ، بل فى حياة العامة من الناس ؟ ولعلها كانت لاتغلو فى هذا الميل لو أن أختها اليزا لم تكن دائبة التحدث لها عنه والعود بها الى أن ذلك كان كل رجائها ورجاء أبيها من صلتها بشلى . واضطر هو آخر الامر الى الاذعان لمشيئتها ، واقتنى لها عربة ولم يرفض أن يصحبها مرة الى بائع الجواهر وأخرى الى صانعة القبعات . ثم ألحت عليه ، وعاونتها اليزا فى الحاحها ، أن يعمل على استعادة صلته بأبيه . واضطرته ، فكتب له يرجو زوال مابينهما من قطيعة . لكن هذا السعى أخفق لأن أصر مستر عوذى على أن يعلن ابنه النزول عن آرائه والعود الى حمى الجمعية ونظامها . وأحفظ رفض شلى شروط أبيه قلب اليزا وقلب هاريت وزاد فيما بين الرجل وزوجه من شقة خلف كان لايزيدها تعاقب الايام الا انفراجا . وكان من أثر ذلك أن جعل شلى يجد المسرة فى مقامه بين أسرتى جدوين ونيوتن وفى السفر وحده الى حيث تقيم مدام دبو انفيل مع ابنتها كورنليا ترنر يقضى فى ضيافتهما أياما وأسابيع . بل لقد أقام عندهما فى احدى الضاحيات شهرين متتابعين تاركا هاريت وأختها ينعمان بما تشاء أهواؤهما .

التي هوت الى مستوى أهواء الجماعة الانحانية . وكان اعجابه بكورنليا يزداد يوما فيوما حتى انقلب حباً وحتى فكر في اختيارها رفيقة حياته .

لكن أسرة نيوتن كانت ، برغم حريتها في التفكير وتطبيقها صور تفكيرها في طعامها وفي حدود المنزل ، أسرة ارستقراطية النزعات في علاقاتها المدنية ، فلم يرقها هذا التفكير من جانب شلي في مخالطة كورنليا . وأدرك هو هذا فا كتفى بسعادته بين أولئك السيدات الرشيقات البالغات من صفوة النفس وسمو الادراك مالم يكن يجده الا في جماعة جدوين . على أنه أدرك وجوب الانقطاع ولو الى حد من تكرار زياراته لهؤلاء وأولئك وأكب حتى فرغ من (الملكة ماب) وقد أودعها كل ما دار في نفسه عن الحياة من خواطر وما وقع عليه أثناء مطالعاته من معارف وأفكار وجعلها كأنها كتاب الرسالة التي ظن أن القدر ألقى عليه إبلاغها للناس . وكم كان غضبه لتدهور عقلية الجماعة شديداً حين قابلوا الملكة ماب بفتور لم تتخلص من أثره بعد أن علا في الشعر نجم شلي . بل لقد ظلت حتى اليوم منظوراً اليها على أنها دون ما أبدع بعد ذلك من معجزات الشعر بكثير .

ولقد كان واجداً عن فتور الجمهور بإزاء قصيدته عزاء لو أنه وجد في هاريت أو في غيرها عطفاً عليه يقوي عزمه ويشد قلبه . لكن هاريت كانت على العكس من ذلك قد أمعنت في اهماله حتى لم تأب الظهور في الجمعية مستندة الى ذراع الضابط رايان الذي جعل يتردد عليها بحجة أن له بأختها إليزا معرفة قديمة . وقد حاول شلي

أن يسترد قلبها وأن يحول بينها وبين الانحدار الى أعمق مما انحدرت اليه ، لكنه ألفى هـذا القلب تحجر فلم تعد تهزه بإزائه عاطفة ولا يحركه نحوه ذكر للماضى ولا رجاء فى المستقبل.

وانه لفى يأسه من هذه الناحية اذ أقبل عليه جدوين يستعينه فى متاعب مالية أعانه شلى من قبل فى مثلها . وطار شـلى الى داره راجياً أن يجد فى صحبة جين وفانى بعض السلوى عن عقوق هاريت وجحودها قداسة حبهما . ولم يخنـه القدر ولا نبا به حظه هـذه المرة . فقد طالما تحدث اليـه جودوين عن ابنته مارى وذكائها ونشاطها وحبها المعرفة ومثابرتها على النهل من موارد العلم ، ولطالما وصفتها له جين وفانى على أن ذكاءها يعدل جمالها . وما كانت أشد حاجة شلى ليجد الملاك الذى يجمع الى الجمال الذكاء والى عذوبة الروح سمو النفس والى طهارة الضمير عظمة القلب ، والذى يضىء جمال وجهه بما فى الوجود من قوى العقل والخير الكمينة مبعثرة فى ثناياه . ما كان أشد حاجته الى أن يهب كل ما فى قلبه من حب الوجود لتلك الجميلة التى يضىء وجههـا بكل جمال الوجود . وألفى مارى ساعة وصل الى بيت أبيهـا قد عادت من ايقوسيـا وجلست بين جين وفانى اللتين قدمتاه اليها وذكرتاه تحدثهما عنها كما ذكرتا له انهما حدثتا أختهما عنه. ولم تك الاسويعة تحدثت مارى اليه فيها حتى سحرته عن نفسه ، فجعلته يرى فى جمالها وشبابها ورقتها تلك الرشاقة النسويه مجتمعة الى النشـاط والطلعة الذهنية التى تميـز الشبان ، اجتماعاً كان يراه دائمـاً صورة الـكمال الانسانى فى خير ما يستطيع الفن ان يكون . والحق ان مارى كانت ذكية

الجمال تنطق قسمات وجهها الرقيقة غاية الرقة بما تنطوي عليه جوانحها من أنفة، وتنم عيونها الكستنائية اللون عن شيء من الألم لم يعرف شلي مصدره الا بعدما علم انها تزور كل يوم قبر أمها تقرأ عنده كتبها وتستودعه همها وشجنها ، وقد أجابت طلبته أن يصحبها كل يوم الى هذا القدس تنطوي صفائحه على أقدس حب امتلأ قلبها به منذ طفولتها . وأمام هذا القدس ارتبط القلبان اللذان جملا كل يوم دأبهما الصلاة له : ارتبطا وتعاهدا على أن يكون كل منهما لصاحبه حتى آخر الدهر .

ولما علم جدوين بما بين ابنته وشلي حال بينهما ومنعه عن بيته ، فأجج بذلك نيران قلبه وجعله يعتزم اصطحابها والفرار وإياها ، وأيقن أنه لن يؤنبه ضميره من ناحية هاريت بعد ما ظهر منها انها لا تعنى بغير ماله . فنطا بها من الريف الى لندرة واخبرها بعزمه وبأنه جعل لها راتباً يكفيها عيشها . لكن العصفور رقيق التكوين فلم يحتمل الصدمة فرض ، ثم حاول أن يسترد صاحبه اليه فلم يفلح أن كان قلب صاحبه قد أصبح في ملك غيره .

— ٤ —

كانت أبواب أوربا قد فتحت أمام الانجليز بعد ذهاب نابليون الى البا ، فلما ابلت هاريت من مرضها اتفق شلي وماري وصحبتها حين أن كانت تشعر بميل نحو شلي فسافروا الى سويسرا وجاسوا خلالها حتى لوسرن . على أن مقامهم بين جبالها وعلى شواطئ بحيراتها لم يطل أكثر من ستة أسابيع عادوا بعدها الى بيت صغير على شواطئ التمس أقام ثلاثتهم فيه . ولقد أدى هذا الفرار ومعاشرة شلي لماري من غير

زواج بينهما لمقاطعة جدوين اياه وتحريمه بيته عليه وعلى التين قر معه ، وذلك رغم ما كان لشلى على جدوين من فضل امداده بالمال فى ظروف كان هو وزوجه هاريت فى أشد الحاجة اليه . بل لعل هذا الاسراف من جانب شلى كان أهم ماغير قلب عصفوره عليه ودفعها الى الحرص على أن تمتع من الحياة بما يتمتع به غيرها من مثيلاتها مما كان يراه زوجها سخفاً غير لائق بالنفوس السامية . ولم يكن جدوين وحده هو الذى قاطعه ، بل قاطعته كذلك أسرة نيوتن ومدام دبواقيل ، وانقطع عليه كل سبيل لرؤية كورنليا ترنر . ولم يبق له من أصدقاء يزورونه غير صديقه القديم هو ج وصديق استحدثه فى الزمن الاخير يدعى بيكوك .

على أن عزلة شلى مع حليلته وجين لم تحل دون التهاب قلبين بحبه التهابا دفعها الى مايشبه الجنون . فقد شعرت زوجته هاريت وستبروك من يوم أعلن اليها عزمه على الاتصال بماري جدوين أن ضرام الحب الذى كان قد خبا فى قلبها ، حتى صارت لاترى عليها من بأس فى التحبب الى أمثال الضابط رايان ، تلهبه الغيرة من جديد . وأى شىء أفتك بقلب امرأة من رؤيتها امرأة أخرى تسلبها رجلها وتسلبها معه هناءها ومجدها ؟ انها لترى حقاً لها ان تعذب من تحب وان تصد عنه وان تلاطف غيره . ولترى واجبا على محبها أن يرى فى صدها من علائم الدلال مايقتضيه مضاعفة التودد لها والاذعان لكل أمرها والتماس الصفح عما دعا الى هجرها ، وان لم يك شىء قد حدث يوجب التماس الصفح عنه . بل لترى واجبا كذلك عليه الا يقتضيها إسعاده أو تهوين الحياة

عليه . فان فعل فهو أثر لاقلب له ولا إنسانية ملء نفسه . أما إن رأى فى امرأة أخرى ملاك سعادته فأحبها فتلك الجريمة والطامة الكبرى ، وتلك المرأة النادرة هى أحط من حملت أرض أو أظلت سماء . وكذلك كانت مارى فى رأى هاريت . وقد ازدادت لها انقضاو من شلى إعراضاً حين بعث اليها يستضيفها عنده فى بيت مارى . أف لها من منافقين ! . وأف لهذه اللعينة مارى التى لا ترلها هاريت تعدلها رشاقة ولا جمالا ولا عذوبة صوت ولا حلاوة روح ، بل التى لم تؤت أى حظ من الجمال ، بل التى تستحق أن تسحق وان تمض بالاسنان وتقطع بالاظافر . ولئن كان شلى قد ضعف أمامها كل هذا الضعف فلتنتقمن منه هاريت شر انتقام .

كان ذلك شأن هاريت . أما مانى املاى فقد جعلت تحس فى بيت جدوين وحدة ممضة مؤذية ، وتشعر بنفسها غريبة ليس لها فى البيت أم ولا أب ولا صديق ، ويلذعها قلبها بذكر ما كان يفيض به ازاء شلى من حب واخلاص . فها هو شلى قد اختار مارى عليها . وهذه جين قد وجدت فى نفسها الجرأة لتصحبهما . أما هى فلم يبق لها فى الحياة الا أن تنظر الى أشباح اليأس تحيط بها ، وان تتمنى لشلى فى نفس الوقت الهناء والسعادة . وكيف تراها تحمل له أى ضغن ولم يكن تفضيله مارى جدوين عليها الا حلقة من سلسلة سوء الحظ الذى أحاط بها منذ مولدها حتى لجعلها تؤمن بأنها ولدت تحت طالع من النحس لا سبيل لمغالبته . ألم يمت أبوها فتزوجت أمها من جدوين ثم ماتت هى الاخرى تاركة إياها يتيمة الأبوين لا معين طاق الحياة بالا بر هذا الرجل الذى استبقاها عنده رأفة بها واشفاقا عليها !

فهذا فضل عليها شلى اختها لأمها فليس ذلك أقسى ما أصابها به القدر . وحسبها أن تظل على اخلاصها له ورثائها لما وصل اليه من فقر اضطره ليعيش وامرأتين معه عيش كفاف ودون الكفاف . بل لقد أثقلته الديون حتى اضطر دائنوه الى أن يلجأوا القضاء فجعل وجاله يتعقبون شلى يريدون إلقاء القبض عليه كى يفى بديونه أو يسجن . ولولا يقظة فانى وإخطارها شلى بالأمر وفراره من متعقبيه لذهبوا به الى السجن، ثم لما تحرك قلب أبيه لاستخلاصه بعد الذى كان بينهما من قطيعة وجفاء

وناء شلى بهذه الوحدة وثقل عليه حملها وأنهكه الى جانبها هذا العيش الضنك الذى لم يتعود فى سومة أظفاره، فانهدت قواه وامتد المرض الى صدره وأظلمت الدنيا فى عينيه ورأى شبح الموت مقبلا يبتلعه . كم كان من قبل سعيداً مع هاريت! وكم كان سعيدا بحديث صديقاته والمعجبات بنبله وجماله وذكائه وسمو روحه ! ثم كم كانت السعادة تفيض عنه منبعثة اليه من قلب الوفية الجميلة العطوف مارى ! وهذا هو يرى نفسه معها منفرداً يتحاشاه الناس ويمرون منه فراراً ثم لا يكون له عنهم من بديل الا مرض قاتل. يا لليأس! أيتها الآلهة ، آلهة الخير والنعمة والسعادة! أحق أنت جميعاً قد تخليت عن هذا الرجل لغير شىء الا أنه صديق الفضيلة المخلص ونصير الحرية الصادق ! أو حق أنك حكمت عليه بالموت لأن جمعية النفاق والوهم والباطل قد ابتعدت عنه ، خشية أن يفضح نوره ما فى ظلماتها من رجس وشقاء وجريمة ؟ ليكن .

فهـذه مارى ما تزال تحنو عليه وتبعث اليه من دفء قلبها المملوء حباً ما يستبقى خيط الرجاء معلقاً فوق هاوية اليأس .

لـكن خيط الرجاء هذا لم يمنعه من أن يرى الهاوية وكل ما حوته. بل لم يمنعه من أن يحدق فيها ببصره ويستمد من مناظرها المؤسية إلهاما ساميا أوحى اليه أولى قصائده الوجدانية الـكبرى: « الاستور أو روح الوحـدة » . وبطل هذه القصيدة شاعر شاب طوف فى الآفاق وجاب أقطار العالم أن رأى الوسط الذى يعيش فيه والجو المحيـط به لا مهبط فيه لوحى الهـدى ولا مبعث لسمو الالهام . « وأدت به خطاه طالمة مسبح أفكاره السامية الى زيارة ما خلفت الايام الخالية من حرائب الآثار. فرار أثينا وتير وبعلبك والبطيح الذى كان مقاما لبيت المقدس وأبراج بابل المهدمة والاهرام الخالدة ومنفيس وطيبة وكل ما تخفيه تلال الحبشة السوداء الصحراوية من عجائب النقوش على المسلات والمقابر وآباء الهول المحطمة . وهنـاك خلال المعابد الخربة حيث تقوم العمد والصور العجيبة لما هو أعظم من الانسان ، وحيث ترقب شياطين الرخام أسرار نيران الزوال ، وحيث يعلق السامى أفكارهم الصامتة على صمت الجدران المشتملة اياه — هناك ، أمهل الخطا مستذكراً العالم فى صباه محدقا طوال النهار المحرق بهذه الصور الصامتة. وما كان القمر إذ يملأ الصالات العجيبة بتلألئه المتموجه ليقفه دون متابعة استذكاره . بل ظل يحدق ويحدق حتى أضاء خلاء عقله نور كأنما هو الالهام القوى جعله يرى من خفايا الزمن يوم ولد ما يهز النفس » وهناك جاءت له صبية من بنات العرب بطعامه فكبلها غراما . لكنه ما لبث أن عاود تسياره خلال

بلاد العرب والعجم والهند ، جوابا ربوع الارض وأقطارها باحثاً عن الحقيقة،حتى اذا كان يوما مستلقياًخلال غابة تظله رأى أثناءنومه «صبيةمبرقعةتجلس الىجانبه وتتحدث فى أنغام مهومة خفيضة بصوت كأنه صوت روحه حين يستمع اليه فى هدأة تفكيره .. وكانت المعرفةوالحق والفضيلةمدار حديثها. كذلك كانت الآمال الكبرى فى الحرية المقدسة وما إلى هذه الآمال من أفكار هى أعز الأفكار عليه . ثم كان الشعر أن كان هو شاعراً » . وتجلت الصبية له فى خلال هذه الامال والأفكار والمنى فاذا جمال شخصها عــدل جمال نفسها . واندفع محاولا ضمها اليه والامساك بها ، لكنها تراجعت ثم ابتلعتها ظلم النوم . ولم تجده محاولته إعادتها إلا أن أيقظته الهزة فاذا القمر ينحدر الى المغيب وتباشير الضياء ترتفع خلال سجوف الليل . « إذن ضاعت هــذه الصورة الجميلة ، وضاعت الى الأبد فى تلك الصحراء الواسعة لا طرق فيها ، صحراء النوم الـكالح ! أفيؤدى باب الموت الاسود الى جنتك العجيبة أيها النوم ؟ » وينطلق الشاعر مفكراً أثناء تطوافه مستذكراً صورة النوم الجميلة ملقياً جمالها فى كل ما تخلع الطبيعة على الوجود من جمال . وفيما كان عنــد اليونان يصر بزورق لامالك له فألقى بنفسه فيه ودفعه الى لج الموج يتقاذفه رجاء أن يجد الى الموت سبيله . وتدافع الموج والزورق حتى دفع به الى جبال القوقاز فى نهر تحيط به أحراش وغابات ، وهو خلال ذلك كله ما يكاد ينجو من خطر حتى يفجؤه خطر جديد يقرب له الامل فى النجاة بالموت والعود الى صورته الجميلة التى أراه النوم إياها . وفى هــذه السياحة يشدو شلى متغنياً ببهاء الطبيعة وحلو حديثها العذب الى نفس بطله

الشاعر المشوق ، الموت حتى يصل بيطله الى غايته . وفى سياحة الزورق هذه بين موج البحر وفوق لجة النهر يصف شلى فى النهر الذى أبدعه خياله ما نقل بصره الى حسه من آثار حين عوده من سويسرا راكباً نهر الميز ونهر الرين وما على شواطئهما من بدائع الجمال ، ويصف منابع التمس التى زارها بعد عوده الى انكلترا وحين هده المرض ، ويصف تلك المناظر الساحرة التى تهز القلب والفؤاد — مناظر شواطىء التمس كانت وما تزال مثال جمال قل فى الجمال نظيره .

قال شلى مقدما قصيدته هذه لقرائه : « والصورة ليست خالية من العظة لأبناء الحياة الحقيقيين . ذلك أن الشاعر فى عزلته وانحصار خواطره فى نفسه ، تثأر منه شياطين طاغية قاهرة ماتزال تطارده وتخب به لتبلغ وإياه الى الدمار السريع . على أن الذين لا يخدعهم حظ سخى ولا يدفعهم ظمأ قدسى الى شك المعرفة ، ولا تضللهم خرافة باهرة ، ولا يحبون شيئاً على هذه الارض ولا يتعلقون بأمل وراءها ، ويقفون بمنأى عن التعاطف مع أبناء جنسهم ، لا يسرون بأفراح الانسان ولا يأسون لأحزانه — هؤلاء وأمثالهم يبوءون بلعنة عادلة : يذوون لأنه مامن أحد يشاطرهم الاحساس بطبيعتهم ، فهم أموات الأحياء لا هم أصدقاء ولا عشاق ولا آباء ولا هم أبناء الدنيا ولا المحسنين الى بلادهم — وأخلق بالذين لا يحبون بنى جنسهم أن تكون حياتهم عقيمة وأن يهيئوا لأرواحهم فى كهولتهم قبراً موحشاً » .

وانك لترى كل تلك المعانى التى أوردتها المقدمة متجلية فى ابهى صورها وأعظمها جلالا وروعة فى هذه القصيدة التى لا تزيد

على سبعمائة وعشرين بيتاً، والتى تمثل حياة النفس لعباد الوحدة وعشاق الطبيعة ، مصورة فى ألحان مباوية الموسيقى الى حد يحملك معه على موج أنغامها حتى لينسيك فيها جمال الانغام بديع الصور ، ولينسيك ابداع الصور روائع التفكير، ولتنسيك روعة الفكرة جمال النغم . ثم تتراوج الانغام والصور والافكار فيلد تزواجها صورة الشاعر الشاب شلى فى وحدته المنقطعة وأمله المتهدم فى الحياة ومواجهته الموت فى رعدة تتغلب عليها قوة نفسه ، وانتصاره بعد ذلك على الألم وعلى المرض وعلى الوحدة وعلى الموت بهذه القطعة الخالدة من موسيقى شعر الآلهة .

وفيما كان شلى فى هذه الحال توفى جده السير بيش وآل اليه بالوصية ايراد سنوى يبلغ ستة آلاف من الجنيهات . ولو انه لم يكن فى شغل بتفكيره وبشعره ، ولم يكن ينظر الى مزيد المال على أنه جريمة تدفع الى النقص وتزرى بالفضيلة ، لناصب أباه الخصومة حتى يصل الى كل ما أوصى به جده . لكنه لم يرد الانقطاع لعرض الدنيا اذا وجد ما يسد حاجته ويكفيه شر دائنيه . لذلك قبل أن يرتب له أبوه من ذلك الميراث كله الف جنيه فى السنة تكفيه وتكفى مارى ، وتكفى من يلوذون به من صحبه . وردت اليه هذه الطمأنينة المادية شيئاً من سكينة النفس كان فى أشد الحاجة اليه ليتغلب على مرضه . وتغلب بالفعل عليه . وبدأ فى سماء المجد يتألق له نجم ان لم يكن ساطعاً سطوع نجم بيرون فقد كان موضع التقدير من بيرون نفسه . على أن الاقدار لم تكتب لنفسه طول سكينة يوماً من الايام . فقد بدأت مارى على جمال حكمتها ورجاحة عقلها

تحس الغيرة لوجود جين معهما فى البيت . وزاد لهيب هذه الغيرة ضراماً حين حملت فلم تستطع ملازمة شلى مما جعل جين تصحبه فى جولاته وتعود وإياه متوردة الخد فياضة القلب بما يبعثه شلى الى كل ما يتصل به ومن يتصل به من جمال الوجود . وما عسى أن يصنع شلى بإزاء غيرة ماري الا أن يطأطىء لارادتها ويخضع لمشيئتها ، وبخاصة أن جعلها الحمل فى حال عصبية تثير معها كل مناقشة إياها لمشيئة تعلنها دموعاً تذرى وأنات ألم تقطع النياط الحساسة لقلب محبها الصادق الاخلاص، والذى لا يرى مع ذلك فى الحب معنى الاثرة الذى يذكى الغيرة، بل معنى التسامح التام والاشتراك مع كل من فى الوجود فى الاحساس والعاطفة . واضطرت جين لمغادرة المنزل وفى نفسها من الحب لشلى ما بغض مارى اليها ودفعهـا للتفكير فى الانتقام لانفتها الجريحة . ولم يعوزها طول بحث لتدبير الانتقـام . فاذا كانت مارى تعتز بخليلها شلى وماله من نبل ومجد ومال فلتتخذ هى خليلا لها أعرق من شلى نبلا وأعظم مجداً وأكثر مالا . وليكن هذا الخليل لورد بيرون نفسه. ولم تلق فى تحقيق غايتها عنتا. فلم يكن بيرون ينظر للحب نظرة شلى ولا كان يمبأ بالعفة ولا بطهر القلب. على أن مارى استراحت حين علمت بنجاح صاحبتها ولم يبق بعـد عندها موضع للغيرة منها .

وظلت مارى فى سكينتها حتى وضعت طفلا لثمانية أشـهر من الحمل فلم تقدر له الحياة . ولم يطل بها الحزن عليه أن حملت مرة أخرى وان وضعت غلاما أسمته باسم أبيها وليم . لـكنها برغم سعادتها بهذا الطفل الثانى ورغم شعورها بكل ما فى الامومة من مزيد فى

الحياة ، جعلت تحس وحدتهما وسط الجمعية الانكليزية تزداد وطأتها ثقلا عليها وعلى برسي . وأكثر من الشعور بالوحدة كان شعور آخر يهيج غيرتها بمقدار ما يهيج آلام زوجها ويبعث الى نفسه نوعا من لذع الضمير طالما حاول اخفات صوته ، ثم ظل مع ذلك دائباً على تعذيبه . فقد أصبح هجره هاريت موضع حديث الناس وموضع لغو أصدقائه . وكان اجماعهم منعقداً على ان البائسة لم تأت اثماً ولم تجن ذنباً ، وانما الذنب والاثم على شلى الذى هجرها وتبدل بها غيرها وظن أن لم تبق له جريرة عندها ما دام قد ضمن لها ولابنائها منه رزقها. وألح بالزوجين هذا الشعور فانتهيا الى استحالة المقام بانكلترا وضرورة هجرها الى حيث لا يعلم قصتهما أحد . واذ كانت هواجس مارى قد هدأت من ناحية جين وكانت هذه وحدها هى شريكة حبهما وصلتهما منذ نشأتهما، فقد تقدمتا اليها حين اقترحت عليهما السفر الى سويسرا للمقام عند ضفاف اللمان على مقربة من جنيف. وزاد مارى اطمئنانا الى اقتراح صاحبة سرها ان علمت انما حملها عليه اعتزام بيرون ان يسافر الى تلك الناحية فرارا من اتهام الجمعية الانكليزية اياه بمعاشرة اخته اوجستا . فلن تعود بين جين وشلى اذاً أية صلة ما دام بيرون سيقوم منها مقام شلى من مارى . واذاً فليسافر ثلاثتهم الى ضاحية جنيف ولينتظروا هنالك مقدم النبيل العظيم .

ووصل الجوار ثم وصلت الصداقة ما بين بيرون وشلى ، وزاد الصلة بينهما أن ظلت جين مقيمة عند شلى مترددة آناء الليل وأطراف النهار على بيرون . على أن أمتن ما قوى صلتهما كان الوسط الذى

يسيحان فيه ، وسط سويسرا الشعرى البديع الذى يوحى الى النفس والقلب والفؤاد ما يملؤها شعراً ويزيدها الجمال قدراً . وكان هذا الوسط، أول لعارفيهما،فى أجمل فصوله . فقد نزلا جنيف إبان بشائر الربيع فى مختتم ابريل ومفتتح مايو حين تبدأ حياة الطبيعة يقظتها من سنة الشتاء ، وحين تبدو أوراق الشجر فى زهو خضرتها الجديدة مازال لها كل صباها وكل ما للصبا من بهاء وروعة ، وحين الثلوج ما تزال تغطى قمم الجبال وتكسو عوالى سفوحها كساء يتباين ضياؤه أثناء النهار ويكسوه شفق المغيب كما يكسوه مطلع الشمس،من الاحمر القانى الى الاحمر المتورد ، بما يملأ خيال الشاعر بأجمل الصور،وحين تنعكس سفوح الجبال وقممها الرفيعة على سطح مياه البحيرات حين يكون هذا السطح هادئاً ، فاذا دفعت الريح الموج متلاطما فوقه رأيت السفوح وأشجارها والقمم وثلوجها تموج متلاطمة هى الاخرى. قوى هذا الوسط صلة الشاعرين أن وجدا فيه خير مسرح لخيالهما المتوقد وأن شعرا فى شغاف قلبيهما بحب له يزداد استعارا كلما ازدادا من هذا الجمال الساحر نهلا. وذلك فرق ما بين حب الطبيعة وحب المرأة، بل هو فرق ما بين حب المرأة وحب كل جمال غيرها فى العالم . حب المرأة انانى اثر غايته الحيازة والملك والمدلة والاسترقاق . فكل شركة فيه تنتهى الى الجريمة جهراً كانت الجريمة أو غيرة تنتهى الى القتل وماهو شر منه . اما حب الجمال فى غير المرأة فهو الحب الذى يفهمه شلى وينادى به ويدعو الى الشركة فيه . هو تقديس الجمال فى كل مظاهره والاشتراك فى هذا التقديس ليزداد بالاشتراك سمواً وجلالا . وكم كان لجمال سويسرا واشتراك شلى وبيرون فى

تقديسه من أثر فى شعرها. على انه مع ذلك لم يقرب بين روحيهما، لأن كل واحد منهما كان يختلف عن الآخر فى نظرته الى الحياة تمام الاختلاف. فقد كان عقل شلى وقلبه وشخصه وكل وجوده شعراً خالصا. كان لا يعرف شهوات الانسانية، ولا يخلط بنفسه وضيع عواطفها، وكان لذلك يرى جمال الكمال ملموسا محسوسا، وكان يصور كل مايقع عليه حسه وكل ما يجيش بقلبه فى أنغام من الشعر والنثر لا أثر لغير روح الجمال وعبادته فيها. وانك لتعجب حين رجوعك الى ديوان شعره والى رسائله وكتبه، اذ ترى كل سانحة من السوانح وكل منظر من المناظر وكل ما اتصل بشلى فى يقظته وفى نومه، قد اكتسى ثوب الجمال، واذ ترى هذا الجمال مصوراً أنغاما قدسية يختلط عليك حين تقرؤها أشعر هى أم موسيقى أم رسم وتصوير. اما بيرون فكان شاعراً، ولكنه كان انسانا له كل شهوات الانسان قوية غالبة عليه متحكمة فيه، وكان يرى الجمال من خلال هذه الشهوات فيشدو به فى شعره ساميا بهذه الشهوات نفسها الى سماء الشعر ملبسا اياها شغوف الجمال. وكان بيرون مشغوفا بالمجد تتسلط عليه شهوته الى حد اشفق معه عليه شلى كما اشفق عليه لضعف روحه ونزوله الى مراتب الانسانية الوضيعة رغم ما انعمت به آلهة الشعر عليه من جمال فى النفس وسمو فى الفكر. وكم حاول أن ينزع به الى غير ماتدفعه اليه شهواته، وأن يجذبه الى ناحيته، ناسيا أن ليس فى مقدور انسان تحوير طبعه. ولم يتغير عليه بعد ماافترقا، بل جعل يراسله طمعا فى انقاذه من براثن شهواته التى كانت فى نفس الوقت مصدر كل وحيه والهامه.

وبرغم ماامتلأ به قلب شلى من جمال سويسرا فقد كان دائم الحنين الى بلده . وكان حنينه قويا منذ أول مغادرته شواطئها وان كانت هى التى ألجأته الى هجرها والفرار منها . قال فى خطاب بعث به الى صديقه بيكوك يعبر عن تحنانه : «إنكم لتعيشون على شواطئ نهر مطمئن بين تلال خفيضة تغطى الغابات سفوحها . ثم إنكم تعيشون فى بلد حر لايحول بينكم وبين ماتسماون قهر، وتطمئنون فيه الى مايقع فى ملككم. وما بقيت هنالك بمالك وما بقيت اعتبارات الأثرة التى تنطوى فكرة الملكية عليها، فأنا واثق من أن انكلترا أكثر الممالك حرية وتهذيبا . ولعلك كنت حكيما فى اختيار طريق حياتك . على أنى ان عدت واحتذيت مثالك فلن آسف على مارأيت من ممالك أخرى . فلدينا لاريب كثير من الخبيث والطيب ، وكثير يزدرى وكثير يمكن السمو به نحو الكمال . لكن ذلك كله لايعرفه ولايحس به من لم يبرح حدود وطنه . ومادام الانسان على ماهو عليه فان التجربة التى جربها لن تدعوه لاحتقار الامه التى ولد فيها. بل على العكس من ذلك ، هو لن يقدر مايربطه بوطنه من حب حتى يجعله الغياب عنه آشد شعوراً بجماله . فشعراؤنا وفلاسفتنا وجبالنا وبحيراتنا ، وقرانا ومزارعنا التى لاشبيه لها عند غيرنا — كل هذه روابط لن تنبت ولن تتحطم أو اصبح ولاادراك عندى ولا حس لى »

وربما فات شلى أن يذكر شيئاً آخر يربطه بانكلترا ولايقل عن كل ماذكر قوة . ذلك عصفوره هاريت وابنته يانث وابن هاريت المنسوب اليه وإن أنكر هو أبوته . فلقد كان كثير التفكير أثناء

وجوده على شواطىء ليمان فى هاته التى ترك وأن كان يعلم أنها فى طمأنينة مادية بما أجراه عليها من رزق وما يجريه أبوها عليها من رزق مثله . وكان يعلم من أخبارها أنها ساء سلوكها وانحدرت الى مستوى يقرب من الدعارة ، فكان يحس على نفسه فى ذلك بعض التبعة ، ويحاول اقناع نفسه بما يزحزح التبعة عنه . ولئن كانت هاريت قد أساءت اليه أغليست بأنت ابنتــه ويجرى فى عروقها الدم الذى يجرى فى عروقه . لـكنه لم يكن يستطيع الاسراع الى مغادرة سويسرا ومارى متعلقة بها جريحة القلب من سوء صنيع مواطنيها بصاحبها وبها . لذلك اقتنى بالاشتراك مع بيرون زورقاً جعلا من رياضتهما عليه فوق لج الليمان مستوحى لالهامها . وكثيراً ما كانت تصحبهما مارى وجين ، فتتغنى هــذه الاخيرة بصوتها الحلو الرقيق توقع أنغامه على موجات هواء الجبال العذب الصافى ما يزيد الهواء والبحيرة والجبال جمالا ومايزيد الهام الشاعرين روعة وقوة .

على أن جين كانت قــد حملت من بيرون منــذ كانا فى انكلترا وآن لها وهم فى سويسرا أن تضــع طفلة دعتها كلارا الحمرا . من يومئذ بغضت الى نفس بيرون . وازداد لها بغضاً حين تحدث اليه شلى فيما يريد أن يصنع بالطفلة وبأمها . وكان بيرون فى هذا الظرف غليظ القلب مغالياً فى التبجح باحتقار خليلته واحتقار النساء جميعاً واعتبارهن متاعا لشهوة الرجال الى حــد لم تطقه الذكيــة الانوف مارى ولم تطق معه البقاء على مقربه من هــذا الذى يدعوه النــاس نبيلا فاذا نبله قحة ، ويحسبونه شاعر الحب فاذا حبــه شهوة واذا شعره غلظة كبد حتى على ابنته . واقترن هذا الشعور عندها بعاطفة

البر بأبيها ، وذكرت تعاليمه السامية وآراءه فى المودة والتسامح والحب ، وشاركت شلى فى فكرة العود الى الوطن ، فكتب الى بيكوك يطلب اليه أن يستأجر له داراً (ڤيلا) على شواطىء النهر وبين الاحراش والغياض .

وعادوا الى لندن وفى عزم شلى أن يستقر بوطنه طول حياته ، غيرذاكر أن لاسلطان لأحد من الناس على مصيره ، جاهلا ما خبأته الاقدار له من فواجع تقض مضجعه وتضطره الى المقام بقية أيامه بعيداً عن انكلترا . فقد كانت فانى املاى تراسلهم حين كانوا بسويسرا ، وكانت رسائلهم لها تبعث الى حياتها البائسة خيطاً من نور الامل فى رؤيتهم يوما من الايام . فلما عادوا الى لندن وعاشوا فيها عيش يسار استمتعت به جين، مع وجود أمها فى بيت جودوين ترهق فانى وتعذبها فى حين كانت فانى أحق بهذا اليسار الى جانب أختها مارى، ولما كانت لاتستطيع الالتجاء الى بيت شلى لتعلق قلبها به تعلقاً يجعلها لاتطيق المقام الى جنب مارى ، بعثت اليهم صباح يوم من سنة ١٨١٧ بخطاب من برستول تقول فيه : « انى ذاهبة الى مكان أرجو ألا أعود منه أبداً » . فسارع شلى بالسفر الى برستول ومنها عرف الى أين سافرت الفتاة ، وذهب الى الفندق الذى نزلت به فالفاها انتحرت بالسم وتركت خطابا تذكر فيه أن بؤسها كان سبب اختزالها أيامها وقضائها على حياتها .

وهز هذا الحادث قلب شلى وأعصابه . وزاده اهتزازاً ماذكرته مسز جدوين من أن فانى انتحرت لفرط حبها إياه حباً ضاع كل أمل

فى أن يجد مايحييه .ومن هزة قلبه يعبر فى أبيات ستة يقول فيها : « اصابت الرعشة صوتها ساعة رحلنا وما كنت أدرى ان القلب الكسير مبعثها ، فرحلت ولم أعن بما ألقت من كلمات . إيه أيها البؤس! ان هذه الدنيا الفسيحة كلها ميدانك » على أن قلبه بلغ غاية الاضطراب لحادث آخر ليس دون هذا الحادث شناعة ولا قسوة . ذلك أن هاريت بلغ من انخراطها فى اللهو أن حملت من أحد عشاقها وأن تقدم بها الحمل وأن شعرت إذ ذاك بما يتهددها من عار يسقطها أمام شلى، ويرفع مارى فى نظر الجمهور عليها، ويوقع على رأسها ما كانت تزعم أنها تدبره من أسباب الانتقام . فذهبت الى النهر ألقت بنفسها فيه، فانت منتحرة هى الاخرى . ولم يكن بين انتحارها وانتحار فانى الا أيام .وذكرت التيمس خبر انتحارها وسببه من غير أن تذكر اسمها. وكان هذا الخبر أقسى مما يستطيع شلى ان يطيق: دعارة فحمل فانتحار . ياللعار! ويابؤس ابنائه بأم تلك خاتمتها! ويابؤسه هو بحياة تسير مسرعة الذبول الى أوراق الربيع منها فتهجره ابنة عمه هاريت جروف وتعقه أخته اليزابث وتختبط التخاص من مس هتشنر وتتجافاه كرنليا ترنر وتنتحر بسببه فانى املاى وهاريت وستبروك. ترى ألم يأن لهذا البؤس أن ينتهى وللقدر أن تهدأ عليه ثائرته ؟

لكن لا ! فقد طلب حضانة أبنائه من هاريت فخالفه فى ذلك أبوها وتقاضيا فأنصف القضاء الجد ، بحجة أن عقيدة شلى فاسدة ويخشى أن ينشىء ابناءه عليها .وانما خفف من هذا الحكم أن عهد القضاء بالحضانة الى من اختاره شلى مطمئنا على اقامته فى تربية ابنائه. وأتاح له انتحار هاريت أن يعقد على مارى وأن تعود لذلك

حملته مجاعة جدوين . وكان العوز قد ألح بتؤلف (المثل السيلسى) حتى صار عالة على شلى هو أيضا وحتى جعله يعود الى الاستدانة من جديد . ولم يكن جودوين وزوجه وحدهما هما اللذان تكفل شلى فى ذلك الظرف ، بل أعان صديقه لى هنت وكان له خمسة أولاد من زوجه ماريان ، وأعان صديقه بيكوك كى يتابع كتابة روايات رأى شلى فى كتابتها خيراً واصلاحا للجماعة . مع ذلك كله ، مع الاضطراب المالى ومع انتحار فانى وهاريت فى أيام ، ومع منازعة وستبروك اياه فى حضانة أبنائه فقد تحصن شلى بارادته الصلب وحاول أن يقهر كل هذه الآلام ويتغلب على كل المتاعب . وشلى على رقته وإيثاره وعبادته الجمال وتعلقه بأنغام الشعر ، كان ذا عزيمة لا تعرف المستحيل ولا تقف فى سبيلها عقبة من العقبات . تحصن بهذه الارادة وحاول أن يظهر أمام الجمعية وكأن لم تفجعه فاجعة ولم تغير الحوادث التى مرت من نفسه . فابتاع بيتاً ظريفاً فى مارلو أقام فيه مع مارى وابنه وابنته منها ومع جين وابنتها من بيرون . على أن الارادة الصلب والعزمة القوية تستطيعان مغالبة الوجود وقهر المستحيل مادامت الروح التى تحركهما وتصدران عنها مطمئنة قوية لم يندس اليها ما يضعفها ويزعزع ركنها . فأما ان ضعفت الروح واهتزت قوتها المعنوية فقل على الارادة وعلى العزمة وعلى كل قوة من قوى النفس السلام . وقد هدت الحوادث التى مرت بشلى من روحه فتضعضعت وضعفت . وشعر بهذا الضعف فانطلق ملتمساً الوحدة كى يخفى عن الناس ضعفه . والانوف المعتز بقوة نفسه لا يشعر بجرح ينال منه مبلغ شعوره الآن يراه الناس ضعيفا مثلهم خاضعا لتصاريف القدر خضوعهم . فى هذه

الساعات التى ينـال المرض فيهـا من جسم ذلك الانوف أو تنال الحوادث من نفسه ، يود لو ان الانسانية كلها ولو أن أقرب الناس إليه من ذويه وأهله لم يكن حوله منهم أحد ليطلع على ضعفه أو يشاهد هبوط نفسه . وحمل شلى يذهب الى جرد التس المنقطعة يقضى فيها نهاره وشطراً من ليـله يشاهد الطيور السابحة فى الماء والمحلقة فى الجو ، ويحاول استعادة سكينته بالتحليق فى عالم الشعر واستمداد القوة الروحية من وحيه . ولم يكن فى استمداده هذه القوة يرجو غير ما كان يطمع فيه أول سباه من تحقيق سعادة بنى الانسان. فقد زادته الحوادث التى كرت عليه ايماناً بأن نظام الجماعة الفاسد هو الذى دفع الى هذه الـكوارث المتوالية وتلك المآسى الفاجعة التى تذهب باللب وتصدع القلب . وكانت قصيدته الـكبرى الثانيـة — ثورة الاسلام — والتى كان يصقل فيها من قبل أن تفجأه الحوادث تباعا ، قد فرغ منهـا أو كاد . فوضع قصيدة أخرى أسماها « لاونوستنا » ضمنها مسارح أفـكاره فى ذلك الظرف العصيب من حياته . وضعها أثناء تلك الجولات فى أحضان الوحدة مقتضياً نفسه أن يكون فيها مثال سمو فوق المرض والالم وكل أسباب الضعف الانسانى الذى لا يليق بأمثاله ممن يؤمنون بأنهم يقبضون بيدهم على ناصية الوجود

ولم تكن جولاته ولا كان شعره ليرداليه طمأنينة نفسه أو ليدفع عنه غائلة همومها . بل لقد جنت هذه الهموم على صحته وردت اليه مرض صدره وجعلته يفكر جاداً فى وسيلة البرء من علته . كتب الى جودوين فى ٧ ديسـمبر خطابا يصف له فيـه حاله جاء فيـه :

« وكانت صحتى تسوأ بالفعل ، فان مشاعرى لتهبط أحيانا الى حد الذهول والموت ، ويبلغ بها التوتر أحيانا أخرى الى حد غير طبيعى من التهيج. ولاقتصر على مثل مما يمنحنى خاصاً ببصرى . فان اوراق الحشيش وغصون الاشجار البعيدة لتبدوا لناظرى بدقة مكرسكوبية. فاذا اقبل المساء غرقت فى بحار من الهبوط وضعف الحياة وبقيت مستلقيا فى كثير من الاحايين ساعات على المضجع وانا بين النوم واليقظة فريسة تهيج ذهنى مؤلم أشد الالم. ذلك أمرى الا فى قليل . أما الساعات التى خصصت للبحث فقد اخترتها بعناية من بين الساعات التى استطيع المقاومة فيها. على أن ذلك كله ليس هو سبب تفكيرى فى السفر الى ايطاليا ، طمعا فى أن تنقذنى منه . كلا ! بل لقد عاودتنى نوبة صدرية . ولئن كانت قد انتهت الآن غير تاركة وراءها اثراً لوجودها الا ان هذا العرض دلنى على حقيقة المرض الذى يؤويه صدرى . ومن مصلحتى أن يكون هذا المرض بطبعه بطيئاً وان الانسان اذا عنى بتتبع تقدمه استطاع التغلب عليه والدرء منه فى جو داف ء . فاذا عاد هذا المرض على صورة واضحة أصبح واجباً على أن أسارع بالذهاب الى ايطاليا . على أنا إنما سافر حين يصبح السفر واجباً محتوماً ، لمخالفة هذا السفر لمقاصدنا أنا ومارى متأثرين بعواطفنا نحوك . وأحسبنى فى غنى عن أن أذكرك ، فضلا عن آلام الذين يعيشون بعد موت عزيز عليهم ، بسلسلة النتائج السيئة التى تترتب على موتى. وانما يحملنى على هذه الصراحة القاسية مابدا لى من أملك لم تدرك حقيقة مقصدى . فليست الصحة وانما هى الحياة التى أبحث عنها فى

ايطاليا. ولست أبحث عنها من أجلى ؛ فأنا أشعر بالقدرة على تعسى إزاء مثل هذا الضعف، وانما أبحث عنها من أجل أولئك الذين تفيض عليهم حياتى سعادة ومنعمة وأمناً وكرامة ، ومن بينهم من ينقلب عليه أمر هذا كله الى النقيض إذا أنا مت».

وما يشير اليه شلى من سوء فهم جدوين اياه هو تأويل جدوين سفر صهره الى ايطاليا بأنه الفرار من معونته المالية . على ان مارى لم تبرح انكلترا حتى كفلت لأبيها عن طريق شلى رزقاً يقيه فى شيخوخته ، كما كانت طوال إقامتهم فى ايطاليا لا تنفك تعينه بتخصيص ما يقم لها ثمناً للروايات التى تكتبها لمعونته ، وبدفع شلى ليزيد فى هذه المعونة جهده . ولعل احساسها بحاجة شلى الى السفر كانت أشد من احساسه هو . فقد أثقلتها جين وابنتها وطمعت جين وجودها على مقربة من بيرون ان يضمها اليه . على أنهم ظلوا ينظمون شؤونهم ويبيعون دارهم فى مارلو ويقتضون الناس فيها ما يستطيعون اقتضاءه منهم حتى استطاعوا اعداد أهبتهم للسفر، وسافروا فى منتصف مارس سنة ١٨١٨ قاصدين ميلانو ليذهبوا بعد منهـا الى البحيرات الايطالية آملين ان يجد شلى فى شمسها وهواء الجبال عندها ورقة الطبيعة المحيطة بها ما يشفى صدره ويرد اليه سكينة نفسه .

— ٥ —

غادر شلى انكلترا قاصداً ايطاليا فى مارس سنة١٨١٨. غادرها مستصحباً زوجه مارى وابنيهما وليم وكلارا ، ومستصحباً كذلك جين كليرمون التى كانت تطمع فى أن ترى ابنتها من بيرون فتروى

غلة قلبهما الظمىء شوقا لها . وعبروا بليون فجبال الألب حتى نزلوا ميلانو . ومن هناك قصدوا البحيرات الايطاليـة التى كانت منذ القدم مثوى الشعراء وملهمة الموسيقيين والمصورين ورجال الفن جميعاً . وأعجب شاعرنا بهذه البحيرات و (بكومو) منها بنوع خاص ، حتى لرأى أن ليس يعدلها أو يزيد عليها جمالاً غير بحيرات كلارنى الارلندية . على أنهم لم يجدوا فى منطقة البحيرات الدار التى تعجبهم فعادوا الى ميلانو حيث وجد شلى فى كنيستها ملجأ تطمئن له روحه التى كانت ثائرة من قبـل على كل كنيسة وعلى كل دين . وكنيسة ميلانو جديرة بأن تطمئن النفس لجمال ظاهرها وهيبة داخلهـا هيبة تبعث الى النفس طمأنينة الاستسلام للحياة ولما بعـد الحياة . لكن أمر شلى لم يقف عند حد الاعجاب بجمال كنيسة ميلانو وهيبتها ، بل إن نفسه التى كانت جموحا ثائرة على كل شىء قد وجدت فى آلام الحيـاة وصدماتها المتواليـة ماهد من ثورتها وما أراها ضعف الانسان وعجزه التام أمام الوجود ، فعاد الى نوع من الايمان بعظمة الوجود ممثلا فى الكنائس والبيع وبيوت الله جميعاً ، وجعـل يرى فيـه ملجأ يحتمى به الانسان من ضعفه ، بل يستريح فيه الى هذا الضعف ويطمئن له .

ومن ميلانو كتب شلى الى بيرون فى شـأن الجرا منبئاً إياه بوجود أمها معهم . ورد عليه بيرون معلناً فى صراحة وقحة ، أنه لن يرى لجين وجها ولن يسمح أن تعرف اليه طريقا . ورأى شلى أن لا وسيلة للتخفيف ولو بعض الشىء من حدة صاحبه الا أن يذهب اليه فى البندقية . وغادر مارى وابنيهما وذهب مستصحبا جين التى

تملت فى السفر وجاء أن ترى ابنتها ولو خلسة ومن غير أن يعلم بيرون بوجودها . وتقابل الشاعران وتحادثا فى الامر حديثاً انتهى بيرون معه الى السماح بأن تقيم الطفلة مع أمها وشلى فى دار له بناحية « است » شهرين كاملين على ألا يكون لجين بعدها مطلب عنده أو رجاء فيه . وأعجب شلى بالمدينة السابحة غرقى فى لجة الادرياتيك وبجزرها وكنائسها وبهوائها العطر بأريج الحب المتغنى والها فترات من الليل بأناشيده ، الذاهب فى المتاع به الى حدود الاستغفار عنه باقامة الكنائس الكثيرة عليها تسع ذنوب أهل المدينة جميعاً وعل إحداها تكون أقرب من الاخرى الى دعاء مستجاب .

ورأى بعد الذى عرضه بيرون وبعد ذهابه وجين وابنتها الى است أن المكاتبة بينه وبين مارى أصبحت لا تكفى فدعاها لتقيم معهما . ومن هنالك عرفت مارى البندقية وتعلقت بها وبرمال الليدو ومصيفها. على انها ازدادت من بعد بهذه الرمال تعلقا أن خلفت فيها ذكرى فاجعة هى الاولى فى حياتها. فان شهرى «إست» ما كادا يقاربان التمام ليعود شلى ورهطه الى ميلانو حتى كانت ابنته كلارا قد مرضت . وبرغم ما بذلت أمها من عناية بها ظل المرض متابعا سيره حتى رأوا ضرورة الذهاب الى البندقية لاستشارة طبيب رجوا ان يكون أكثر من طبيب «إست» حذقا ومهارة . لكنهم ما لبثوا ان وصلوا هناك حتى كانت الفتاة فى آخر لحظاتها وحتى أسلمت روحها البريئة الطفلة قبل ان يحاول طبيبها الحيلولة بينها وبين بارئها . وذهب شلى وذهبت مارى يحملان الجسم الصغير

الى الليدو فدفناه فى رماله المختلطة صفرتهـا البهيجة بزرقة الموج المحيطة بها والدائمة الصفو برغم ما تحوى من أجـداث ورموس يخلع عليها جلالها جمالا.

وجرحت أمومة مارى جرحها الاول وعرف الحزن الى قلبها السبيل.لكنها سرعان ماتعزت وظهرت بمظهرالقوىالذى لايتزعزع حين تمر به أعاصير القدر. وكان مظهرها هذا بعض تعاليم أبيها. فنحن فى الحياة نؤدى للحياة واجبها بالبر بالانسان والعطف عليه، وبتخليد النوع والقيام على تربيته، وبنشر العرفان والنور والعمل لتمتلىء بها القـلوب جميعا، وبالجهاد فى سبيل الحرية كى تتمتع بها البشرية كلها. وما أحسنا أداء هـذا الواجب فمن حقنا أن نكون سعداء أيا كانت النتيجة التى يسفرعنهاعملنا. وكل شر لاسلطان لنا عليه ولا قوة لنا فى دفعه لا موضع للأسى من أجله. وتثكل الوالد ولده بعض مالا سلطان لنا عليه من أعاصير القدر، فليكن موقفنا منه موقف إباء وكرامه لا موقف ضعف وحزن. ليكن موقفنا منه موقفنامن خصم يناوئنا ليبتز مالناء أفترانا اذا ابتزه فأتلفه خاضعين له متخاذلين أمامه؟ أم أنا على العكس من ذلك نزداد أمامه كبراً وأنفة؟ كذلك ظهرت مارى أنو طالم يعرف الهم ولاعرفت الدموع الى عينها ولا الى قلبها سبيلا. ولعل هذه التعالم لم تكن وحدها مصدر شجاعتها ومبعث قوتها. فهذا ولدها وليم مايزال فى أحضانها فلها فيه عزاء. وها هى ماتزال، كما لا يزال شلى، فى مقتبل العمر وقوة الشباب، فما يزال لهما فى المستقبل وأبنائه وبنائه وسـعادته رجاء. وكلارا التى

فقدت كانت ماتزال بعد طفلة يعد عمرها بالشهور ، فلا موضع للأسى عليها حتى عند أشد الناس تخاذلا أمام الحزن إلا بمقدار .

فأما شلى فقد احتمل موت طفلته فى سكينة ، ثم احتمل نفسه وأهله وسافر وإياهم من البندقية . وكان يشعر بأن المقام فى شمال ايطاليا ، وبخاصة عند مقدم الشتاء ، ليس مما يبعث الى نفسه السكينة والى صدره دوام ما يرجو له من عافية وبرء ، فساروا منحدرين جنوبا حتى وصلوا الى روما حيث زار شلى من آثار المدينة الخالدة مازاده قدراً لشعر فرجيل ولشعر دانت . وبعد اقامة قصيرة بها قصدوا الى نابولى . وهناك على شاطىء خليجها الساحر البديع ألقى شلى عصا تسياره آملا أن يجد فيها الطمأنينة التى تيسر له الانخراط فى خيالاته وتأملاته وتتيح له أن يتم قصيدته (بروموتيه الطليق) ينادى فيها كما نادى فى قصيدة (الملكة ماب) بمبادىء الحرية والفضيلة ، ويضع فيها الانسان بإزاء قوى الطبيعة وماوراء الطبيعة وقد قيدته كلها بقيودها فاذا هو يحاول من طريق ارادته ومن طريق حرية فكره أن يحطم هذه القيود وأن يتغلب على هذه القوى وأن يقف منها جميعاً موقف المتحكم فيها المسير لها ، ثم اذا محاولته تنتهى به الى الفوز على القوى جميعا بفضيلة صدق النزعة والايمان بالحرية وتقديس الحياة والجمال فيها وبالحب الطاهر الذى لايعرف الأثرة ، وانما يشترك فيه الانسان وسائر ما فى الكون ، اجلالا وتقديسا لما أبدعت الحياة فى الكون من جمال وجلال . وهو يضع قصيدته هذه فى صورة الرواية التمثيلية جاعلا أشخاصها آلهة الاولمب وعلى رأسهم جوبتر ومن حولهم الارض والمحيط وعذاراه والكون

وارواحه والكواكب وأفلاكها والوقت وانسيابه، و(بروموثيه) بإزاء ذلك كله يجاهده وينتصر عليه . وهو هنا يخالف الاسطورة القديمة التي تجعل هذا البطل وقد كبلته الآلهة وأمرته قيده بسبب محاولته مناجزتها والتغلب عليها بالعقل والحيلة . وإن كثيرين من النقاد ليتحببون الى تفضيل هذه القصيدة من قصائد شلى على كل ماسواها ويعتبرونها الدرة من شعره . فأما آخرون فينحبون الى تفضيل رواية (سنسى) اذ يرتفعون بها الى مقام روايات شكسبير . على أن (بروموثيه) قد نسجت على غير طراز (سنسى) . فبينا هذه الاخيرة، على ماستري، تعبر عن حب آثم يقع فى الحياة بين أب وابنته اذا بتلك تتخذ من الكائنات كلها ومن الوجود وما فيه بعض مسرحها . وهى فى هذا قد سارت على طراز قصيدة ملتون (الفردوس المفقود) وان اختلفت عنها قوة بأن ارتفعت عليها فى بعض المواضع ولم تصل الى رفعتها فى مواضع أخرى .

ولم يطل بشلى المقام فى نابولى . وكأنما كانت يد القدر الى قست به حين مقامه على أرض وطنه لجملته لا يطيل المكث فوقها الاليعود الى الارتحال عنها محملا هموماً وآلاماً ماتزال لم يهدأ تأثرها عليه برغم ماكان يبدع فى الشعر من آيات ليست القصائد الكبرى الا بعضها . فلقد مرض ولده وليم أثناء كانوا فى طريقهم عائدين الى روما . وخيل الى مارى أن الأمر يسير وأن القدر لن يفجعها فجيعتين متواليتين ولن يسلبها هناءة الأمومة وهى، بعد حب الصبا، كل ما للمرأة فى الحياة من عزاء . وعاد الطبيب الطفل فنصح اليهم أن ينتقلوا به شمالا . لكنهم لم يكادوا يتهيأون للرحيل حتى

أصابت الطفل نوبة من الدوسنطاريا ألزمتهم المكث الى جانبه .
وبقى شلى ستين ساعة ممسكا بيد طفله خائفاً أن يفر الطفل منه الى غيابات الابد . ذلك بأنه كان طفلا ذكيا عطوفا رقيقاً ، وكان جميل الصورة الى حد سحر النسوة الايطاليات بزرقة العينين زرقة جذابة وبشعره الذهبى المتموج تموج الحرير الناعم نعومته . ثم انه كان قد أصبح وحيد مارى بعد موت أخته كلارا ، فالفجيعة فيه تحيي من قلبها الفجيعة الاولى وتسدل على وجهها الضحوك وعلى ثغرها العذب الابتسام سحابة كآبة وهم يصيب شلى منهما حظ غير قليل . وكان لشلى فى القدر وجاء التصرف بحكمته ازاء طفل لم يقترف ذنباً يجزى من أجله بالموت بله المرض وآلامه وتباريحه . لكن المرض والموت وكل ما يصيبنا فى هذا العالم من خير وشر ليس فى نظر القدر جزاء عمل من أعمالنا ، ولكنه لوح كتابنا لامفر لنا من الاذعان له والسير فى خطواته . لذلك لم يعبأ بما كان مرجواً عند شلى ومات الطفل ودفن فى مقابر الانكليز بروما ، هذه المقابر التى أعجب بها شلى وتمنى لو يدفن فيها ، ولم يكن يومئذ يعلم أن مابقى من رفاته سيرقد هناك الى جانب جثمان طفله .

مات وليم فانهارت عند مارى كل تعاليم أبيها وأسلمت للألم نفسها ولم تطق للوجود جلاداً . سكب الهم ظلمته فى قلبها واتشح الوجود كله بالسواد أمام بصرها ورسم الحزن على ثغرها وفى نظرتها صورة اليأس والبؤس وشرد لبها الى قفار الانتحار ، وصورت لنفسها خاتمة كخاتمة أختها فانى إملاى . وعبثاً حاول شلى تعزيتها بالترويح عنها بأن انتقل بها الى الريف من روما وأسكنها قصراً جميلاً يحيط به الزهر

والشجر . ومابهجة الزهر وخضرة الشجر أمام قلب كسير وبصر حزين؟! انها كلها تنقلب سواداً وتزيده على همه هما وأسى . بل تصبح ضحكات الزهر بعض سخرية القدر ، وابتسامة الخضرة شماتة بنا فى مصابنا . وعبثاً حاول أبوها لما علم عمق حزنها أن يردها الى صوابها والى تعاليمه . فالصواب والتعاليم والمنطق والعقل أوهام وصور ماتلبث أن تطير وتتلاشى اذا هى ارتطمت بقسوة الواقع . وأى واقع أشد قسوة من الموت ، بل من الثكل ، ثكل الام لوحيدها ولا مومتها؟ وشلى وحبه وحنانه أصبح هو الآخر مملولا ، ثم نسى كما نسى غيره أن لم يبق من الوجود أمام مارى الاحزنها مجسما فى ذلك القبر الذى أوت اليه رمات وليم . واذا ناداها شلى قائلا : «أين ذهبت ياعزيزتى العزيزة مارى تاركة إياى وحيداً فى هذا العالم القفر ؟ ان صورتك الساحرة ما تزال هنا الى جانبى ، لكنك أنت قد فررت عن طريق الوحدة المؤدى الى صوامع الحزن المظلم . » اذا ناداها شلى هذا النداء لم تزد على أن تمعن فى التماس صوامع الحزن تاركة اياه يبحث عن عزائه فى خير دواء لكل ألم وخير بلسم لابلغ جرح : فى العمل المتصل لأداء ماألقت عليه الاقدار رسالته كى يشدو بها الى العالم أنغاماً سماوية . وأعانته سماء ايطاليا الصفو على متابعة تفكيراته وشدوه . على أن القدر الذى قسا كل هذه القسوة على مارى لم يلبث أن دس اليها من عنده بلسم عزاء . فقد حملت وأحست فى أحشائها روح الأمومة من جديد ، لكنها كانت فى خشية من معابثة القدر فظلت على عبوسها وان زالت سحابة الهم التى كانت تظلها مما جعلها تنظر للحياة مرة أخرى نظرة رجاء . ولما اقترب

موعد وضعها ارتحل بها شلى الى فلورنسا لتكون فى رعاية طبيب صالح ، ثم ان فى حوفلورنسا الجميل ما يضاعف الرجاء لمن لديه ولو قبس من رجاء ، فيها أجمل مافى ايطاليا من الآثار، ويضوع ريحها باسماء دانتى، وسافانارولا، وجيوتو، ودوناتلو. لذلك كانت الزوجين خير موئل. فيها وجد شلى خير مايلهم شاعريته التواقة للجمال تلتمسه فى كل مظاهر الفن والطبيعة، وفيها وجدت مارى مزيداً فى رجائها. حتى اذا وضعت وألفت نفسها أمام جديد فى ذراعيها طفل حملته أحشاؤها عاودت ثغرها أول ابتسامة من يوم مات وليم، ودعت الوليد برسى فلورنس شلى ، لعترافا بفضل زوجها فى تقويتها على اجتياز محنتها ، وبفضل فلورنسا التى عادت اليها فيها أمومتها وحياتها ورجاؤها .

ولما جاء الشتاء وقرس البرد فى المدينة « الجميلة » نصح الطبيب الى شلى بالسفر الى بيزا ، فذهب بأهله اليها وأقاموا بها . وهنا تألفت حول شلى جماعة يعيش كل منهم عيش العزلة ، فلما وجدوا هذا الدائم الترحال استقر بينهم أحاطوه ، وانضم اليهم قسيس لقبه أهل البلد بشيطان بيزا واسمه الاستاذ المبجل باكشيانى . وكان قسيساً قليل الدين واستاذاً لايعلم الناس شيئاً وزير نساء وعما خدمة معارفه. وكل من يمر ببيزا كان يصبح من معارفه. وقد قص هذا الشيطان على شلى قصة استدعت كل التفاته . ذلك أن الكونت فقيانى ، أحد كبار أعيان بيزا ، فتاتين من زواج أول ، وأنه لما تزوج ثانيه بعد وفاة زوجه الاولى ذهب بفتاتيه الى الدير ، أن كانت زوجه شديدة الغيرة منهما لفرط جمالهما. وكان جمال كبراهما (إمليا) رائعا رائع

جمال الملائكة ، كما كان ذكاؤها حاداً وخيالها متوقداً بما يبعث الى كل نفس أشد الاعجاب بها والاشفاق عليها . وكان قصد أبيها من التحلب بها وبأختها الدير أن يقيما فيه حتى يتزوجها من شاء من غير أن يمهرها الا ببعضها شيئاً. فلما سمع شلى بالقصة هاجت فى نفسه كل عواطفه القديمة . أليس هو يريد الكمال مجسما فى انثى لها جمال المرأة وعقل الرجل ؟ وهذا هو قد ضل تقديره الكمال فى هاريت جروف وهاريت وستبروك . وها هى مارى جدوين وان كانت ماتزال من خير النسوة اللواتى عرف إلا أنها أصبحت أمامه جسما محسوساً ذا حدود وأبعاد وذكاء متجلياً له كل مافيه من حكمة وشعر، فلم يبق إذن فيها المجهول الذى يبحث هو دائباً فى الكشف عنه والوصول اليه ! فلتر إذن ماعسى أن تكون إمليا فيفيانى هذه من صور الكمال وما عسى أن تلهمه من روائع الشعر والحكمة .

ولمح القسيس الشيطان هذه النوازع فى نفس شلى فعرض عليه أن يصحبه الى الدير. وما لبثت الفتاة أن دخلت عليهما المنظرة حتى سحر شلى وذهب به: قوام رخص فى لدونة واعتدال ، تخلع عليه ثياب الدير البسيط زينة وانسجاما وتزيد بهاء مافيه من جمال فى كل انثناء وتثن . ومشية هى للعين أنغام تموج فى النفس والخيال فتهزهما وتبهرهما . وشعر فاحم السواد ملقى على أكتافها ليزيد وجهها البديع القسمات وضوحاً وبهراً . وعيون دعجاء تفيض نظراتها حباشهياً فيه قوة تلتهم من تقع عليه التهاما . وجبين مصقول، وأنف أقنى ، وثغر عذب وشفاه تحدث عن فيض الرغبة . والى هذه الانوثة القوية الجذابة بريق ذكاء يبدو نصيعه من حدق عيونها السوداء قويا ملتهباً .

وألقت الفتاة ساعة دخولها المنظرة عصفوراً فى قفص، فتوجهت اليه بهذه الكلمات : « أيها الصغير المسكين ! . إنك لتموت ! كتئاباً ! فما أشد إشفاقى عليك ! . ألا كم تتألم حين تسمع أسراب أمثالك تناديك ثم تطير مع الرياح من غيرك الى بلاد مجهولة ! أنت مثلى محتوم عليك أن تقضى هنا فى سواد حظك . أواه ! لو كنت أستطيع انقاذك ! » . وانطلقت مرتجلة مثل هذه العبارات بصوت عذب ساحر تزيده اللغة الايطالية بموسيقاها سحراً وعذوبة . وزادت أنشودتها الطائر الحبيس سر شلى فاستأذنها أن يعود اليها وأن يستصحب زوجته واختها، فرضيت طيبة النفس .

وتزاوروا وتكاتبوا وأبدت مارى اعجابها بجمال إمليا وتقدير شلى اياها على انه الجمال الاسمى. أما شلى فانطلق من فوره يضع قصيدته (ابيسشديون) يصف فيها الجمال والحب ويدعو فيها إملى لتذهب واياه الى قصر قديم فى جزيرة أبدعها خياله بين جزر الادرياتيك ليعيشا هناك وليسبحا بين جمال تلك الجزيرة وأشجارها وأنهارها فى عزلة لا ينغصها عليهم أحد من الانس . وانك لتقرأ القصيدة وتبلغ أبياتها أربعة وستمائة بيت فلا ترى فيها أكثر من هذا الذى ذكرنا . لكنك تراه تثيراً يطير بك فى عالم الجمال وينسيك نفسك بموسيقاه وحلاوة صوره ونديم خياله وينساب الى روحك عذباً سلسبيلا فلا تزداد الا تعلقاً به وتقديراً اياه . وفى ختام القصيدة يقول : « اذهبي أيتها الابيات الضعيفة فاسجدى عند قدمى سيدتك وقولى : إنى سيدة عبدك فرى أمرك فينا وفيه . ثم تنادين مع اخواتكن من سائر شعرى واسجدن متغنيات :

« عذب فى الحب حتى أله . لكن جزاءه فى هذا العالم قدسى لأنه إن لم ينلنا فى الحياة تبعنا الى ماوراء قبرنا ». وأنت لاريب ستحيين فى حين أكون أنا قد أويت الى هناك . فاسرعى فوق قلوب العباد حتى تقابلى ماريتا وفانا وريعوس وسائر صواحبك، ثم أهيبى بهن أن يحب بعضهن بعضا وأن يبارك بعضهن بعضاء ودعى فيا وراءك قطيع الخاطئين الطاعنين على غيرهم بخطاياهم وتعالى فكونى ضيفى — فأنا أنا ضيف الحب . »

وقبل أن يتم قصيدته ، تزوجت اميليا من غنى اسمه بيوندى قبل أن يعقد عليها من غير أن يعهرها أبوها . فلما علم الشاعر بأمرها أسقط فى يده ولم يطلق اتمام قصيدته. فهاهى رمز الحب فى طهارته قد فعلت فعلة ابنة عمه هاريت جروف وفعلة النساء جيما ممن عرف هاهى سقطت الى مستوى القطيع تاركة إياه يعض البنان ندما على خطئه فى أمرها ويصب عليها اللعنة أن أضاعت عليه وحيه وإلهامه.

وفيما كان شلى فى هيامه بأميليا كان بيرون يتخطى حليلة الى خليلة حتى انتهى إلى أجمل نسوة البندقية وتدعى جيوكشولا . وكانت من عائلة نبيلة ومتزوجة رجلا نبيلا . لكن صلة المرأة بخليل لم تكن فى البندقية يومئذ أمراً إداً ، حتى فى نظر زوجها . على أن هذه السيدة اضطرت للسفر مع هذا الزوج الى رافنا ومن هناك دعت بيرون ليترك البندقية ويقيم عندها . فلما تلكأ بعثت اليه تخبره بأنها مريضة فطار اليها وأقام الى جانبها . وكما انتقل هو من البندقية فقد نقل ابنته اللجرا الى بولونيا . فلما

هاشت جين كليرمونت بأمر ابنتها بعثت الى بيرون تستعطفه أن يبعث بها اليها . فرد عليها رداً غليظاً يقول لها فيه: ان التربية في بيت شلي على أساس النباتية في الحياة المادية والالحاد في الحياة الروحية مما لا تطمئن له نفسه ، ورفض أن يسلم البنت لها . فجن جنونها وبعثت اليه بخطابات قاسية اعتذر له عنها شلي في خطاب بعث به اليه يقول فيه : ان جين أم ، وإنه وان لم يطلع على ما تكتب لوالد ابنتها الا انه يرجوه أن ينظر اليها بعين الرحمة والمغفرة . لكن بيرون رأى في هذا كله ما أغضبه،فأراد ان ينتقم لنفسه من شلي . وكان قد وصله خطاب من قنصل انكلترا في البندقية ، يقول له فيه: ان الناس يتهمون شلي بمعاشرة جين ، وان مربية كانت في خدمة شلي تذيع أن جين حملت منه فأجهضها في نابولي حين كانت زوجه في روما . وتنفيذاً لانتقامه بعث بيرون يستدعي شلي الى رافنا « لأمور خطيرة » . فلما كان عنده أطلعه على خطاب القنصل مما هاج ثائرة شلي وجعله يكتب الى زوجه يطلب اليها أن تكذب ما تذيع خادمهم الخؤون. وأظهر بيرون اقتناعه بما كتبت ماري وان لم يقم بأي مجهود لدى القنصل في البندقيـة يندد به ما علق بذهنه من أكاذيب .

وزار شلي الجرا في الدير الذي بعث بها اليه أبوها،في بانيوكافالو، فألفاها كبرت ولكن النحول بدا عليها . ومع نحولها بدت وسط الاطفال قريناتها في جمال جذاب يدل على أنها أرق منهن وأرق منبتاً . غير أن حياة الدير كانت بحيث تعرض صحتها بل تعرض حياتها للخطر .

وكانت خليلة بيرون معتزمة السفر الى سويسرا . فطلب بيرون الى صديقه أن يكتب اليها ، ولو لم تسبق له بها معرفة ، ليقنعها بالعدول عن فكرتها والذهاب الى فلورنسا أو الى بيزا . وفاضت السعادة بشلى حين علم أنها قبلت الذهاب الى بيزا للمقام على مقربة منهم . ولم يبد بيرون اعتراضاً أن كانت جين قد تركت تلك المدينة الى فلورنسا حيث قامت بأمر التعليم فى إحدى مدارسها . ولم يلبث اللورد أن نزل المدينة الصغيرة التى يقيم فيها شلى حتى أبدت جميتها كل الاعجاب به فصار قصره مقصد المتأنقين فى حين بقى شلى الرسول الروحى لأهل المدينة جميعاً . وكانت حياة بيرون حياة ترف لم يلفه شلى . فقد كان يسهر الليل كله ثم ينام فى الصباح الى ما بعد الظهر ويذهب من بعد ذلك للصيد ويعود الى سهره ثم الى مكتبه ليدبج قصائده التى استوقفت أنظار انكلترا كلها فكانت تلتهمها التهاما . وكان حقاً على شلى أن يحتمل هذه الحياة زمناً كان يعتبر صاحبه فيه ضيفاً عليه فى بيزا . لكنه مالبث أن رأى مارى تريد الانخراط فى سلك هذه الجماعة المترفة حتى صدف عنها وعاد الى حياته البسيطة الأولى . ووجد فى أسرة انكليزية مقيمة ببيزا ما يسر له الابتعاد عن بيرون وجماعته . تلك أسرة وليمز وزوجه جين . وكانت جين وليمز رشيقة رقيقة هادئة النفس موسيقية الصوت يريح وجودها أعصاب من يتصل بها . وكان صوتها حلو الغناء مما أتاح لشلى أن يذهب وهو معها فى أحلامه الشعرية وكأنه يسير وسط حديقة غناء . وزاده إعجابا بجين

وليز ما دأبت عليه ماري من الشكوى من أنها لاتجد من اسباب المسرة في الحياة مايجد غيرها .

وكان لأسرة وليمز صديق بحار من الاشقياء يدعى ترلوني . وقد دعوه الى بيزا ، فاشترط أن يكونوا سبب تعارف بينه وبين شلي ، وبينه وبين بيرون بنوع خاص . فوعده وليز بهذا ولم يكن عليه عسيراً . وجاء ترلوني فانضم الى عصبتهم . ولما ربطت المعرفة بينه وبين شلي برباط وثيق طلب اليه ان يبني له ولوليز يختاً يشتركان فيه ، واختار لنفسه ولوليز بيتا على الشاطىء قريبامن بيزا فأقامافيه ومعهما ماري وجين ، وجعل شلي من يخته مركبا لرياضته وخيالاته واحلامه ، وشعر بالسعادة تفيض عنه وبآلهة الشعر تواتيه بالهامها من كل جانب .

والحق ان آلهة الشعر لم تضن على شلي بالهامها يوما من الايام. لكنها كانت في هذه الفترة وخلال الاربع السنوات والنصف التي اقامها في ايطاليا أشد بالهامها فيضا ، حتى ليدهش الانسان حين يرجع الى ديوانه متى استطاع ان يكتب هذا الشعر الملائكي كله ، ثم ليزداد دهشة اذا رجع الى رسائله والى نثره فرآها لاتقل عن إلهامه الشعري غزارة فيض ولاقوة عبارة ولاملكا لعالم الجمال وكل ماحوى. ولوأنك أردت أن تحصي ما كتب من شعر في هذه الآونة وحدها لبلغ عشرات الالوف من الابيات بل مئات الألوف ! وليس يقف ما كتب من هذا عند قصائده الكبرى كقصيدة (بروموتيه) و (سنسي) و (ساحرة الاطلس) و (ابيبسشيدون) و (قناع الفوضى) و (أدونابيس) و (هلاس) وغيرها وغيرها . بل إن

له مقطوعات يقر مترجموه جميعاً بأنها أبقى الشعر الانسـانى كله على الدهر . وهذه المقطوعات التى يتحدث بها صهرة الى قبرة ، وأخرى عن سحابة ، وغيرها عن شجرة حساسة،وأخرى الىالنيل وعشرات ومئات غيرها، هى لاريب خير ماتغنى به شلى معبراً به عن صلتـه بمملكة الجمال فى الوجود . ولقد تغنى فى هذه المقطوعات كما تغنى فى مواضع كثيرة من قصائده الكبرى،تغنى على كل ما تغنى به حياة لم تكن لتحسها له ، فاذا بك وقد قرأت شلى حساً بها لامساً إياها معترفا بأنك أنت الذى كنت عاجزاً عن رؤيتها بحسك واكتناهها بقلبك . وليس شعره وحده هو الخالق حياة جديدة فى الوجود . بل أن لنثره من هـذه القوة مالشعره ، وإن كانت موسيقى شعر شلى مما يزيد فى قوة خلقه حياة وقوة .

ولشعر شلى جوانب شتى لمح القارىء بعضها فيما قدمنا له من ترجمته . فثم جانب حياته هو وتغنيه بما كان يرجوه فيها.و(روح الوحدة) و (أبيسشديون) وكثير من مقطوعاته تعبر عن هذا الجانب خير تعبير. تترنم القصيدة الاولى بيأس الشاعر وآلامه وركوبه زورق الحياة على لجة الوجود ملتمسا فى العدم راحة من آلامه ، واجداً فى خيالات الحب لهذه الاعرابية التى صبت به ثم تبعه طيفها عزاء نفسه عن بعض هذه الآلام حتى تسكن الى الموت سكونها الاخير. وقصيدته الثانية هى قصيدة الجمال والحب مجسمين فى إمليا فقيانى . أما الكثير من مقطوعاته فيتضوع بشذا الحب والجمال ويترنم بموسيقاهما على صورة لم تعرف فى شعر غير شعر شلى . فلقد كان من عباد جمال المرأة والذين يجدون فيه تمثال الكمال الانسانى مجسما . وكأنما كان

بجسمه يصبو الى هذه الأجسام التي تتمثل فيها الروح الالهامية بكل نوازعها معنى الجمال الانسانى . لكنه كان يسبح من عبادته هذا الجمال فى خيال قسرته عليه فضيلته وألزمته اياه آراؤه ومبادئه . لذلك لم يكن يدع لصبوة جسمه أن تنزلق مع تيار الغريزة باحثة عن الاتصال بمن صبا اليه ، بل كان يدع هذا الاتصال لعقله وخياله ولشعره يصوغ من الاتصال آى الحكمة وأهازيج الجمال . وهو هنا يختلف عن بيرون وعن كثيرين من الشعراء الذين يجدون فى صبوة الجسم الى الجسم شفاء لغريزة تخليد النوع كل ما يسمى اليه الحب بل كل ما يحرك فى النفس هذه العاطفة . وهذا المعنى الذى تراه صريحا جلياً فى شعر شلى هو الذى كان ينتهى باليأس الى نفوس كل من أحببنه من النسوة ؛ وبما يشبه اليأس الى نفس مارى أكثرهن ذكاء وأسماهن حكمة . فالمرأة التى ترى فى فضيلة شلى معنى من معانى الرواقية والزهد فى الحياة والرغبة عنها تشعر بنقص فى الحياة على حين خلقتها الطبيعة لتزيد فيها وتستزيد منها .

على أن جمال المرأة وان زان كل جمال فى الوجود وتوجه فليس ما فى الوجود سواه من جمال أقل إلهاما لنفس الشاعر وتحدثا الى قلبه . بل إن كثيراً من جمال الوجود ليخلع على المرأة جمالا وزينة بمقدار ماتزينه هى وتجمله . ولئن كنت ترى هذين اللونين من الجمال مقترنين أكثر الاحايين فى نفس أكثر الشعراء ، إلا أن لجمال الوجود مكانة خاصة من نفس شلى تكاد تجعل الجمال لذاته آية ايمانه فى الحياة . وهو فى هذا أصدق من كثيرين غيره نظرة وأدق حسا . وهو لهذا كان يريد أن يفصل بين المرأة كمثال

الجمال والمرأة كخلاصة النوع وكان يبحث فيها عن الجمال فى مثله الاعلى، وكان لذلك لا يرى بالجمال الجسدقيمة مالم يصحبه روح جميل هو الآخر.

وفيما سوى هذا الجانب من جوانب شعر شلى كانت المدينة الفاضلة غاية قصده من اكثر قصائده . المدينة الفاضلة بما فيها من اخاء وتسامح وحرية وتبادل محبة . المدينة الفاضلة المنزهة عن دنيا الشهوات، السامية الى مكانة هى وحدها الجديرة بالانسانية المهذبة. و (الملكتماب) و (بروموتيه) و(سنسى) تمسها اندفاعات صادقة فى الدعوة الى هذه الغاية العليا وحرب شعواء على الجمود وعلى التعصب وعلى ما يؤدى اليه الجمود والتعصب من تحكم الشهوات الدنيا فى الروح الانسانية تحكما ينتهى بها الى فسادها وذلها . ولعل هذه الصورة التى صورها الشاعر من آثار الجمود والتحكم أشد ما تكون وضوحا فى (سنسى) منها فى أية قصيدة أو رواية أخرى . فقصة هذه الرواية التى وضعها الكثيرون من النقاد والكتاب فى صف روايات شكسبير، أن الكونت سنسى بلغ من كراهية ابنته وابنه من زوجة متوفاة ، أن حدثته نفسه بالفتك بهما اثناء اقامتهما بباريس . وشعرت الفتاة بالكريهة التى يريدها أبوها لها فدبرت مع أخيها وزوج أبيها مؤامرة للتخلص من حياة ظالمهم جميعاً . وانما لجأوا الى الائتمار بحياته بعد أن لجأوا الى البابا والى كبراء روما فلم يجدوا منهم منصفاً . وكشف الأب المؤامرة فشكاهم الى قداسة البابا فأمر باعدامهم وفاقا لارادة الكونت الذى اشترى من القداسة العليا العفو عن كثير من جرائمه بثمن زاد على مائة الف من الجنيهات . ولو أن العدل أخذ مجراه فى حسبانه المؤامرة لكان (سنسى) هو

بالخليق بأن يجزى أشد الجزاء . لكن فى اعدامه اعداما للاموال الطائلة التى كان يندفها على الخزانة البابوية ! فليعدم الفقراء ، وان كانوا أنصار الفضيلة ، ولتذق الجاعة على حياة الرذيلة ما دامت تفيد منها . ثم لتثر الفضيلة على لسان شلى فى أشعار هذه الرواية الخالدة ثورة تدك عرش الظلم وتهز قوائم الظالمين .

وهو هذا الدفاع عن الحرية وعن الفضيلة ومحاولة الارتفاع بجمال المرأة ليكون مثالا لها هو الذى كان يفرق بين شلى وبيرون ويجعل من كل واحد ند صاحبه . وطبيعى أن كان اقبال الجمهور يومئذ على شعر بيرون . فالجمهور أسير الشهوات يلتمسها فى واقع الحياة . ولئن صح أن كانت ألسنة الخلق أقلام الحق فلبيرون أن يزهى على صاحبه وان ينظر اليه مشفقاعليه . لكنه كان فى الخيال كما كان فى الواقع يستشعر الغيرة منه ، وكأنما كان يجرى به خياله الى لجج المستقبل يلتمسها فيتبين خلالها ما أعده لشلى من عظمة وخلد ينافسان خلده وعظمته ويدعو الكثيرين لتفضيله عليه .

وكان حب شلى للجمال ودفاعه عن الحرية أثراً من آثار طيبة قلبه وحبه الناس وبره بأصدقائه . وقد عرف أثناء مقامه بكازامانى بالقرب من بيزا أن صديقه لى هنت فى عوز فدعاه الى ايطاليا ، واتفق ولورد بيرون أن يصدر هنت جريدة فى ايطاليا يكون لها امتياز السبق الى نشر قصائد بيرون . وفيما كان هنت فى طريقه الى بلاد الشمس والضياء ، كان شلى سعيداً بيخته سعيداً بزورق صغير صنع له كى ينقله وصاحبه وليز من اليخت الى بيته أن كانت مياه البحر لا تسمح برسو اليخت على الشاطىء . وكان كثيراً ما يستلقى أثناء

وحلاته على الماء تاركا السفين يلعب به الموج ذاهباً هو فى تيهاء تأملاته وأحلامه . فاذا عاد الى داره التمس فى جاوراته مكانا منعزلا بين الغياض والشجر وقضى نهاره يقرض من شعره الموسيقى الساحر ما يهبه الحياة والحرية تارة ولزوجه مارى طوراً ولجين وليز التى أصبحت ربة شعره فى هذه الفترة الاخيرة أكثر الاحايين. وكثيراً ما كان ينقضى النهار وهو فى عمله عند جذع شجرة اتخذها وسط الغابة مكتبا ، ناسيا أثناءذلك طعامه وشرابه ، مكبا على خياله وشعره ، حتى لكانت زوجه وكان صاحبه ترلونى يذهبان اليه ينتشلانه من عالمه الجميل السعيد ويردانه الى الحياة التى يعيش فيها على طريقته من التقشف والزهد.

ووصل لى هنت ، فذهب شلى وقابله فى ليفورنو ، ومن هنالك ذهب به الى بيرون فى بيزا ليتموا الاتفاق فى شأن الجريدة التى تحدث شلى لصاحبه الشاعر الكبير عنها . ومع ما بعث به فقر هنت وسوء حال أولاده من التقزز الى نفس بيرون، فقد ظل به شلى حتى انتهى بالزامه أن يقوم بعمل من أعمال البر لرجل أخلص للادب والشعر حياته . فلما آن له ان يرتحل عائداً الى بيته فوق سفينته عصفت ريح جعلت السفرة مخوفة،حتى لقد تردد ترلونى الذى قضى فوق لج البحر حياته فى أن ينصح لهما بالسفر. لكن شلى كان اذا اعتزم فعل . فاصطحب صديقه وليز وغلاما معهما وأقلعوا يوم الاثنين الثامن من أغسطس سنة ١٨٢٢ وانتظرتهما زوجاهما فى ذلك اليوم الذى انقضى من غير أن تقفا لهما على خبر. وانقضى الثلاثاء والاربعاء بعده فجن جنونهما وطاش صوابهما وذهبتا الى ليفورنو

بالحشتيل منهما. وعلم ترلونى بحال الزوجين فأيقن أن صاحبيه هلكا في زورقهما. وأخذ نفسه بالبحث على شاطىء البحر ما بين ليفورنو وكازامانى حتى اذا كان الرابع عشر من أغسطس عثر الباحثون بجثة عبثت الاسماك بوجهها وان لم تخف معالمه. وألفى ترلونى في جيب الجاكتة كتاب اسكيلوس فلم تبق لديه ريبة في أنها جثة شلى. ثم لم يطل بالقائمين البحث حتى عثروا بجثة وليمز. ودفنهما ترلونى في الرمل ثم ذهب مكتئباً حزيناً الى كازامانى. وحاول أن يستجمع شجاعته قواه فجعل يدور حول المنزل حتى لمحته خادم، أخبرت سيدتيها بالأمر. فما لبثتا أن رأتاه حتى تبدد كل وهم من رجاء بقى عندهما وحتى انهدتا الى الارض صعقتين قضى عليهما الترمل والهم.

ولما أفاقتا ذكرت مارى ما كان يرجو زوجها أن يدفن في مقابر الانكليز بروما. لكن نقل الجثة من بيزا الى روما غير جائز بحكم قانون البلاد الا أن تحرق الجثة وتنقل بقية التراب منها.

ففى ظهر السادس عشر من شهر أغسطس سنة ١٨٢٢، وقف لورد بيرون والشاعر لى هنت والبحار ترلونى فوق رمال الشاطىء الايطالى على مقربة من ليفورنو يحيط بهم عدد من أهل تلك المنطقة ويقف الى جانبهم جماعة من الضباط والعساكر الايطاليين، وكلهم محدق ببصره الى نار تضطرم قد بوركت بالبخور صب عليها والملح ألقى فيها وتفوح منها ريح اللحم الانسانى، وكلهم واجم مخلوع القلب ذاهب في تيهاء الحلم والذهول. وظل هذا المنظر المروع أمامهم ثلاث ساعات تباعا يهز نفوسهم هزاً فلا يزدادون ازاءه الا وجوما وذهولا، وتندى عين بعضهم بالدمع ثم تذرفه أن لا تستطيع حبسه. ويحدق

تزلونى بالعظام تحترق وباللحم تذيبه النار ، ثم تبدأ النار بعد ذلك تخبو رويداً رويداً تاركة وراءها حفنة من تراب هي كل ما بقي من رفات قيثارة الشعر الانكليزى شلى . ويحمل تزلونى الحفنة الى الارملة البائسة مارى شلى لتتولى ويتولى هو ولى هنت معها حملها الى مقابر البروتستانت فى روما كى تستقر هنالك فى أرض غريبة عن ثرى الوطن ولكن لتسعد مع ذلك باستقرارها الى جانب رفات عزيزة محبوبة هى رفات ابنه وليم . ويتم هذا المنظر المروع وتنقل تلك الرفات القدسية الى روما ، ولم يكن شلى قد بلغ الى يوم وفاته فى الثامن من أغسطس تمام الثلاثين من عمره وان كان قد خلف من شعره على الحياة ما لا يزال ثغر الشعر الانجليزى عذوبة وموسيقى تأخذان بالنفس وتملكان على المرء حسه ولبه وتبعثان الى كل ما تنشدانه وتترنمان به الحياة والخلد ، سواء أكان ما تنشدانه وتترنمان به انساناً أو طيراً أو حيواناً أو جماداً أو مجرد خيال لا وجود فى الحياة له ، ذلك بأن الحياة كانت تسرى فى كل ما لامس نفس شلى لتبقى قائمة به قروناً ودهوراً بعد موت شلى .

كان الفراغ من طبع هذا الكتاب فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٢٩

فهرس

صفحة

٧ مقدمة

٣١ الكتاب الأول: تراجم مصرية

٣٣ كليوباطره

٥٣ اسماعيل باشا

٧٩ توفيق باشا

١٠٩ محمد قدرى باشا

١١٩ بطرس باشا غالى

١٣٩ مصطفى كامل باشا

١٦٣ قاسم بك امين

١٨١ اسماعيل باشا صبرى

١٩٧ محمود باشا سليمان

٢٠٥ عبد الخالق ثروت باشا

٢٣٧ الكتاب الثانى: تراجم غربية

٢٣٩ بتهوفن

٢٦٥ تين

صفحة

٢٩٣ شكسبير

٣١١ شلى

٣١٢ ١ — نشأته الأولى

٣٢٧ ٢ — هاريت وستبروك

٣٤٣ ٣ — بعض نثره وشعره

٣٥٥ ٤ — مارى جدوين

٣٧٤ ٥ — سنى حياته الأخيرة بإيطاليا

للمؤلف تحت الطبع

حلال أوربا

ذكريات

رسائل مختارة

جان جاك روسو — الجزء الثالث وهو الأخير

رسائل فلسفية : مؤلفة ومترجمة